

الحائزة على جائزة كتارا للرواية العربية ٢٠١٦ - فئة الروايات غير المنشورة

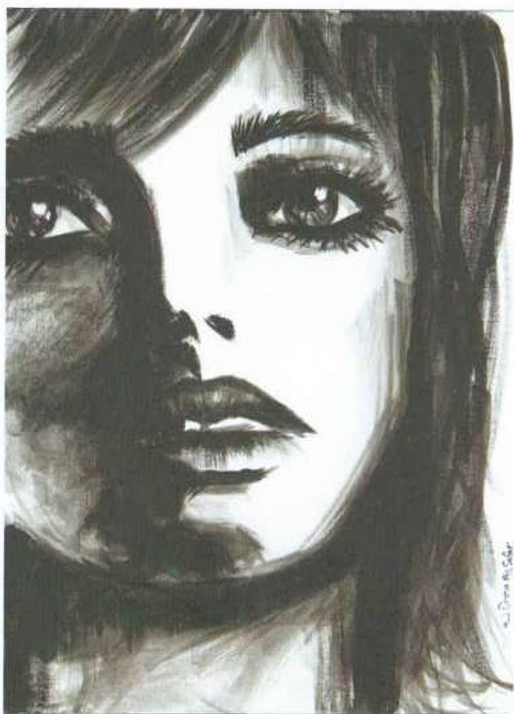
مصطفى الحمداوي

مكتبة نوميديا 211

Telegram :Numidia_Library

ظلُّ الأميرة

رواية



كتارا
katara

هذه الرواية حائزة على «جائزة كتارا للرواية العربية 2016»

«فئة الروايات غير المنشورة»

كتارا
katar
جائزة كتارا للرواية العربية

ظلُّ الأميرة

رواية

المؤلف: مصطفى الحمداوي

عدد الصفحات: 380 صفحة

رقم الإيداع: HHH

الرقم الدولي: (ردمك)

HHH

الطبعة الأولى: 2017 م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

كتارا
katar

قطر، الدوحة، المؤسسة العامة للحج الثقافي «كتارا»، مبنى 22، ص. ب: 22899

هاتف: 0097444080463 | فاكس: 0097444080479

البريد الإلكتروني: novel@katara.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص قرائية أو أي وسيلة نشر أخرى، أو حفظ معلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

«إذا كانت لنا غاية في هذه الدنيا

فهي أن يعيش البشر كافة،

مهما كانت عقائدهم وأديانهم وأجناسهم،

في سلام وأخوة»

عبد الكريم الخطابي

المقاطع الشعرية التي تسبق كل فصل

هي للشاعر الروماني «أوفيد»⁽¹⁾

من كتاب «قيثارة حب»، إصدار المجمع الثقافي، أبو ظبي، ترجمة وتقديم علي كنعان، طبعة 2003.

(1) بيليوس أوفيدوس ناسو، المعروف بلقب «أوفيد»: شاعر روماني ولد في 20 مارس سنة 43 قبل الميلاد.

والصيدُ هناك أوفرُ من جرأتك على الأمل.
وهناك ستحظى بسيدة أو دُمية،
فلا تلمسها إلا مرة واحدة أو ستكون بهجة دائمة.
كالنمال التي تسارع جيئةً وذهاباً في قافلة لا نهائية،
لتُحضر إلى بيتها حملها المألوف من الحبوب.
وكأسراب النحل الطائرة فوق الأزهار وأوراق الزعر،
وسط منفرجات الغابة الأثيرة والمروج العطرة،
هكذا تحتشدُ الأسراب المتأنقة لتلهو.
إن هذه الوفرة من الاختيار تجعل الارتياح يطول،
يأتون ليمتّعوا أنظارهم وليتمتّع الآخرون بمآهم كذلك.
أه أيتها الفضيلة، أنت في ورطة لا خلاص منها.

أوفيد

ضعها في المقدمة،

أسيرة حزينة وشعرها منفوش

وهي شاحبةٌ تماماً باستثناء الكدمات على وجهها.

وكان ينبغي على شفتيّ أن تحدثا تلك الكدمات؛

كان على عضّات الحبّ أن تترك ذلك الأثر.

التي تربي

دوى الرعدُ في أسفل الجبل؛ فسقطَ مطر غزير، وغمرت المياهُ
كوخ السيدة جيزيا، فسبحت ضفادع وثعابين في البرك الصغيرة
التي تكونت داخل الفناء. وحط على الكوخ المبني بالقصب
والقشّ والعيدان سرب من طيور سود ظلّت واجهة. نظرت السيدة
جيزيا العارية من خلال الكوة الغربية؛ فرأت لونا دمويًا يلطخ
وجه السماء، وأشعة شمس تهرب بقلق إلى الغروب.. تطلق وهجًا
كثيًّا ارتجت له مسامّ جلد جسد السيدة العاري المترهل. وكان كل
شيء أحمر كالدم يشبه حلاً مزعجًا تكرر أمامها قبل أن تشعر أنه
يكاد يصبح حقيقة.

أشعلت السيدة جيزيا نارًا وسط فناء الكوخ، ولطخ ضياء
اللهب الجدران بظلال مضطربة؛ فانعكست صور لأشكال عجيبة

على المرأة المتشقة التي وقفت قبالتها السيدة، وظهر وجهها مهيباً،
وتشجعت عضلات وجنتيها، وأسدل شعرها المصبوغ بألوان مختلطة
تشبه ألوان الطيف، وغطت بعض خُصله وجهها الذي يروي
تفاصيل جمال أمازيغي باهر، ولكنه جمال عتيق وخامد كبركان
مسالم. أطلقت السيدة جيزيا صوتاً مفزوعاً ارتجت له أركان الكوخ،
وتدفقت بعض المياه من البرك الصغيرة في الفناء. ثم رفعت يديها
إلى السماء، وبدأت ترقص.

تلبدت السماء مرة أخرى بغيوم مفاجئة، وسقط مطر غزير؛
فانطفأ اللهب، وتساعد الدخان المتمزج بقطرات المطر. أخذت
السيدة جيزيا ترقب انطفاء وهج الشمس وسط حلقة الظلام.
قالت بصوت خافت، ولكنه كان صوتاً حاداً كرأس رمح، فاهتزت
جدران الكوخ الصغير، وارتجت برك الماء التي أصبحت أكثر
اتساعاً، حتى إن ماءها ولج حجرة السيدة جيزيا:

- إنني أراهم.. إنهم قادمون من وراء البحر، وسوف تغوي
شعراء رومانية فاتنة أحد أجمل فتيان الأمازيغ وأذكاهم، في بلدة
دريو، وسوف يتبعها في الأخير، وسوف يواصل هؤلاء الغرباء
سيرهم، بعد عبور مدينتنا، إلى أن يصلوا مملكة فتيّة وسط بلاد
الأمازيغ.

ما إن توقف المطر حتى سارعت السيدة جيزيا إلى البركة التي
انحسر ماؤها؛ فشرعت تقبض على بعض الثعابين والضفادع.
مزقتها بأظفارها، ولطخت بدمائها جسدها المجمع المثير. فحضرت

روح سيفاو، بشعره الطويل، ووجهه القديم، ولحيته البيضاء؛
ليغمرها بفحولته الماحقة. ارتجت من الأعماق، وكسرت بشهقات
ذروة نشوتها الحادة بعض أعمدة القصب المنخورة، ثم نامت وسط
بركة ضحلة، متلفعة بدفء طيف سيفاو الذي زارها بروحه
الكبيرة، ورحل إلى عوالمه الغيبية بعد أن كانت السيدة جيزيا قد
غرقت في نوم هادئ وعميق.

أبتسمي الآن لمغامرتي،

أيتها الإلهة الساحرة،

وأفعمي بالدفء قلب حبيبتى الجديدة لتسمح لي بحبها.

الرومانية الحسنة

حدث ذلك في خريف أصفر شاحب، من سنة مترددة من تلك السنوات العصيبة التي مرت على بلاد الأمازيغ بعد زمن طويل من اجتياح الرومان لبعض المناطق الخصبة المحاذية لبحر ماره نوستروم⁽¹⁾ على الساحل الإفريقي. وكانت قد بُنيت مدن صغيرة وبلدات، على الطراز الروماني الكلاسيكي، في مناطق متفرقة وبعيدة عن بعضها، على غرار بلدة دريو، ومدينة أرتو⁽²⁾. وأصبحت في الأخير تلك البلدات والمدن شبه مستقلة عن الإدارة المركزية في روما، وازدهرت التجارة على امتداد الساحل الشمالي لبلاد الأمازيغ المحتلة. واندلعت طموحات في مملكة ماسيسيليا⁽³⁾ في محاولة للتمدد

(1) بحر الروم، Mare Nostrum، وهو الاسم القديم للبحر الأبيض المتوسط.

(2) دريو، أرتو، أشتين: مدن وبلدات متخيّلة.

(3) ماسيسيليا: مملكة أمازيغية تأسست قبل الميلاد بين الغرب الجزائري وشرق المغرب.

وطرد الوجود الروماني من المنطقة، وأرسل الرومان تعزيزات لإخماد تلك الثورات، ورسّت سفن عسكرية ضخمة في مرفأً قديم على الساحل الجنوبي لبحر ماره نوستروم، وكانت تلك السفن الشراعية محملة بأعداد كبيرة من الجنود يترأسهم قائد عسكري محنك خاض الكثير من المعارك، ولم يخسر منها معركة واحدة، اسمه أورليوس سيبيو. استقرت القافلة الكبيرة قرب نهر غير بعيد عن الساحل، واستراحت لأيام، وكان جل الجنود وقادتهم يصطحبون معهم أسرهم؛ فالرحلة إلى إفريقيا ليست رحلة لمعركة واحدة، بل لكسب الحرب، والاستقرار لحراسة مناطق النفوذ الروماني، وكسر شوكة الثوار الأمازيغ.

انطلقت سانيس، الفتاة اليافعة ابنة القائد العسكري أورليوس سيبيو، ذات الاثنتي عشرة سنة، ترح على ضفة النهر صحبة والدها ووالدتها والخادمة بيرينة. كانت جذلة، وتشعر بسعادة غامرة لوجودها في مكان تكتشفه لأول مرة. وكان رأي والدها، القائد العام للجيش، قد استقر على أن يترك أسرته في مدينة أرتو الهادئة، ثم يمضي بجنوده للقضاء على ثوار مملكة ماسيسيليا ليعود ثانية ليستقر في مدينة أرتو.

بعد استراحة كافية، انطلقت القافلة محملة بالزاد والمؤونة، على أن تصل بعد حوالي شهر إلى بلدة دريو؛ لتتزوّد بالطعام والكلأ وباقي الحاجيات الأخرى قبل أن تواصل سيرها نحو مدينة أرتو. وتهادت القافلة في سيرها، وعبرت الغابات والجبال والوديان إلى أن

وصلت أخيرا إلى بلدة دريو، وحطت رحالها ليس بعيدا عن غابة الكستناء الكثيفة والنهر الصغير الذي تحفه صخور رمادية متشققة مكسوة بالأعشاب وبعض النباتات الصغيرة.

منع القائد أورليوس سيبو جيشه من دخول البلدة دفعة واحدة، أو في جماعات كبيرة، وأمر أن يدخل البلدة، وسوقها بالخصوص، ستون جنديا في اليوم على الأكثر حتى لا تحدث بلبلة أو زعزعة للنظام العام في البلدة الصغيرة، التي يقطنها ليف كبير من المستوطنين الرومان في تعايش غير عادل مع السكان الأصليين الأمازيغ.

خصّص حاكم بلدة دريو السيد مونسو استقبالا استثنائيا للقائد العسكري أورليوس سيبو، وأحسن ضيافته، وأقام له وليمة عظيمة، وأمر بِشَيِّ مائة وخمسين ماعزا للجنود وأسرهـم، ووزع عليهم الخبز والعسل بسخاء. وانتعشت التجارة في دريو خلال المدة القصيرة التي قضاها جنود الروم في البلدة، وتوجه القائد أورليوس سيبو وزوجُه وابنته سانيس- في زيارة ترفيهية- إلى السوق، وتجوّلوا على باعة المشغولات اليدوية والحلي الفضية والأواني الفخارية، ومروا عبر بوابة السوق. وفجأة رأَت سانيس فتى أمازيغيا يافعا، في كامل نضج مراهقته، يشتغل بائعا للكستناء المشوي، بهرها بالبهاء والجاذبية التي تحيطه. كانت وسامته لافتة، أبيض البشرة، ولون حاجبيه وشعره أسود فاحم، يرتدي ملابس بدت لسانيس غريبة، ولكنها أضفت رونقا بديعا على قامته المنتصبه كشجرة شامخة.

ركضت نحوه، ثم نظرت إليه، وتلاقت عيناها فجأة وكأن وميض برق حادّ اشتعل بينهما. شدّة الفتى بائع الكستناء، وهو يرى أمامه فتاة رومانية شقراء، تفاحية الوجه، تتفجر أنوثتها الطفولية بخجل، وترتدي لباساً أنيقاً غير مألوف عند الفتيات الرومانيات في المنطقة. ابتسما لبعضهما في اللحظة نفسها، وسرت في أعماقهما رجّة دغدغت مشاعرهما البريئة. أخذ أنير سلّة صغيرة، وملاها بالكستناء المشوي، وسلمها للفتاة:

- هدية إلى زائرة رومانية جميلة.. ولكنها عابرة مع الأسف.

- شكراً، ليس لديّ ما أقدمه لك في مقابل هذه الهدية اللطيفة، ولكنني أخبرك بشيء.. إذا زرتَ مدينة أرتو يوماً، قد نلتقي هناك.. اسمي سانيس.. أنا ابنة قائد الجيش أورليوس سيبو.

شتتت ابتسامة فاتنة في وجهه، وانسحبت تمشي مشية ملكة طفلة.

كان المعلم العجوز ماسين يجلس شارداً بجنب الفتى بائع الكستناء. وحين غادرت الفتاة الرومانية، تابعها بنظرات مشدوّهة، ثم قال بصوت خافت وكأنه يحدث نفسه:

_ هذه الفتاة يجب أن تصبح أميرة، وعلى أيديها قد تشرق الشمس على بلاد الأمازيغ.. وقد يدفن في ظلها بطل أمازيغي!

لم يفهم الفتى اليافع أنير مدلول كلام المعلم ماسين، ولكنه أدرك أن لهذا الكلام عمقاً لن يتيسر له فهمه إلا بعد أن يستوعب الكثير

من العلوم. وكان بجانب المعلم ماسين السيد أفولاي، تاجر الملح، يجلس على كيس كستناء نَيِّء، وكان غارقا في موجة عجيبة من الدهشة.. دارت كلمات المعلم ماسين في رأسه كأزيز نحل مستفز، ولكنه لم يعثر على شيء يقوده إلى فهم كلام المعلم.

شَعَرَ أنير بخواء بعد انصراف الفتاة الرومانية. وبعد مغادرة القافلة بلدة دريو، بدا وكأن حنينا دائما سيجره نحو الفتاة، إلى درجة أنه توقف عن بيع الكستناء في باب السوق مُدَّةً تزيد عن ثلاثة أشهر تقريبا، واعتكف في كهف قريب، وانقطع للقراءة والنهل من المخطوطات التي استعارها من المعلم ماسين، ولكن طيف الفتاة الرومانية الشقراء ظل يُلازم ذهنه، ولم يفارقه أبدا.

رأيت حلما، وكنت خائفا

هناك.. تحت تلّ مشمس تنتصب

غابة من البلوط الأخضر تكتظ بالجدوع،

وكانت أغصانها تُواري كثيراً من الطيور.

شهوة السفر

تساقط في ضحى كئيب ضباب رمادي كثيف على بيوت بلدة دريو الطينية الصغيرة المتناثرة على سفوح التلال الصخرية شمالاً، والغابة الكثيفة جنوباً. وصادف في ذلك الضحى، كما العادة، تجوال كوكبة من حرس الرومان المشاة وسط السوق، وقد ملأت أنوفهم رائحة ثمار كستناء تضيع في الأجواء بشذا فواح. وجّه رئيس الكوكبة فوراً رُفقاءه ناحية باب السوق، فرأوا أنير وسط دخان يتصاعد من مجمر يشوي فيه الثمار الناضجة المشهوة، وقد تجمّع حوله بضعة رجال أمازيغ من أعمار مختلفة، نفرّقوا بمجرد رؤيتهم الحرس. واصل أنير شيئاً ثمرات الكستناء، وهو يُدندن بأغنية شعبية مفعمة بالحوية. تحلّق الحراس حول العربة، ثم شرعوا في تناول الثمار اللذيذة بنهم. واستمر أنير يشوي الكستناء بإتقانه ومهارته

المشهوره، غير مكترث بزواره الثُقلاء الذين انهمكوا في الأكل، وهم صامتون. وبعدهما أنهى رئيس الحرس التهام آخر ثمرة كستناء، نظر إلى أنير، ثم خاطبه بنبرة حادة:

- لطالما حذرناك من الاجتماع بتلك الفئة من بُلّه الناس.

ارتسمت ابتسامة هادئة على تقاطيع وجه أنير الطافح بوسامة أمازيغية أصيلة:

- إنهم مسالمون.. وحكماء أيضًا.

فتل قائد الحرس، بسبابته وإبهامه، شاربه الرث الملطخ بلون الصدا، وقال:

- حسنًا، يبدو أنك شخص عنيد كجحش أيها البربري القدر!

نظر إليه أنير، محافظًا على هدوئه التام:

- سأعتبر كلامك مجرد مزحة ظريفة.

ثم أضاف باسمًا:

- مزحة ظريفة من روماني ظريف ولطيف.

تراجع قائد الحرس خطوة إلى الوراء، وبدا أنه استُفِرَّ على نحو مثير، ثم ركل العربة بوقاحة صادمة؛ فتناثر الكستناء النيء والمشوي، على الأرض، وسقط المجرم، وانكفأت العربة الخشبية العتيقة، وكاد الجمر يلامس قدمي أنير لولا أنه قفز متراجعا إلى الوراء، ووقع على الجمر أحد المخطوطات التي جلبها معه من المنزل ليقرأها في وقت

شغوره، واحترق المخطوط بهدوء أمام ناظرَيْه، ولكن أنير، بخاطر عجيب، رأى حروف المخطوط تحلّق عاليًا مثل فراشات صغيرة من ضوء باهر غير موجود على الأرض، وتطير إلى مكان بعيد طالما راودته رغبة جامحة لزيارته. كان الضباب قد بدأ ينجلي شيئًا فشيئًا عن الأجواء، وبدأت الحركة عادية داخل السوق، وأحدث سقوط العربة ضجة أثار انتباه بعض المارة؛ فتوقفوا بفضول وهم يرون قائد الحرس يقهقه عاليًا، ثم يقول بصوت أمر:

غَادِر فورًا أيها البربري. لا أريد رؤيتك هنا مرة أخرى! إنك تعلم جيدًا أنك ستتعفن داخل السجن، وستدفن فيه، وستفعل خيرًا بنفسك إذا هجرت دريو إلى الأبد.

جوليا وليفيا

برح أنير مكانه، وانتشر خبر طرده بسرعة في السوق، ومن ثمّ امتد إلى البلدة بكاملها. التفت، وهو يغادر، للمرة الأخيرة إلى الباب العتيق المَبْنِي بالطوب الأحمر، وإلى عش اللقلق الذي نُسج بالقش فوق إحدى زوايا الجدار العالي. وفكر في الأوقات التي قَضَّها هنالك بائعًا لثمار الكستناء، وفكر في الفتيات الرومانيات والأمازيغيات اللواتي طالما زرنه بأناقة وزينة لا تحطُّها العين. تقاذفته أحاسيس فاضت بها نفسه المثقلة بوجع غامض؛ وجع ظل يجاهده لوقت طويل. هل آن أوان الرحيل الأبدي عن البلدة؟ خطا بين البيوت الطينية الحمراء العتيقة خطواتٍ تائهةً دون أن يعرف دواعي

تجّوله وسط البلدة، التي شهدت شقاوة طفولته ومراهقته، وبداية شبابه النَّزق، قبل أن يستقر في باب السوق، يبيع الكستناء، ويحصّل بعض النقود القليلة؛ نقود يشتري بأغلبها كتبًا ومخطوطات نادرة كان يقرأها بنهم ليلاً، أو في الأيام التي لا يشتغل فيها.

تنبه مذعورًا إلى صوت فتاة جميلة؛ صوت فاتر انتهى إلى مسمعه همسًا رخيماً شبيهاً بهبة نسمة عليلة لفحت روحه من الداخل:

- هل حقًا طردوك من السوق والبلدة؟!

نظر إلى الفتاة الرومانية نظرة عميقة، وشعر بأنه يودّعها، وبأنه لن يراها بعدُ تأتي إليه في باب السوق لشراء الكستناء محمّلةً ببعض المرح الذي يتبادلانه ببراءة، أو من دونها، كما كان يحدث أحيانًا:

- ليس بمقدور أحد أن يطردني يا جوليا، وإنما أنا راحل بمحض إرادتي.

- عُذْ سريعًا؛ ففي البلدة من سيفكر فيك، ومن سينتظرك دائمًا.

شرد ذهنه، وردّ بحيادية عجيبة:

- لست أدري يا جوليا.. لست أدري!

واصل المشي، تتابعه الفتاة بنظرات تقطر حزنًا، والدموع تكاد تظفر من عينيها. تأملته جيدًا، فإذا هو شاب أمازيغي في حوالي الثانية والعشرين من عمره، متوسط الطول، عريض المنكبين، يرتدي قميصًا أشهب من الكتان الخشن، ويُرسل شعره المجمعد بفحولة حتى يكاد يلامس كتفيه.

- هي لك يا أنير.

رفع ناظريه، وفوجئ بالأرملة الثلاثينية الغنية ليفيا تلقي له بَصْرَة نقود من نافذة الطابق الثاني، فتلقّفها بخفة، وقال:

- لا حاجة لي بالنقود أيتها السيدة الرومانية الطيبة، أشكرك.

- ستحتاج إليها في سفرك. أعرف أنك كنت تنفق ما تكسب على شراء الكتب، بل كنت تعطي الكسثناء للجياع والمسولين دون مقابل.

- أنتِ نبيلة الخلق، وسأحتفظ بوُدِّي واحترامي الشديدين لك، ولكنني سأعيد نقودك إليك.

رمى صرة النقود بمهارة، فدخلت من النافذة إلى حجرة ليفيا، وأضاف بابتسامة مُذوية طففت للحظات على وجهه، والأرملة الشابة تنظر إليه وكأنها ترغب في إرواء قلبها بأكبر كَمِيّة ممكنة من بهاء الشاب الباذخ في جمال روحه ووسامته اللافتة. قال:

- لا تنظري إلى الأسفل.. انظري إلى الأعلى، وسترين أشياء جميلة.

صَحَا الجو، وصَفَت السماء، فواصل السير وسط بيوت البلدة، ونظر إلى التلال الصخرية السوداء، وإلى أشجار الغابة، وفكّر في نجمة فينوس، وفي فتاة استثنائية بعيدة جدا يشعر بها تناديه وترجوه المجيء إليها، وتنتظره بشغف.

سمع فتاة مراهقة تخاطبه بصوت نائح تعتمر فيه كل أحاسيسها الملتهبة. فتاة في حوالي الخامسة عشرة من عمرها، تتمتع بفوران

مراهقة دافئة، واندفاع حيي يرسم حولها هالة مخلوقة. ملاك، أو
حمامة من الجنة:

- لا ترحل يا أنير.

وجد نفسه في حالة عجيبة من الحيرة. لقد اقتربت روحه من
روح زهرة الجمر، وشعر بجسده يحترق بدموع المراهقة الأمازيغية
الباهرة في جمالها!

- سأرحل يا زهرة الجمر، ولكنني سأبقي الكثير مني هنا!

دخلت زهرة الجمر إلى منزلها، وأغلقتة بهدوء، ثم توجهت إلى
حجرتها، وانخرطت في نحيب كثيب تردد صداه المجروح في أنحاء
الحجرة كلها، وتسلى بعضه من النوافذ، ليتشتت عطر مسك كرزاذ
فوق التلال والغابة والأنحاء البعيدة.

انعطف يمينا، ورأى صانع الأحذية العجوزَ ماسين يهرول نحوه
بأنفاس متقطعة، ويتوقف مرهقا في ملابس من القنب مترهلة،
ترتسم على وجهه تجاعيد عميقة تشبه بقايا طين متشقق في بركة
جافة:

- أحقا طردك الرومان من البلدة؟!

وضع أنير يده على كتف العجوز الطيب الذي كانت وجنته اليمنى
ترتجف بوتيرة سريعة. ابتسم في وجهه، وخاطبه بنبرة محملة بؤد كبير:

- المعلم ماسين، نعم، لقد طردوني. ولكن لم يكن بؤسهم ذلك
لو لم أرغب في الرحيل بمحض إرادتي.

لَفَّت الدهشة ملامح وجه المعلم ماسين العريض المنكمش،
وبدت عيناه الحادثان تبعثان بريقًا خامدًا، وقال وهو يصارع موجة
حزن رهيبية:

- لماذا تريد الرحيل يا بني؟!

- إنها مشيئة القلب أيها المعلم الطيب. لم أنس تلك الفتاة
الرومانية التي عبرت بلدتنا رفقة جند والدها ذات يوم بعيد. ولم
أنس الوصية أيضا.

فهم المعلم ماسين، وردد بصوت خافت:

- هكذا عهدتُكَ دائماً أيها الشاب المقدام.

صمت قليلا ثم أضاف:

- خُذْ هذه الأيقونة الصغيرة، إنها مدهشة! لقد ورثتها أبًا
عن جدِّ. ليس لدى أبناء يرثونها عني، وإنني لأشعر بدنوَّ أجلي،
وأشعر بدبيب الموت يتشرُّ داخلي. خذها، وعلِّقها في عنقك،
فستحميك من عثرات الطريق، وستبعد الأشرار والمهالك عنك،
وستفتح الأبواب المغلقة كلَّها أمامك وأمام شعبنا الأمازيغي.

ضحك أنير، وربت مرة أخرى على كتف المعلم العجوز
ماسين، وتأمل الأيقونة طويلاً، إنها أيقونةٌ بحجم الإبهام، عتيقةٌ
من الذهب الخالص، تمثل مجسم إلهة لا يعرفها:

- هل هي أيقونة تمثل إلهة القمر؟!

- لا يا ولدي، إنها الإلهة ثفوشت⁽¹⁾؛ إلهة الشمس، وسترى أن نورها سوف يرافقتك في أحلك لياليك، ويغمر روحك بفيض من الطمأنينة الدائمة، وسوف يمضي معك إلى حيث يوجد المكان الذي ستنتقل منه لتحرير شعبنا الأمازيغي.

ولما كان أنير لا يؤمن بالآلهة ولا ببركاتهما، فقد وضع الأيقونة في يد العجوز، وقال بلباقة متناهية:

أيها المعلم الطيب، احتفظ بها لنفسك.

زهرة الجمر وأيقونة ثفوشت

بقي العجوز يتأمل الأيقونة في يده بغرابة ممزوجة بحزن مؤلم، على حين اتجه أنير نحو منزله، ورأى زهرة الجمر تمشي بعيداً بخطوات رشيقة كحَمَلٍ صغير، يحتويها ألقُ ساحر، وتغمر وجهها المدور الشبيهة بالبدر خصلات شعرها البني المائل إلى حمرة خفيفة، فلم يستطع صَرَفَ نظره عنها. استمرت تسير بأناقة كنسمة رقيقة تهبّ على أزهار أقحوان، وشعر برهبة كبيرة، وخاف خوفاً عجبياً من أنوثتها المتفجّرة. تتبّع أثرها دون إرادته، ورآها تجلس قرب نبع صغير، فدنا منها، ووجدها شاردة الذهن تعبت في الماء بغصنٍ أخضر رفيعٍ مجردٍ من أوراقه:

- طاب يومك يا زهرة الجمر.

(1) ثفوشت: إلهة الشمس عند قدماء الأمازيغ.

نظرت إليه الفتاة بعينين عريضتين، وبرموش نثرت حوله دلالاً ساحراً، وبفم مدور مبلبل على الدوام بريق مُشّة. جلس بجنبها، ونظر إلى الصخور، وإلى العصافير التي تحلّق حول جدول الماء الصغير، وإلى الشمس المتهادية برتابةٍ في اتجاه العشيّة.

- من الأفضل أن تغادر دريو، رغم الآلام التي سأعانيها بغيابك.

صمت، وشعر بأنه يتورّط في قصة غير واضحة المعالم؛ فأخرجت زهرة الجمر الغصن الأخضر الصغير من الماء، وعلقت عينيها على كرمة تين قديمة نابثة بجنب الجدول في صدع صخرة رمادية، وتنهّدت تنهيدة عميقة، ثم واصلت حديثها كالحالمة:

- لقد كنتَ لنفسك في آخر الأمر.

أحسّ بحريق يضطرم داخله! تأمل من جديد الفتاة البديعة التي تجلس بجنبه.. كل شيء كان ينبت فيها كالبراعم الطرية، حتى مشاعرها الجميلة الفوارة.. كل شيء فيها كان قابلاً للتكسر أو الاحتراق بمجرد لمسة حانية:

- زهرة الجمر، لا أغادر البلدة بمحض إرادتي، ولكنني أغادر تلبية لنداء قديم وجد له صدى عميقاً في نفسي. لقد قاومتُ هذا النداء لوقت طويل، ولكنّ حادث اليوم يعجّل برحيلي... ثم إنني أرحل من أجل هدفٍ رسّمه القدر لي.

قالت باهتمام بالغ:

- هل أنت جائع؟!!

- نعم.. لم أكل شيئاً منذ الصباح!

- حسناً، لدى رغيف خبز محشوّ بجبن الماعز.. تفضّل.. تناوّلُه..

كنت أعرف أنك ستكون جائعاً!

- شكرًا.. أحب أن آخذ في جسدي شيئاً.. من هنا.. قبل سفري.

غرقت زهرة الجمر في ذهول عجيب.. لم تكن تعيش زمانها ومكانها، وتاهت في عوالم مجهولة! أتم أنير الأكل، ثم نظر من جديد إلى زهرة الجمر، فأحسّ برجفة تسري في أوصاله.. ظلت عدة أفكار تتصارع في خياله، وأيقن في آخر الأمر أنّ هذه الفتاة الأمازيغية الحسنة تمثل جزءاً من حياته الماضية في دريو، وبأنها لن تكون مستقبلة البعيد أبداً. ردّد في نفسه: «هناك دائماً، لكل زمان، شخص أو أشخاص في أنفسنا، وقد تتوقف أدوار هؤلاء الأشخاص عند زمن معين؛ زمن غير متوقع!».

قالت زهرة الجمر بصوت رخيم كعزف ناي كئيب في ليلة ملطخة بالفجيعة:

- سأودّعك الآن!

- رجوت لو مكثت معي وقتاً أطول.

- هذا الرجاء كان يمكن أن يكون رجائي أنا، ولكنني أدرك الآن بأن لكل مسافة نهاية، مثلما أدركت أنت ذلك قبلي بوقت طويل.

- حسناً، تأكّدي أنني كنت سأحاول أن تكوني لي لو أنني لم...

قاطعتُه بلطف:

- لا، لقد تجاوزتُ هذا الإحساس بمسافات شاسعة، وأعرف أننا فوّتنا فرصة التلاقي في لحظة خاطفة حين مرّ كل واحد منا جنب الآخر دون أن يُشعره بوجوده.. ألسنتَ أنتَ مَنْ قال هذه العبارة ذات مرة؟!

- ولكن...

قاطعته مرة أخرى، وبنبرة مجروحة كُنواح يهامة بعيدة في غروب بعيد :

- أرجوك، لقد انتهى كل شيء الآن، وإذا كان لا بد من وداع لطيف، فإنني أرغب في قبلةٍ سريعة غير عميقة؛ قبلةٍ لا تأخذني دون رجعة!

التقت شفتنا أنير وزهرة الجمر على نحو خاطف، فشعر بصعقة ترجّه بقوة. ثم غادرت زهرة الجمر وكأنها تفرّ من المكان، وتتبعها أنير بعينين مليّتين بالحيرة والإعجاب؛ فشهد شعرها البني المائل إلى حمرة خفيفة تتلاعب به نسّات عشية رطبة، ورأى ردفئها يرتجان بأنوثة ناشئة مذهلة، ثم غابت عن ناظريه. أحسّ بدموع حارة تنساب بحرقه في أعماقه البعيدة، ووخزه إحساس بذنب تجاه فتاة كانت استثنائية في كل شيء.. تأمل الشمس وهي تتهادى نحو الغروب، وانتابه شعور بأن يومه الأخير في البلدة يمر سريعاً على غير العادة، وبدت طيورٌ بيضاءً تطير على علوٍ منخفض محاذية الدور المشيّد بقوالب الطين المخلوط بالتبن، وانتهى إلى سماعه خريّر المياه المنسابة بين أحجار الجدول الصغير، وشعر بسعادة

مزوجة بحزن غامض، واستحوذت عليه رهبة غريبة، فتساءل في حيرة:

- هل هي رهبة السفر، أم رهبة لقاء الفتاة التي أتمثلها دائماً في نجمة فينوس؟

قام من مكانه، وجلس في مكان زهرة الجمر؛ فاهتز شيءٌ ما بداخله، وشعر كأن المكان مسكون بروح الفتاة العبقرة برحيق فردوسي.. نظر إلى البلدة من الأعلى؛ فشاهدها تغرق في لون الشفق البرتقالي المتوهج، وتكسر الصمت بشدو عصافير صغيرة بدأت تبحث لنفسها عن مكان آمن للمبيت، ولمح قرص الشمس الأحمر يحاذي التلال، وفكر في ثفوشة أيقونة العجوز الحكيم ماسين، فرأى الشمس أجمل من أي وقت مضى، ورأى ضوءها القليل مبهجاً وممتعاً للنظر.

أخذ الغصن الأخضر الصغير الذي كانت تبحث به زهرة الجمر في مياه الجدول، وقام من مكانه، وأحسّ بوخز يحرقه كحرارة مجمر ملتهب.. اجتاز التلال الصخرية الوعرة باتجاه منزله الموجود على أطراف البلدة؛ فرأى السيد أفولاي يتوجه نحوه بخطوات عرجاء، مصحوباً بمُساعدته أسافو، والتقيا فوق تلّ صغير:

- أنير، هذا الكتاب كنت قد استعرتَه منك، خذه؛ فلقد علمتُ أنك لن تعود إلى البلدة أبداً!

ضحك أنير برقة، ونظر إلى تاجر الملح السيد أفولاي؛ الرجل الكهل الأعرج الذي يقرأ الكتب، وينطق بكلام حكيم، ويجادل في

الفلسفة وعلوم الطبيعة والحياة.. وشعر بالامتنان والاعتزاز نحوه؛
لأنه تعلم الكثير منه:

- السيد أفولاي، هذا الكتاب لك.. أنا راحل، ولن آخذ معي
أيّ كتاب في رحلتي!

تهلل وجه السيد أفولاي بفرح غامر، وقال:

- الشكر لك يا أنير.. الشكر لك.. فأنا لم أتم قراءة هذا
الكتاب بَعْد.. إنه قيّم جدًّا.

- لديّ في المنزل مكتبة عامرة بالكتب، وسأوصي لك ببعضها.

انصرف أنير دون أن يلتفت خلفه، وودّع دريو نهائيًا، وستكون
هذه الليلة ليلته الأخيرة فيها؛ فغمره إحساس عَزْمٍ ممزوج
بالإحباط!

أذهب أيها الخاتم الصغير..

إن قيمتك لن تثبت شيئاً

إلا حب واهبك.

أفولاي والوصية

طرق الشاب أسافو الباب طرقات قوية متوالية، فجاءه صوت من الداخل.. صوت هادئ ومفعم بنبرة رصينة:

- انتظر.. انتظر، سأفتح الباب حالاً.

وسمع أسافو خطوات ترتطم بالأرض بإيقاع يعرفه جيداً، وأطل أفولاي بوجه مستطلع، وتبين قامة الشاب الفارعة، ولحيته الخفيفة، وعينيه الواسعتين؛ فرفع رأسه إليه، وخاطبه بنبرة صوت خافت متسائلاً:

- ماذا حدث يا أسافو؟

- المعلم ماسين، صانع الأحذية، في حالة سيئة.. يبدو أنه يُحتَضَر، ويرجو قدومك عليه لأمر في غاية الأهمية.

اضطرب السيد أفولاي، ووجد نفسه يدخل ويخرج بقلق من الباب، وهو في لباس خفيف، وجسمه يرتجف من شدة الارتباك، قبل أن يهرول باتجاه حجرة نومه داخل المنزل، مُلتَقَطًا لِبَاسًا وجده على السرير، فانطلق مسرعًا بمشيته العرجاء رُفْقَةً مساعده الدائم أسافو. دخلا أزقة ضيقة، وشوارع خالية ومظلمة، قبل أن يصلا باب كوخ بئس، تهرب من شقوق بابه المهترئ خيوط ضوء ذابل. دفع أسافو الباب، وسمع الكهل أفولاي، وهو يدخل الكوخ، لغط هام، ورأى طيف كرمة عنب تعانق أعلى سور الكوخ، وشم رائحة جلد ممزوجة برائحة غريبة لم يشمها من قبل. دخلا على العجوز ماسين، فوجداه يرقد على فراش عتيق، وبجنبه مساعده تيلي. اقترب منه السيد أفولاي، فوضع يده على جبين صديقه الحميم:

- ستعود إلى نشاطك عما قريب أيها الصديق الكبير.

ثم التفت إلى تيلي:

- هل أحضرت الطبيب؟

- نعم يا سيد أفولاي، ولكن.. ولكن...

تواصل اضطراب أفولاي.. وقال شبه متتهر تيلي:

- ولكن ماذا أيها الفتى؟

فردَّ تيلي بصوت منكسر وخافت:

- الطبيب قال إن سيدي ماسين يموت، ولا أمل في شفائه!

- لا.. لا يمكن لِماسين أن يموت بهذه السرعة.. لقد كان معلّمنا

دائماً. ستكتب له إلهة الشمسِ عمراً مديداً.. المعلمون لا يموتون أبداً.

أشار العجوز المُنهك ماسين إلى صديقه أفولاي كي يدنو منه أكثر، فوضع أفولاي أذنه قريباً من فم ماسين، وشم فيه رائحة غريبة؛ رائحةً مرعبة، وتصور أشياء سيئة، ولكن أفولاي أبعده بفرع من ذهنه كل تلك الهواجس... وسمع صديقه ماسين يهمس بصوت متقطع:

- اسمع يا أفولاي.. أيها الصديق الطيب.. سأموت لا محالة.. دَعْنِي أسلم نفسي للموت برغبتِي الكاملة.. لن أقاومه.. سأسافر معه في رحلة أجهل مسالكها، ولكنني موقنٌ بأنني سأصل إلى مكان ما، وإلى عالم ما.. لا يهمني كيف سيكون ذلك العالم.

صمت العجوز ماسين قليلاً مستجمِعاً قواه، وأخذ السيد أفولاي كأس ماء وجدده فوق طاولة صغيرة بجانب الفراش، وجعل الكأس في متناول شفتي ماسين، لكن ماسين ارتشف رشفة واحدة، فقط، من أجل أن يبذل فمه. أخرج من تحت الفراش أيقونة ثفوش، وسلمها إلى السيد أفولاي، وقال بعدما وجد في نفسه بعض القدرة على الكلام:

- سَلِّمْ هذه الأيقونة إلى أنير... قد يعود إلى دريو يوماً ما. كنت عرضتها عليه قبل رحيله عن البلدة، لكنه رفض! حين أموت لن يستطيع الرفض.. سيحترم رغبة رجل ميت.. سَلِّمْه الأيقونة.. إنها كنز لا يقدر بثمن... ستواجهه في حياته أحداث متقلبة، وسوف

يحتاج إلى الأيقونة.. أيقونة نفوشت هي التي ستثير سماء بلاد
الأمازيغ.. وسوف يحتاج إليك يا أفولاي، وسوف يحتاج إلى الملح.
تبعثر ضوء القنديل الزيتي، ورسم ظلالاً متراقصة على وجه العجوز
ماسين، وغابت ملامحه لحظات قبل أن تهدأ الريح الخفيفة المتسربة من
الكوة. خيّم صمت ثقيل على الجميع، ولم يكن يُسمع في الحجرة القديمة
غير تنفس العجوز ماسين الممزوج بحشجة مخنوقة، وغير هسيس ريح
خفيف. تجمّد أسافو وتيلي، وقد خيّم عليهما حزن عميق، بينما بدا
الكهل أفولاي مضطرباً، لا يعرف ماذا يفعل، وكيف ينقذ صديقه من
هذه المحنة، فخطب تيلي بصوت خافت:

- هل بمقدور الطبيب الروماني رومو أن يفعل شيئاً؟ إنه أمهر
أطباء المنطقة.

فردّ تيلي بصوت نائح:

- هو من استقدمناه لسيدي ماسين، ولكنه لم يرَ أملاً في العلاج!
همهم السيد أفولاي بكلام غير مفهوم، ثم شدّ على يد صديقه،
ونظر إليه بعينين مجروحتين، فخطبه ماسين بصوت منهك:

- خذ الأيقونة، وسلّمها إلى أنير متى التقيت به.. إنها أمانة في
عنقك. وأنت معفي من هذه الأمانة في حال عدم التقائك به. وإذا
حان موعد رحيلك عن الدنيا، سلّم الأيقونة إلى مساعدك أسافو..
إنه شاب نابغ ومخلص، وسيكون له شأن إذا واطب على القراءة
والمجادلة وإعمال العقل في أمور الدنيا كلها.

قال أسافو:

- شكرًا لك أيها المعلم! سأكون كما تريد أن أكون.

وأضاف العجوز ماسين:

- أما مساعدي ورفيق دربي في الصنعة، وفي علوم الطبيعة والفلسفة والحياة، فسيرث دُكَّاني، وكتبي ومخطوطاتي كلها، ومالي القليل المتبقى... ضغط العجوز ماسين على يد أفولاي، وقال له كلماته الأخيرة:

- خذ الأيقونة، ودَعْنِي أموت بهدوء.. لا أحب موتًا بليدًا يباغتني بين أحبَّتي وأصدقائي.. يجب أن نواجه بعضنا بعضًا.. أنا والموت! أعلم أنه سيتنصر منذ بداية المواجهة، ولكن الغلبة ستكون لي آخر الأمر... وداعا أيها الصديق أفولاي.. وداعًا أيها المخلص أسافو!

أدار العجوز ماسين وجهه، وحين أراد السيد أفولاي أن يقول شيئًا، أشار له العجوز ماسين بالخروج، فقال أفولاي وهو يغادر:

- كن بخير أيها الصديق الكبير.. كن بخير، هنا وهناك، أيها المعلم.

خرج السيد أفولاي ومساعدته أسافو، وقابلتهما من الفور كتلة ظلام كثيفة.. اضطرب الطقس فجأة، وكسَّت السماء سحب سوداء. سارا في الأزقة والشوارع صامتين، وكان وقع خُطوات الكهل أفولاي الرتيب على الأرض يعكس حالة العرج التي لازمته منذ سقوطه في زمن بعيد من فوق حصان.

- سأخرج بقافلة ملح، يا أسافو، إلى مدن بعيدة.. بعيدة جداً،
ولك الاختيار بين مرافقتي وعدمها، وربما من الأفضل ألا تفعل.
- تخرج بقافلة ملح؟! لم يسبق لك أن فعلت هذا يا سيدي..
كنت دائماً تتاجر بالملح هنا في بلدة دريو ونواحيها.

صمت أفولاي شاردًا قبل أن يردّ على أسافو:

- هذه المرة سأخرج للبحث عن أنير، وأصحب معي قافلة من
بغالٍ مُحمَّلة بالملح. إنها مغامرة أكثر منها مجرد تجارة ملح!
- سوف أرافقك سيدي أفولاي.. لا يمكنني أن أتخلى عنك،
وأحب أيضًا رؤية أنير من جديد.

- ابتداءً من الغد علينا أن نقنتي بضاعة من ملح جيّد، وسأوكل
إليك مهمة شراء عشرة بغال قوية.

باع السيد أفولاي كل أملاكه في بلدة دريو، وباع ضيعة شاسعة
ورثها عن عمِّ له، وخرجت قافلة أفولاي من بلدة دريو، وكان لزامًا
عليه استئجار مساعد للسيطرة على القافلة الكبيرة، وعلى أكياس الملح
الثقيلة، وللحراسة أيضًا. ولم يجد السيد أفولاي إلا الشاب المتسكع
ساريل ليقوم بهذه المهمة، رغم تحذيرات أسافو المتكررة.

تبين لأفولاي أن تحديد وجهة السفر أمر صعب، بل كان ذلك
مخاطرة بالغة.. إن السيد أفولاي يخرج من أجل البحث عن أنير،
وتسليمه أيقونة ثفوشت.. ويساوره شك بأن أنير سافر إلى مدينة
أرتو، ولكنه غير متأكد تمامًا من هذا الظن. نظر السيد أفولاي

إلى الشرق والغرب، وإلى الشمال والجنوب، فلفَّته حيرة، ولم يستطع تحديد وجهته إطلاقاً، لكنه - بإلهام عجيب - أخرج أيقونة ثفوشت من كيسه الجلدي الخاص، فلاحظَ رأس الأيقونة يتجه نحو الشرق.. لم يتردد، وصاح في معاونيه:

- لتتجه إلى الشرق.. أنير سيكون موجوداً في مكان ما هناك..
وعلى الأغلب في مدينة أرتو.

تساءل ساريل بفضول:

- لماذا تريد اللحاق بأنير يا سيد أفولاي؟!

امتطى أفولاي بغله، ثم قال بعدما استقرَّ فوق البغل:

- شيءٌ جميلٌ أن نلتقي بأنير!. ألا تشعر بحنينٍ إليه يا ساريل؟

صمت ساريل قليلاً، ثم ضحك، وقال بشبه سخرية:

- لم أشتر منه يوماً كستناء، ولم أتلقَّ منه أيضاً كستناءً دونَ مقابل!
لم يكن يعني حياتي شيئاً.

رد السيد أفولاي بوقار:

- هذا صحيح يا ساريل.. هذا صحيح.. لا يمكن لأنير أن يعني لك شيئاً!

بعد مسير قليل، لاحت عن بُعد فتاة تبعث وهجاً عجيباً. وسرَّعان ما تبين للسيد أفولاي أنها المراهقة زهرة الجمر، وشعر فجأة بحرارة تكوي مشاعره، وتحرقه على نحو غريب، وبداله وكأن أيقونة ثفوشت

تنتفض في كيسه الخاص! استحضر حالة الارتباك التي كانت تُحدثها الفتاة الأمازيغية الحسنة في تجمُّع الحكماء، وقارئ المخطوطات وكتب الفلسفة، حول عربة أنير في بوابة سوق دريو حين كانت تمر من أمامهم بشموخ إلهة باهرة، وكيف كانت نظرات أنير تندفع نحوها بلهفة تشتعل كوميض برق خاطف في عينيه. توقفت قافلة بغال الملح تلقائياً، وحاول ساريل قول شيء للصبية الفاتنة حين عبرت بمحاذاته، ولكنه وجد لسانه مكبلاً، وتجمّد جسمه القصير النحيل فوق البغل كتيس مريض. واصلت زهرة الجمر سيرها المتمهل في اتجاه السيد أفولاي، وحين وصلت إليه، وقفت بثبات مدهش، ثم خاطبته بصوت وكأنه ينبعث من أقصى حلم مستحيل لم يستطع السيد أفولاي أن يتذكر بأنه تخيل شيئاً مثله في حياته قطّ:

- السيد أفولاي، أنت أيضاً ترحل، وتأخذ معك أسافو، وأخاف أن يرحل عنا، وإلى الأبد، صانع الأحذية المعلم الطيب ماسين، وكان أنير قد انتزع نفسه منا سابقاً.. لِمَنْ ستتركون بلدة دريو يا تُرى؟! لقد أصبحنا غرباء في بلدتنا!

- أيتها الفتاة الجميلة، أنا أسافر في محاولةٍ لاسترجاع أنير.. أعلم أن بلدة دريو دون أنير، ودون أمثاله من الخيرين، لا يمكنها أن تستمر بطابع أمازيغي طويلاً.. ومع ذلك يحدوني أمل كبير فيكم أتم شباب البلدة.. أعرف أنكم ستفعلون شيئاً لبلدكم في المستقبل القريب.. ثم إنني أسافر من أجل إلهة الشمس التي غابت أشعتها الدافئة طويلاً عن بلاد الأمازيغ!

فتحت زهرة الجمر قبضة يدها، وتلألأ منها إشعاع باهر عانق أشعة الشمس، وتماهى معها، ليلوّن الأرض والسماء بمسحة شفافة من نور عجيب خطف بصر السيد أفولاي وعقله. قالت وهي تغمر بنظراتها الحانية السيد أفولاي، الذي شعر بأنه سجين حالة انبهار لم يعيش مثلها قط:

- هذا خاتم ذهبيّ مرصّع بحجر ماس نادر.. إذا عثرتَ على أنير فسلّمه إليه.. لن تحتاج إلى أن تخبره بمنْ بعث إليه الخاتم.. سيعرف من الفور المرسل.

- لست متأكدًا ممّا إذا كنت أستطيع العثور على أنير، ولكنني سأبذل قصارى جهدي.

- شكرًا لك أيها السيد أفولاي.. لا يساورني شكّ في أنك ستلتقيه في الأخير. أرجو فقط أن تلتقي به وهو بخير.. أتمنى لك ولأسافو سفرًا مريحًا.. احذرا ثعابين الطريق؛ فقد ينبري لكم ثعبان في أي لحظة!

- لا تقلقي أيتها الفتاة الطيبة!. سافرت كثيرًا في حياتي، ولن يكون سفري هذا هو الأخير طبعًا.. فكل سفر نهائي لن يكون نهائيًا بالضرورة!

انصرفت زهرة الجمر بصمت، عائدةً إلى دريو، تمشي بخيلاء فتاة وكأنها إلهة تلفها سَكينة عجيبة.. فتاة تتمتع بفوران مراهقة دافئة، واندفاع حييّ يرسم حولها هالة.. ملاك أو حمامة من الجنة!

ولكن محبوبة قلبي ليست هنا -ثمة خطأ صغير-

إن مشعلة اللوعة بعيدة جداً،

واللهب هنا!

الرحيل اللاذع

تسرّبت عبر شقوق نافذة البيت الطيني العتيق خيوط نور أحمر
برتقالي متوهّج، حملت معها شذو عصفير بدأت تشقشق باكراً
جداً حول دالية العنب المعلقة على سور الحديقة. استيقظ أنير من
النوم متصبّباً بعرقٍ أو آخر فصل صيف فاتر، فوجد في ذهنه بقايا
لحلم عبث بأريج فتاة باهرة في سحر جاذبيتها، والفتنة التي تحتوي
تقاطيع وجهها البديع، بدت تماماً كما لو أنها الفتاة الرومانية
الشقراء التي ظلت على الدوام تسكن روحه العميقة كندى رطب،
يروى جفاف حياته الخالية إلا من دفء ثمر الكستناء المشوي،
وروائح الكتب والمخطوطات.

أطلّ من نافذة المنزل العتيق، فرأى أنوار الفجر الأولى تتفجر
بلون أزرق داكن يرسم هالة حريرية حول بلدة دريو النائمة،

وحول الغابة البعيدة. ونفذت إلى أنفه رائحة التراب المندي الرطب، وحمل النسيم الصباحي البارد رائحة الأرز الكثيفة، التي ملأت روحه بفيض غامر من سعادة لافحة. نظر إلى الكيس الملقى على الأرض؛ كيس صغير محشو بغطاء وماء وأكل قليل. سيكون السفر شاقاً. هناك نجمة بعيدة يختلط نورها بنور الفجر الشفاف؛ نجمة يتمثلها على هيئة فتاة رومانية تحمل كل عناصر الجمال، سيخرج ليبحث عنها في كل مكان. «النجوم ما هي إلا فتيات جميلات تنعكس صورهن على السماء، وأنا أعشق نجمة فينوس، وفينوس الفتاة ستكون في مدينة أرتو، وسوف أجدها في الأخير».. هكذا ردّ في نفسه، وهو يفكر في هجره كتبه المحببة إلى نفسه، وحرفته التي لازمته سنوات طويلة؛ حرفته التي جعلت منه أشهر بائع لثمار الكستناء المشوي والنيئ في بلدة دريو؛ كستناء يجمعه من أشجار الغابة وقت القطاف، ويحتفظ به لبيعه مشوياً غالباً، ونيئاً أحياناً لمن يحب أن يشويه بنفسه في المنزل؛ كستناء يجلب له القليل من المال، والكثير من المتعة؛ فظالما استشعر شذائحه الكستناء المشوي تدخل روحه، وتزرع فيه حيوية وعنفوان شباب متحفز. وحافظ على زبائن خاصين، ولم يكن هؤلاء الزبائن يأتون لتناول الكستناء فقط، ولكن أيضاً للاستمتاع بالحديث، والتجادل معه في شؤون الدنيا الكبرى، وعلى رأس هؤلاء الحكماء وقارئو الكتب والمخطوطات الذين كانوا يجدون في كلام أنير منطقاً عجيماً؛ منطقاً يتجاوب مع صيرورة الحياة وجمالياتها، حتى وإن اختلفوا معه في بعض الجزئيات، في كثير أو قليل من الأحيان. ولم تكن هذه الأشياء

وحدها ما يحقق الانتشاء لأنير، وهو يزاول مهنة بيع الكستناء المشوي في باب سوق دريو، وسط الأبخرة والشذا الطيب؛ فقد كان يتنبّه دائماً إلى شابات وفتيات رومانيات وأمازيغيات في زهرة شباهن، يأتين إليه لشراء بعض من الكستناء، محمّلاتٍ بدلال وغُنج لم يكن يخفى عليه، وكنّ يبادلنّه الكلام اللطيف متوقّعات في كل مرة أن يبادرهن بإبداء إعجابه، ولكنه ظل مشدوداً دائماً إلى نجمة فينوس، وكان يتمثل هذه النجمة في الفتاة الرومانية الحسنة التي عبرت، كما الحلم، سوق دريو ذات يوم بعيد، وتركت له دعوة لزيارة مدينة أرتو.

ألم الغواية

يذكر الأنسة جوليا؛ بنت القاضي الروماني لبلدة دريو السيد ناشين.. تلك الأنسة الرقيقة التي قليلاً ما فوتت فرصة زيارة أنير في السوق؛ لاقتناء ثمار كستناء لم تكن تحتاج إليه، وكانت ترميها- في الغالب- بمجرد دخولها المنزل. كان وحده ذلك اليوم، مطأطئاً رأسه، ناظرًا إلى الثمار، وهي تُسوى في قدرٍ، يحركها أحياناً، ويضيف الأعواد إلى المجرم أحياناً أخرى، وحين رفع بصره رآها.. جوليا؛ الفتاة الناضجة، مكتملة الأنوثة.. الفتاة التي طلب يدها جل أبناء التجار الكبار وأصحاب الجاه، والذين يتحكمون في مصير بلدة دريو، ولكنها رفضتهم جميعاً. ولم يكن خافياً على أحد أنها متعلقة بأنير. وصدر أمر في الخفاء للتخلص من هذا الفتى المزعج؛ هذا

الفتى الذي يشعل الفتنة وسط بنات علية القوم في دريو، ويجادل في الحكمة والسياسة، ويروج أفكارًا خطيرة، تحرّض على مناهضة الرومان، مع ثلة من المعتهين والمخبولين وحثالة الناس من البربر! رفع أنير عينيه، فرأى جوليا كما لم يرها من قبل.. بدت شاحبة ومحبطة. نظرت إليه طويلاً قبل أن تقول:

- سأقبل الزواج من شاب عرضه علي والدي.. سيكون شاباً رائعاً. لا أعرفه، ولكن والدي قال إنه شاب رائع.

- سيكون كذلك يا جوليا.. لا يليق بك إلا شاب استثنائي؛ شاب يقدر جمالك ورقتك، التي تفيض من تقاطيع وجهك المشرق.

ردّت وهي تبتلع حروفاً استعصت على الخروج من فمها:

- ولكنني أحب.. أحب.. شخصاً آخر.. إنه بربري.

لم يفهم أنير الموقف. ظل صامتاً للحظة.. وأخيراً قال:

- يجب أن تعلنني حبك لهذا الشخص.. سيصبح أحد أسعد

الناس.. أم إن والدك حاكم البلدة لن يرحب بهذا الحب؟

ترددت جوليا، وبدا أنها لم تجد كيف تعبر عما يجيش في دواخلها.

أخيراً قالت وكأنها تلفظ مشاعرها المجروحة دفعة واحدة:

- أحبك أنت يا أنير!

كان يحرك ثمر الكستناء في القدر المسودّ بفعل الدخان، لكن يده

ارتجّت، وارتجّ القدر، وكاد أن يسقط لولا أنه تمالك نفسه بصعوبة، وتحكم في حركة يده. أظلمت الدنيا في عينيه. شعر بحريق يشوي أعماقه.. كيف يشرح لهذه الحسناء البريئة أنه لفتاة رومانية أخرى، وأنه نذر نفسه لحلم يهاجمه بشراسة ليل نهار؛ حلم يرى فيه تلك الفتاة تتمثل له في هيئة الإلهة فينوس، ويسمعها تناديه وترجوه المجيء إليها؟

- ولكنني، يا جوليا، أحب فتاة أخرى؛ فتاة غير موجودة في هذه البلدة؛ فتاة رأيتها مذ كانت صغيرة فقط.

نظرت إليه جوليا نظرة مجروحة. تلبد وجهها أكثر فأكثر، وارتعشت أوصالها، وكادت تفقد الوعي، وسالت من عينيها دموع تدرجت على خديها المشمشيين كحببات رمان. وقفت لحظةً، والدموع تواصل انسيابها البطيء من مآقيها، ثم قفلت تاركة موجة هادرة من حيرة موجعة اكتسحت حواس أنير، وزرعت فيها حريقاً مستعراً لم ينطفئ منه إلا نزرٌ يسير مع انطفاء جمر المجرم، والهدوء الذي خيم على السوق بعد انصراف المتسوقين والباعة.

أغلق أنير نافذة البيت. تأوّه لذكرى جوليا الفتاة البريئة، ثم أسرع فحمل الكيس الذي لم يكن ثقيلاً، وخرج من المنزل بهدوء. غادر البلدة مع مطلع خيوط الفجر الأولى متوجّهاً ناحية الشرق، وسرّعان ما غيبت الغابة في عتمتها وأشجارها الكثيفة؛ أشجار الأرز، التي تبعث أريجاً زكياً ممزوجاً برائحة صباحية تشبه رائحة فاكهة بريّة متوحشة. صدم وجهه غصن صغير، ثم علق بعنقه

نسيج عنكبوت مقرف. مشى بخطوات سريعة، والكيس على كتفه، يطأ على أوراق شجر حمراء ذهبية مشربة بندى كثيف، أصبح شبه ماء متعفن في الأخير، مع أن السماء لم تمطر منذ زمن طويل!

بدأت الغابة تستيقظ حوله شيئاً فشيئاً، وامتلاً فضاءها، بوتيرة متصاعدة، بتغريد أعداد كبيرة من العصافير الصغيرة.. شدو عصافير شكل سيمفونية طبيعية خارقة في انسيابية لامست إحساسه الداخلي بوداعة، لتمزج نبضات قلبه بشدو العصافير ورفرفة الطيور المحلقة قريباً من رأسه؛ طيور اليمام والحجل والسمان. بدا مغموراً بطاقة استثنائية، وسرعان ما شعر بضيق المجال المغلق داخل الغابة النابتة فوق التلال.. لا يكاد يصعد تلاً، وسط الأشجار المتشابكة، حتى يجد نفسه مجبراً على النزول والطلوع من جديد، في دوامة لا تكاد تنتهي.

ظل يسير وسط الغابة، فداهمته موجة من الذكريات الحارقة، وشده حنين عجيب إلى بلدة دريو، وإلى الناس فيها، وتذكر زهرة الجمر، وشعر كما لو أنها شوكة مغروسة في قلبه؛ شوكة مؤلمة وعذبة في الوقت نفسه.. زهرة الجمر لن يلغيها من حياته وذاكرته.. إنها فتاة تكوي النسيان فيه. تجرحه، تمزقه، ولكنها تزرع داخله شعوراً متواصلاً بالحياة وعنفوانها الدائم. وطالما كان يقف أمام العربة الخشبية العتيقة في باب سوق دريو، والمجمر يطلق شذا فواحاً، وبخاراً مشبعاً برائحة الكستناء الموضوع داخل قدر على مجمر، وهو منهمك في تحريك الكستناء إلى أن ينضج نضجاً كاملاً،

وبالجودة المعهودة. وكان يجلس بجواره، في الغالب، المعلم ماسين صانع الأحذية، أو السيد أفولاي تاجر الملح، أو أشخاص مختلفون؛ يأتون إليه ليتناولوا الكستناء اللذيذ، وأيضًا ليتجادلوا معه في الفكر والفلسفة، وعلوم الطبيعة والحياة. لكن أنير ظل يستغرب زيارة زهرة الجمر؛ المراهقة الأمازيغية التي كانت ترهق حواسه، وهو يشاهدها تعبر أمامه دون أن تعيره أدنى اهتمام، غير أنها سرعان ما كانت تتوقف غير بعيد عنه، وتتأمله بنظر حادّ موجه أشبه بحريق يستعر داخله، ثم ما تلبث أن تغادر بسرعة... وحينذاك كان أنير يتيه في موجة عجيبة من حيرة غير مفهومة، وتتلبسه حالة خوف من المراهقة الرهيبة في فورانها الداخلي، الذي يشعر به وكأنه غليان ماء في مرجل.

ذهب إليها مرة، وخطبها بعدما استجمع كل قواه وشجاعته:

!!؟...-

لم يستطع النطق بكلمة، لكن الفتاة المراهقة الدافئة شجعتَه بصوت رخيم، انساب في أعماقه البعيدة كخير ماء في جدول صغير:

- قل، لا تخف يا أنير.

- لكنني أخاف.. أخاف منك؛ لذلك لا أستطيع أن أقول أي

شيء!..

- ماذا تقصد؟

- أنتِ مخيفة، وتشعرينني بضعف غير معتاد في شخصيتي!..
أريد الهرب منك.

ابتسمت زهرة الجمر، وافترّ فمها البديع عن أسنان بيضاء
ناصعة:

- هل أفهم أنك تحبني؟

- لا، لقد تجاوزت هذا الإحساس بمسافة شاسعة، وأعرف أن
فرصة التلاقي فوتناها معًا، في لحظة خاطفة، حين مر كل واحد منا
جنب الآخر من غير أن يُشعره بوجوده!

ابتسمت زهرة الجمر من جديد، لكن ابتسامتها الخادعة كانت
تحمل مرارة كئيبة للغاية، وأحسّت وكأنها تمضغ لب الخنظل، وأنها
تضع يدها على جمر ملتهب:

- إنه كلام قاس لم أتوقعه!

نظر أنير إلى الحركة الدؤوبة في السوق، وشاهد كل شيء يتحرك
أمامه، ولكنه لم يشاهد أي شيء محدد! أنزل عينيه الحزبتين إلى
الأرض، وقال بصوت خاو:

- إنها الحقيقة التي لم أتوقعها أنا أيضًا، ثم إن...

لم يكمل كلامه؛ فقد ابتعدت زهرة الجمر بخطوات رشيقة وحاملة،
واختفت في النهاية بين المتسوقين. تابعها بعيون ذابلة، وشعر بإحباط
وفجعية رجّت قلبه المزهّف المعذب.. وحينذاك أدرك بحرقه، يصعب
هضمها، أن زهرة الجمر قد انفلتت من بين يديه إلى الأبد!

سما من دم

مشى أنير طويلاً وسط الغابة، حتى بدا وكأنه لن يستطيع اجتيازها إلى الجهة الأخرى أبداً، وبدأت شمس منتصف النهار الخريفية تتخلل الأشجار، والعرق الممزوج برائحة أوراق الأرز الذابلة يغسل وجهه وعنقه. انسكب عليه، فجأة، ضوء الشمس الفاتر بعد سير طويل وسط ظلال أشجار كثيفة، واستطاع أن يرى ملابسه، وقد تلطّخت ببقع قطرات ماء كانت تسقط عليه من حين لآخر، وذرق عصافير التصق على ثيابه، وتوزعت على صدره وساقيه فراشات صغيرة رمادية ميتة ومدفونة في خيوط عنكب. أصيب بفزع لبشاعة منظره، ولكنه أيقن أنه حتماً سيجد نهراً أو نبع ماء قريباً ليغتسل فيه، وينظف ملابسه من كل الشوائب العالقة بها.

بدأ التعب يأخذ منه مأخذه. أخرج عُبوّة الماء المغطاة بقماش من قنب مبلل، ثم عبّ جرعات متتابعة. عليه أن يحافظ على أكبر قدر من الماء، ولأطول زمن، لن يكون بمقدوره أن يجد ماءً وسط هذه الغابة. تصور لحظة لقائه الفتاة الرومانية، دهشة وجوده أمامها، انبهاره بجمالها، تأمله العميق والطويل في عينيها المرسومتين بألوان من عسل ذهبي فاتر، وشعرها الأشقر الهادر المنسكب كيامة تطير بهدوء في عشية هادئة، ووجهها الأبيض المُشرب بحمرة مثل حبة تفاح في أتمّ نضجها، وفمها المنفرج على ابتسامة تشبه الفجر في بزوغه على امتداد صحراء عذراء.. هذه هي صورتها التي ظلت

مرتسمة في ذهنه منذ سنوات مراهقته، تُرى هل أبقتة بدورها في ذاكرتها كل هذه السنوات التي مرت؟!

واصل المشي بخطوات متثاقلة. هذه التعب، وشعر- في الأخير- وكأنه يسير مغمض العينين، يُجرّ رجليه جرّاً. نظر نحو السماء، فلم يرَ غير أشجار عالية متشابكة، وركام من ظلال عتيقة. شعر بجوع ينهش معدته. أصرّ على ألا يتناول شيئاً قبل مغادرة الغابة نحو الجهة الأخرى.. هناك سيتمكن من رؤية المجال، وسيكتشف المحيط، لعله يصادف نهراً أو نبعاً يغتسل فيه، وينظف بهائه ملابسه الملوثة.

فجأة لمح ضياءً منبججاً في أبعاد نقطة من الغابة، فأدرك أنه على وشك مغادرة هذا الحيز الغابوي المغلق. وبعد مسير قليل، شاهد من داخل الغابة مرّجاً أخضر على امتداد البصر. جدّ في السير بحيوية وبعنفوان أمدها بطاقة جديدة. وفي اللحظة التي همّ فيها بالتوقف على حافة مخرج الغابة، في محاولةٍ غير واعية للتهيؤ لمرحلة أخرى من سفره، سمع حركة من حوله. وقبل أن يستدير ليستطلع الأمر، ارتطم شيء ثقيل بمؤخرة رأسه، وشعر بألم حاد ارتج له دماغه، ورأى نجومًا تسطع أمامه؛ نجومًا تسبح في سماءٍ من دم. سقط منكفئاً على وجهه فوق الأرض. كانت الشمس في تلك الأثناء تتجه، بهدوءٍ، نحو الغروب، والطيور تعاود ضجيجها وشقشقتها الدائبة؛ بحثًا عن مكان آمن للنوم. واندلع هديل يمام كئيب، تكسّر رتيباً مع السحاب الأحمر الهارب مع الشمس.

الفتاة المدعورة

استيقظ في ضحى على دفء غير معتاد. شعر بحرارة شمس تلامس ظهره، كما تلامس يد فتاة ناعمة جسداً منهكاً ومثقلاً بالشهوة. استطاع أخيراً أن يفتح عينيه بصعوبة. لم يستطع رؤية الكثير، لكنه رأى ضوء النهار. حاول الجلوس، وبذل جهداً مضيئاً ليتمكن - في الأخير - من حمل جسمه من فوق الأرض، وأحس بألم يلدغ مؤخرة رأسه، فوضع يده على مكان الألم.. تجمد من الهول حين لمس الجرح الغائر، ورأى الدم المتجلط الذي لصق بكفه...
تساءل بروع:

- ماذا حدث؟!

لا يستطيع تذكر أي شيء.. فقد القدرة على استرجاع ماضيه، وأضحت ذاكرته مفرغة تماماً. سقط مغشياً عليه فجأة. راعه أنه لا ينتمي إلى أي شيء، وأنه غريب عن نفسه! ورأى، في غمرة الدوخة التي طوّحت به، وكأنه في وهم ذاكرة مفقودة.. الأرملة الفاتنة ليفيا حين وقفت أمامه، ذات يوم بعيد، بدلال يسيل من كل تقاطيع جسدها المثير، واشترت منه بعضاً من الكستناء الطازج، ثم قالت له بصوت ناعس وقع في نفسه وقع رذاذ مطر ربيعي:

- أحتاج إليك.. حين تنهي عمك زرنى في المنزل.. سأنتظرك.

انصرفت بمشية راقصة، وأردافها المكتنزة تهتز اهتزازاً يشدّ أنظار الرجال الشبقة، إلى أن ابتعدت واختفى طيفها وسط المتسوقين والباعة.

وبعدما أنهى أنير عمله في المساء، أودع عربته الخشبية العتيقة، وما تبقى من كستناء، في مخزن العجوز كارينو، وتوجه - بخطوات حثيثة- إلى منزل الأرملة ليفيا. طغى الهدوء على ساحة السوق، وتناثرت بقايا بضاعة من خضرة وفاكهة فاسدة، وأواني خزف مهشمة، واستمر بعض الباعة يجمعون أمتعتهم وخيامهم الصغيرة المهترئة. اجتاز أنير وسط السوق، ثم مرّ بشارع القاضي، وانعطف إلى حي الحجر، وطرقَ باب منزل الأرملة ليفيا. انتظر قليلاً، وبدا له - في الأخير- وكأن الباب لن يفتح أبداً! وحين همَّ بالانصراف، فتحت المرأة المثيرة الباب، فبدأ وجهها المليح متفجراً بحمرة حمم ساخن خرجت منه للتوّ، وتدلّى شعرها الأحمر المجعد المبلل بالماء على ظهرها وصدرها كسبائك من معدن نفيس.

- ادخل يا أنير.

دخل أنير، فانتبه إلى فخامة المنزل، وإلى الأثاث الباذخ الذي أُنثَّ به، ومشى فوق بساط أحمر في الممرّ، قبل أن تطلب منه ليفيا الجلوس في قاعة الاستقبال؛ قاعة مزينة بسجاد أنيق، وبمجالس من الصوف والحريير الخالص، وتدلّت من السقف ثريات من زجاج البلور، زُرِعَتْ فيها شموع ملونة بألوان الطيف.

جلس أنير، فتأمل صحن الفاكهة وإبريق الشراب. أفرغت له مضيّفته قدحاً من معدن نحاس نبيداً قوياً فاحت رائحته من الفور. تسلّمه من يدها، ولكنه قال وهو يضعه أمامه على الطاولة الصغيرة:

- لن أشرب إلا هذا القدح.

- إنه شراب مُعْتَق، ومن نوعية ممتازة!

- لا أحب أن أُسَكِّر! أعرف هذا النوع من النبيذ... إنه يُسَكِّر

بسرعة!

- فلتسكّر إذا، وما المشكل؟!!

- قد ترين مني ما لا أحب، وما لا تحبين!

- لا أفهم؟

- أقصد أنني حين أسكّر آتي بتصرفات ربما لن تعجبك، أو ربما

أضرت بك وبى.

ضحكت ليفيا، وقالت بخبث امرأة ذكية:

- ربما العكس.

ارتشف أنير أول جرعة من قدح النبيذ، وتلمّظ مذاقه الرائق.

وضعت ليفيا ساقاً على ساق، فظهرت فخذها بيضاء مصقولة،

والتصق القماش الحريري بوسطها، فأظهر تقاطيع واضحة لخصرها

البديع، وانفرج ثوب صدرها، فكشف جزءاً من ثديين نافرين.

شعر أنير بالأمر تسير على نحو مثير، وأدرك أنه استُدْرِج إلى

محرقة من لذة معذبة ومستحيلة. تأوّه، وصرف نظره نحو النافذة،

فسمع شدو عصافير في الخارج، ورأى السماء مغطاة بغمام غروب

أحمر شفاف.

- قلت إنك تحتاجيني في أمر...

- أحتاجك، يا أنير، في كل أمر. دع جلستنا تطول، وسترى كم سأحتاجك.

- ولكنني مضطر إلى الانصراف.

- أشعر وكأنك تهينني!

ضحك أنير ضحكة ساحرة تكسرت في الأجواء بوداعة:

- أنت أكبر من أن يهينك أحد، وإنما أنا شخص نذرت نفسي لفتاة أخرى.. أرجو أن تحترمي في نفسي هذا النذر.

- حسناً، لطالما كنت متميزاً، حتى في تنطُّعك أيها البربري الجميل.

غادر منزل ليفيا، فوجد أمام وجهه ظلاماً ينزل ببطء على أزقة بلدة دريو وبيوتها. واصل المشي في اتجاه منزله البعيد، ورأى السيد أفولاي يسير في الاتجاه الآخر، معفراً بالملح وبنور المعرفة التي بدت لأنير تتوهج على نحو عجيب من داخل الكهل، الذي يختزل عالمه كله في القراءة والمجادلة والتجارة في الملح.

«اللعنة! لقد سرح بالي بعيداً، ورأيت أشياء غريبة!.. من هي ليفيا؟، ومن هو السيد أفولاي؟».. ردد أنير متسائلاً، وهو يواصل السير بإجهاد وسط التلال في الخلاء، لكنه أدرك أن هذه الأسماء لن تكون غريبة عنه.

أصبح مُنْهَكًا؛ فبعد مسير طويل، لم يصادف في طريقه كائناً

بشرياً، وكان المنطقة مهجورة! ظهرت له في الأفق تلال متوسطة العلو، كيف يستطيع ارتقاءها، وهو منهك القوى؟ لكنه سرعان ما تصور، بخيال ملهم، قرية قد تكون خلف تلك التلال، وأمازيغ طبيين يحتفون بالغرباء ويساعدونهم.

واصل السير في غمرة حماسة استثنائية، وأصبح قريباً من التلال التي اتضح له أنها أقل علوًا مما تصور. ورأى الشمس تتهادى نحو المغيب، والنسيم المسائي يتسرب إلى روحه مُحملاً برائحة خواء محبطة، ورأى طيوراً سوداء بعيدة جداً تحلق عالياً. تحسس الجرح في مؤخرة رأسه، الذي أصيب به في مخرج الغابة.. وجده بارداً، ينضح بألم لا يحتمل.. كان لا يزال لزجاً، وبعض الدم المتجلط يغطيه.

غابت الشمس تماماً، وبدأ الظلام يرمي ببعض قطع منه بين التلال. واصل السير بإصرار، ولم يفكر في النوم، أو التوقف للاستراحة. توجس من وحشة المكان والظلام، وجرحه الذي قد يستفز حاسة الشم لدى هوامّ الليل. جرجر رجليه بإجهاد، مرتقيماً التلال التي بدت وكأنها لا تنتهي. لكنه فجأة سقط على الأرض، وفجأة أيضاً جرفه نوم عميق. استيقظ في صباح الغد مذعوراً، فرأى الفجر منتشرًا حوله، ووجد نفسه وحيداً في الخلاء وسط براز ثعالب، وخيل إليه وكأنه محاط برائحة متفشية لذئاب تشمته ليلاً، أو ضباع أو حيوانات ما.. كانت الرائحة قوية في خياله إلى درجة لم يستطع معها ألا يتصور عدم وقوع مثل ذلك الاحتمال. رأى المحيط من حوله مُشكلاً من تلال ملونة بنور الفجر الأحمر؛

تلالٍ من تراب قاحل أصفر، وبرد قارس يلسع جسده المنهك. نهض بتثاقل. وجد لباسه مبللاً بندى ليلي بارد وكريه، وكأنه نام في بركة ماء ملوث. سار بخطوات متثاقلة صاعداً التلال الصغيرة، واندفعت أنفاسه بقوة، وشعر بإعياء غير محتمل. واصل المشي وسط قذارة تهاجم كل شيء في نفسه. عاف ملابسه وشعره الأشعث المخلل بالتراب وبالحشرات الصغيرة وخيوط العناكب. أبصر أخيراً كوخاً صغيراً على بُعد مسافة متوسطة، وكان قد اجتاز التلال تماماً.. بدا الكوخ وحيداً ومحاطاً بحديقة صغيرة، وبضعة أغنام ترعى في مَرَجٍ أخضر. واصل المشي. دنا من الكوخ. لم ير بشراً، وبدا المكان مجرد خلاءٍ ممتدٍّ بلا نهاية. سمع ثغاء الأغنام وصياح ديك. وبدا الكوخ متواضعاً، مبنياً بطوب وقصب؛ كوخاً محاطاً بأشجار زيتون وفاكهة.. لقد رأى الحياة من جديد، وتصور أنه يتنفس شذاها. أحس بالعطش والاجهاد، ولم يتأكد مما إذا كان سيستطيع الوصول إلى الباب ليطره أم لا. حاول أن يرفع صوته ليستنجد بسكان الكوخ، ولكن ضاع صوته بعيداً داخل نفسه. وجد نفسه بمعجزة أمام الباب بعدما جر رجليه بجهد مُضْنٍ؛ فهَمَّ أن يطره، لكن الباب فُتِح، وبمصادفة عجيبة، من قِبَل فتاة شابة.. وجهها مضيء كالبدر، وشعرها منسدل حالم، وفمها مرسوم كوردة في بداية تفتحها.. أمازيغية الملامح، واسعة العينين، سوداء الشعر، نافرة الشفتين. أحس بأنه يغرق في دوامة غريبة من الحيرة والإعجاب، وكانت الحيرة والخوف يلفان الفتاة أيضاً:

- «أنتِ.. فين.. فينو.. فينوس؟!» قال، ثم سقط على الأرض

بالقرب من قدمي الفتاة، وارتطم رأسه بعتبة الباب، فشجّ وسط جبينه. صرخت الفتاة مذعورة، وهرولت مرتدة إلى الخلف داخل الكوخ، منادية والدها برعب. وفي تلك الأثناء، رأى أنير نجومًا تسبح في سماء من دم، ورأى وسط تلك النجوم نجمة مختلفة جدًا؛ نجمة تبعث إشعاعًا باهرًا؛ إشعاعًا نورانيًا استقر في قلبه تمامًا.. إنها تشبه الإلهة فينوس، والفتاة الرومانية التي رآها في زمن بعيد مضى.

لماذا تذرعين ضفافي جيئةً وذهاباً وأنت مضطربة،

إيليا⁽¹⁾،

يا طفلة طروادة وسلسلة نسبها؟

لماذا تسيرين وحيدة؟

لماذا تتجرجرين في الوحل؟

ولا من شريط أبيضٍ مجدولٍ لتربطني شعرك؟

معركة الذئاب وأسطورة سانيس

تشمُّ سانيس، خلال تجوالها في شوارع وأسواق أرتو، رائحة خبز الشعير والذرة، والأريج الفريد الذي تفرزه نشارة الحرفي المتحمس السيد ريمس. تقع حدادة السيد كاجي، خلف الشارع الثالث، المحاذي للقصر الرئاسي التي تقطنه سانيس، والسيد كاجي رجل مسنّ أبيض اللحية والحاجبين، وحاجباه كثيفان وطويلان يكادان يخفيان عينيه المغمضتين، يكتفي بالجلوس بالقرب من ورشته مستمتعاً بالضرب الرتيب على السندان لمطارق الشايين اللذين يشغلها، ويشعر بنشوة عندما يشم رائحة الحديد التي تذكره أحياناً برائحة جلد متفسخٍ لماعز، وأحياناً أخرى برائحة فاكهة عفنة مرمية وسط وعاء من ماء ورد.

(1) إيليا، إيليا، ريا سيلفيا، عذراء ربة الموقد، أغواها مارس فولدت ريموس ورومولوس، لكن خالها أموليوس حكم عليها بالتخلي عنهما وإلقائهما طافين على النهر. وقد نجيا وأرضعتهما ذئبة -كما تروي الأسطورة- وهما مؤسس روما.

لا شيء محددًا يميز الأميرة سانيس، سوى جمالها وجاذبيتها الباهرة، ولكن، في الوقت نفسه، وعلى نحو عجيب، كل شيء يميزها من غيرها، ويجعل منها أميرة استثنائية جدًا.. هذا هو الانطباع الذي تركه في ذهن كل شخص يراها لأول وهلة.

مع بداية انتهاء نضج مراهقتها، ودخولها سن العشرين من عمرها، شعرت بفراشة مزوّقة تدخل قلبها دون استئذان، وحرّكت تلك الفراشة في أعماقها، برففتها الودّعة، مشاعر غامضة ومدغدغة. وسرعان ما اكتشفت بروح أنها تحبّ، ولكنها لم تعرف من هو الشاب الذي سقطت في لظى هواه! فكرت - بدايةً - في ماريوس؛ ابن سيساو، نائب والدها أوريلْيوس سيبْيو، حاكم مدينة أرتو. ذهبت إلى ماريوس الذي كان يجلس مع رفقائه خارج المدينة، لكنها اكتشفت فيه شيئًا جعلها تؤمن، من دون تردد، بأن هذا الشاب لا يمكن أن يكون فارس أحلامها، رُغم وسامته اللافتة.. نظرت إليه طويلاً، وفي تلك اللحظة أشعلت سانيس محرقة حب صاخب في قلب الشاب؛ حب سيظل يشوي مشاعره زمنًا طويلاً.

حاولت البحث عن شاب يشبه شابًا فريدًا في كل شيء، بدأت تراه في أحلامها، لكن ملامح هذا الشاب كانت دومًا نائية وغير واضحة، تعيدها إلى ذكرى بعيدة في مدينة بعيدة لم تعد تذكر اسمها! ذهبت إلى مدرسة بنّاية الرئيس؛ حيث يتابع أبناء أعضاء وأمناء المدينة وعلية القوم دراستهم فيها، فانتظرت خروجهم جميعًا من باب المدرسة الكبير، لكنها عادت بنتيجة مخيِّبة.. لم تجد فارس

أحلامها بَعْدُ، غير أنها أشعلت من جديد حرائق عشق في قلوب شبّان كثيرين، واحتاجت سانيس إلى زمن طويل، وتجاهل أطول، لتجعلهم جميعاً يأسون منها تماماً.. لكنها الآن تدرك، بيقين لا يقبل الشك، أن الحب المدسوس في قلبها، هو لشاب أصبح واضحاً في ملامحه وهيبته البهية، وأضحت تراه في أحلامها أكثر، وأيقنت أنه قادم إليها، وأنهما - لا محالة - سيلتقيان في الأخير.

واصلت سانيس عبور الشارع المبلط بحجر أزرق داكن عتيق، وكانت الدكاكين قد فتحت أبوابها مبكراً؛ لأن عدد الوافدين على المدينة أصبح يتضاعف يوماً بعد يوم، وطلبات شراء المؤونة تتزايد استعداداً لموسم الشتاء المقبل. مدينة أرتو مدينة نشطة على الدوام، تمر بها قوافل كثيرة، وتعرف حركة مزدهرة للتجارة ومصانع النيذ وورشات صناعة الخشب والزجاج والحدادة، أسواقها عامرة بالبضائع المحلية والمستوردة.. إنها مدينة منفتحة على كل شيء، وتحفظ أمنها وهدوءها بقوانين زجرية قاسية بحسب من وضعوا لها تلك القوانين، ولا أحد يعرف من وضع تلك القوانين؛ لأن حكام المدينة يدعون شرعية مستمدة من الآلهة، وأن القوانين التي يحكمون بها هي قوانين من إلهام الآلهة.

مشت سانيس، بخطوات غزاة رشيقة، بمحاذاة سور المقر الرسمي لحاكم المدينة، وحاكم مدينة أرتو ما هو إلا والدها السيد أورليوس سيبيو، ولم يكن هذا الأمر مبعث افتخار بالنسبة إلى سانيس، بل لطالما وجدت فيه الكثير من القيود،

التي تحد من حريتها الكاملة؛ فهي، في كل الأحوال، تُعامل على أساس أنها أميرة وابنة حاكم المدينة، وهذا التعامل، غير العادي؛ كما تراه، لم يكن يعجبها إطلاقاً. واصلت سيرها، ووقَّع أقدامها يمتزج بصخب الناس والباعة والحركة، التي لا تكاد تتوقف في شارع بناية الرئيس.. هكذا يسمى الشارع الأكبر في المدينة، وأطلق هذا الاسم على الشارع؛ لأن المقر الحكومي يقع وسطه، والمقر هو تجمع لأعضاء وأمناء المدينة، وفيه يتقرر كل شيء يخص مصير الاقتصاد والضرائب والحرس والتحكيم في المنازعات، التي قد تندلع بين فلاح وآخر حول أرض، أو بين تاجر وموّن، أو لأسباب مختلفة تتعلق بالإجرام الخطير الذي قد يُرتكب بين فينة وأخرى، والأحكام تصدر دائماً باسم الآلهة، وتُستمد شرعية الحاكم وأعضاء وأمناء مجلس المدينة من الآلهة أيضاً. سانيس أميرة حاملة، تعيش عوامها الخاصة العجيبة، ولا تندمج كلياً في مجتمع أرتو، ولو شكلياً؛ إذ غالباً ما وُصفت خفيةً، من قبل أكثرية سكان المدينة، بأنها أميرة انطوائية. لقد كانت تحلم باستمرار، ولم تكن الأحلام بالنسبة إليها شيئاً نمطياً كباقي أحلام الناس؛ فكل أحلامها تُختزل في رجل بهي الطلعة، متوسط الطول، متوازن في شكله، كان يقبل نحوها بملامح واضحة، من بعيد جداً، ولكنه ما يفتأ يفقد ملامحه كلما اقترب منها، ليتهاي - في الأخير - مجرد طيف بلا شكل ولا لون، قبل أن يتلاشى نهائياً. ولطالما لازمها هذا الحلم في شرودها، الغالب على طبعها، وظل يباغتها في الكثير من

لياليها، وأحياناً لبضع مرات في الليلة الواحدة. وأصبحت تلك الأحلام، في الآونة الأخيرة، تلحّ عليها على نحو كثيف ومثير لمخاوفها!

فكّرت في زيارة حي جبل الأمازيغ.. فهناك رجل طاعن في السن، يقرأ الطالع، ويفسر الأحلام.. هكذا تسربت إلى نفسها هذه المعلومة التي لم تعد تتذكّر مصدرها، وهل حقاً هناك في ذلك الحي شخص بهذه المزايا؟، بل لم تفكر أيضاً في المخاطر التي يمكن أن تتعرض إليها في ذلك الحي، ولا المأزق الذي ستضع فيه أباهَا أوريلْيوس سيبيو، لو رآها أحدهم تلجّ ذلك الحي المعلق على منحدر جبل عال، تبدو بناياته الصغيرة الملونة، المرصوفة بدقة، من وسط المدينة كحقول صغيرة لزراعات أرضية في وقت اخضرارها.

- «سانيس.. سانيس..». ناداها أحدهم، وهو يركض نحوها:

- بحثت عنك طوال الوقت.. ولم أعرف كيف أجدك!

ضحكت بسخرية بريئة:

- ولماذا تريد أن تجدني؟!

- «لديّ ما أقوله لك يا سانيس..». قال الشابّ الوسيم الذي يرتدي ثوباً أنيقاً، ويتتعلّ حذاءً لامعاً من جلد خالص، ووجهه متورّد منشرح ينبئ عن نعمة. نظرت إليه سانيس بوجهها المُفعم بجاذبية طبيعية.. إنها من تلك الشاكلة من الفتيات اللواتي يمتلكن سحرًا غامضًا، لا يمكن اختزاله في جزئيات معينة من جسدها أو

روحها، التي تُشعر المرء وكأنه يشم شياطين احتراق رحيق مهول،
وهو يجنبها:

- قل، لقد تعودتُ ما تقول دائماً، لكنني أتوقع أنك لن تدهش
حين تسمع الجواب نفسه أيضاً.

- لا، هذه المرة...

لم تترك سانيس الشاب ليُكمل العبارة، فقالت بعفوية شديدة:

- هذه المرة ستقول لي إنك تحبني للمرة الألف؟!!

ارتبك الشاب، واحمرّ وجهه خجلاً:

- نعم يا سانيس.. وأريد أن أطلب يدك.. أريدك زوجة...

ابتسمت، وفاض منها نور باهر انعكس على وجه الشاب
المذهول:

- لا تفعل!! لن تكون أنت أبداً، ولن يكون غيرك.. هو شخص
واحد، ولا أحد يعرفه في هذه المدينة!..

ارتدّ الشاب إلى الوراء. سحب نفسه من الموقف مُحفياً دموعاً
صادقة، بدأت تسيل من مآقيه.

واصلت سانيس سيرها وسط المدينة. اجتازت سوق الخضرة
والدواجن، غير عابئة بتلطّيح ثوبها الجميل بقطع فواكه مدهوسة
بأقدام المازّة، ولا بريش الإوز الذي تطاير ونثر عليها رائحة ننتة
لن تزول سريعاً. مرت وسط دكاكين العطارين، ونفذت إلى أنفها

روائح الثوم والفلفل الأحمر الحار والزنجبيل والزعتر والبقدونس المجفف. ولم تعبأ كذلك بنظرات الشباب النَّهَمَة إلى جسدها المنحوت كإلهة هاربة من أسطورة مدهشة. لقد تعودت الأمر، بل أكثر من ذلك أنها تعودت، بعفوية، تصيّد الكهول والشيخوخ، وهم يتابعونها بنظرات داعرة، عندما تمر بجوارهم، وكأنها تحمل في جسدها تميمة جاذبة كالمغناطيس السحري!

وجدت نفسها أخيراً في مدخل جبل حي الأمازيغ. رأت أزقة ملتوية ضيقة، تسيل منها مياه ملوثة سوداء، وجدران بيوت بائسة مبنية بالقبص والعيدان؛ بيوت ملطخة بصباغة نباتية باهتة أصابتها التعرية بسبب الزمن والأمطار. وتناهى إلى سمعها عزف موسيقي صاوح تغلغل في كيائها، وحبس أنفاسها. اتكأت على جدار عتيق، وصرحت في حلمها المعتاد. وقبل أن تتخلص منه نهائياً، وبعد سير حالم وطويل، وخطوات متعبة جعلتها تشعر كما لو أن تلك الخطوات ترميها في الهواء، وكما لو أن جسمها تحوّل فجأةً إلى نُدفة ثلج خفيفة، وجدت نفسها- في نهاية المطاف- تدخل باب القصر الذي بناه والدها على مساحة كبيرة، أغلبها زرعت بأشجار الرمان والمشمش واللوز، على حين زرعت شجيرات الورد داخل الحديقة الصغيرة الملحقة بالقصر. استيقظت سانيس حينذاك تماماً من دوخة الحلم، فوجدت الخدم منشغلين برشّ ساحة الحديقة بالماء، وبسقي أشجار الورد. وفي الداخل ألفت الخادمة بيرينة منهمكة في المطبخ تهيّئ وجبة الغداء.

وبعد قليل، سُمعت حركة دؤوبة معتادة في المنزل في مثل ذلك الوقت من النهار. دخل والدها إلى المخدع الخاص به، ولكنه- هذه المرة- طلب سانيس على عجل، فذهبت إليه غير عابئة. سألتها بهدوء:

- لماذا ذهبتِ إلى حي البربر؟

أجابت بعفوية:

- لم أكن في حي البربر.

- لكنني أبلغتُ من قِبَل شهود ثقات بأنك كنت هناك!

جالت قليلاً بعينيهما على سقف البيت، وخيّل لوالدها أوريلوس سيبو وكأن السقف يصدر هسيسًا خفيفًا، ولكنه لم يصدّق أوهامه. أجابته سانيس:

- لا، ليس صحيحًا.. لم أكن في حي البربر.

- أين كنتِ إذا؟

- تأملتُه قليلاً من الخارج. ولو أردت زيارته ما منعتني أحد.

ضرب أوريلوس سيبو قبضته بلطف على المائدة. بدا وكأنه يكاد يفقد أعصابه، وتسمّرت سانيس تنظر إليه ببراءة، غير مدركة سبب غضبه، بل أشفقت على والدها.. لقد بدا لها، في تلك اللحظة بالذات، أشبه بمجنون، بل تصوّرتَه طفلًا صغيرًا لا يعرف أشياء كثيرة في هذه الحياة، واستغربت كيف أن الناس يعيشون واقعًا سطحيًا تعيّسًا، على حين يفوتهم الاطلاع على الواقع الحقيقي العميق!

- نائبي يطلبك زوجة لابنه، ولقد أبلغني أن ابنه من المفترض أن يكون قد أخبرك بالموضوع.

- نعم، لقد أخبرني.

صمت والدها، وهو ينتظر من ابنته موافقة يعرف أنها شبه مستحيلة، فقالت سانيس:

- لن أتزوج، ولن أتزوج غيره!

- هل أفهم أنك لن تتزوجي أبداً؟!

ردت بعفوية:

- كلاً، سأتزوج ذلك الشاب الذي يعرض لي في الأحلام.

ضحك أوريليوس سيببو ضحكة مترهلة ومرة، فابنته الوحيدة العزيزة على قلبه.. يراها تنجرُّ يوماً بعد يوم نحو هاوية جنون غير مفهوم، ولكنه هو الحاكم؛ حاكم مدينة أرتو، لا يستطيع مساعدتها! أشفق عليها. بدت له فتاة لا تعرف مصالحها:

- سانيس.. بِنَيْتِي، الشاب الذي يطلبك زوجةً له هو، علاوة على كونه ابن نائبي، عضو مجلس أمناء المدينة، وأكبر تاجر للسجاد في المنطقة، بل يمتلك قصرًا بديعًا لا مثيل له، وقبل كل ذلك فهو يحبك، وأخلاقه طيبة جداً.

- «إنه.. كما قلت يا أبي، شاب رائع، وغني أيضاً، وله قصر، ومع ذلك لا أريده زوجاً لي!» قالت سانيس، ثم غادرت. وحينذاك، تأكدت فعلاً من أن الرجال، أو أغلبهم على الأقل،

إما سُذج إلى درجةٍ تُبعث على الشفقة، وإما أنهم متسلطون إلى درجة تدعو - أيضًا - إلى الشفقة، بمن فيهم والدها طبعًا. ظلت سانيس، على الدوام، تؤمن بأنه لا سلطة لشخص على آخر، لكنها آمنت دومًا بأشياء خفية لا يعلمها أحد.. تفرض نفسها بقوة على البشر، وما حُلْمُها الذي يعرض لها في اليقظة وال المنام إلا تجسيدٌ لهذا الانطباع. غادرت حجرة والدها، وبمجرد اجتيازها عتبة الباب، نسيت كل شيء! لكن أورليوس سيبيو، بداله في وهم غريب، وكأن ستائر النوافذ تهتز، وكأن كائنات غير مرئية تتلاعب بها، وكأنه يشعر برفرفة طيورٍ في فضاء الحجر، ومع ذلك لم ير أي طائر بعينه! وشعر بريح خفيفة تغمر مخدعه، حاملةً رائحة بحر كان قد عبره مع جنوده في زمن غابر، ورأى طيف نورس يطير هاربًا من شبك النافذة، مخترقًا الساتر دون أن يمزقه.. لقد أدرك أن ما يراه مجرد أوهام تتلاعب في خياله. وللحظة شكَّ وكأنه أمام حقيقة أن سانيس مخلوق غير عادي، وأنها مسكونة بروح ما، ولم يتأكد مما إذا كانت تلك الروح هي روح ملائكية أم شيطانية. وحين أحضروا له الأكل، كان قد غرق في موجة سريعة من النوم، حَلِم خلالها بأنه يرى حربًا ضروسًا أخرى مقبلة، تهدد وجود مملكة أرتو، وكان ذلك الحلم يبدو له وكأنه حقيقة غامضة.

اكتفى الحاكم أورليوس سيبيو باحتساء كأس من شراب اللوز.. لقد شعر بوهن، وبحالة خمول ويأس. وفي تلك الأثناء، أُبلغ - من قبل حراسه - بأن فارسين، يمتطيان جوادين مطهّمين، جاءا بأخبار عاجلة؛ فأمر بإدخالهما من الفور. وبعد لحظة كانا جالسَيْن بين يديه:

- سيدي، لقد رصدنا جيشاً معادياً في الطريق إلى المدينة.

صمت أورليوس سيبو لحظة، وغرق في تفكير عميق:

- هل الأمر مؤكد؟. أقصد هل هذا الجيش يقصد مدينتنا؟

- نعم يا سيدي.. إنهم يتوجهون نحونا.

- حسنًا، وكم عددهم بالتقريب؟، وكم هي المسافة التي

تفصلهم عنا؟

- إنهم يفوقون حرسنا عددًا وعدة بكثير، وتفصلهم عن المدينة

مسافة سير يومين.

- أعمم!

شعر الحاكم بخطورة الموقف، ولكنه تماسك.. عليه أن يُظهر

الجلد والقوة في حالة كهذه:

- يجب إبلاغ أمناء وأعضاء مجلس المدينة الخبر للحضور في

أقرب وقت إلى مقر بناية الرئيس.. علينا أن نتداول في الأمر، لنقرر

ماذا نفعل.

- حسنًا، نستأذنكم سيدي.

الروح العابرة

اجتمع أمناء المدينة وأعضاؤها في مقر بناية الرئيس، وخيم

عليهم جميعًا توتر وخوف غامض؛ فلأول مرة، منذ عهد بعيدة،

ستعرض مدينة أرتو إلى مثل هذا الاعتداء المرتقب! فكيف يمكنهم إذا الدفاع عن أنفسهم؟. ليس لديهم جيش مدرب، ولا سلاح فعال؛ فالجنود الذين اصطحبهم معه الرئيس أورليوس سيبو من روما، تركوا الحماية المناطق التي كانت تسيطر عليها مملكة ماسيسيليا. في أرتو حراس بسيف يحسنون استعمالها، ولكنهم ليسوا مقاتلين كما ينبغي لجيش محترف أن يكون. وأكثر من ذلك، فعدد حراس المدينة، الذين يحرصون على استتباب الأمن داخلها، قليل جداً.. لا يتعدى المائة، ولا يمكنهم مجابهة جيش جرّار مُدرّب، وبعناد حربي يفوق عتادهم. ولكن ليس هناك الآن مجال للتفكير في مثل هذه الأمور المحيطة.. هكذا خاطب الرئيس أورليوس سيبو أمراء مجلس المدينة وأعضاءه. يجب اتخاذ موقف جادّ وسريع. انبرى شاب، يبدو - من خلال هيئته - أنه شخص متحمّس وحازم، فطرح الفكرة الآتية:

- ليس لدينا الوقت لنضيّعه في النقاش؛ كما قال السيد الحاكم. لدينا مخزن أسلحة قديمة.. رماح وسيف، وأعدادها لا بأس بها، ينبغي البدء حالاً بتوزيع ذلك السلاح القليل على جميع ورشات الحدادة لشحذه جيّداً، وجعله قابلاً للاستعمال في القتال. كما ينبغي أن نستنفر كل من يستطيع حمل السلاح، وأن ندعوّه إلى أن يجهز نفسه لهذا الأمر. لدينا بضعة حراس مهرة في استعمال السيف، يتحتّم عليهم، وبسرعة قصوى، تدريب الرجال لكي يتعلموا - على الأقل - كيف يحملون في أيديهم سيوفاً، ثم ينبغي صنّع دعائم حديدية قوية؛ لتحمي أبواب المدينة الأربعة المتداخلة.

استحسن حاكم المدينة أورليوس سيبو فكرة الشاب الذي لم يكن إلا ماريوس؛ ابن نائبه سيساو داسي.. هذا الشاب الذكي الذي ترفضه ابنته سانيس زوجاً لها. انفضّ الاجتماع، ووُزعت المهام، وتكونت بسرعة لجانٌ لتبّح الأعمال والاستعدادات كما خُطّط لها. نوّدي في المدينة، وأعلّم بخبر المهاجمين الذين يقتربون بسرعة من المدينة لمهاجمتها، وكيف أنهم سيقتلون كل شخص، وسينهبون كل الأموال، وسيسبون كل النساء! أحس السكان بالخطر الداهم، وجرت في شرايينهم دماء الحمية، وأخذوا يشتغلون، كلٌّ في ميدان اختصاصه، بإخلاص شديد، ومن دون توقف أيضاً، ولكن بعض سكّان المدينة تحاذل، وهرب منها، ونشر حالة إجباط كان من العسير السيطرة عليها. وفي ظرف يوم واحد، كان الفرسان العشرة قد درّبوا حوالي ثلاثمائة شخص على الطريقة المثلى لحمل السيوف والضرب بها، وكان ذلك أقصى ما يمكن فعله خلال يوم واحد من التدريب الشاق. كما أن ورشات الحدادة اشتغلت ليلَ نهار، دون توقف، بمساعدة متطوعين كُثُر؛ لشحذ السيوف والرماح، وصناعة أخرى جديدة، وإن كانت - في الواقع - تلك السيوف والرماح المصنوعة من قِبَل الحدادين ليست بالجودة المطلوبة في سيوف ورماح حقيقية، غير أنها بدت - في النهاية - أسلحة تستحق أن تُحمل في اليد.

وجُمعت الزيوت من المتاجر والمنازل، ووُضعت فوق أسوار أبواب المدينة، وتركت لتغلي تحت نار جهر متقد، وتشكلت فرق عسكرية رأس كل فرقة منها مقاتل، يفترض أنه سيعرف كيف

يُوجِّهُ فريقه بحسب سير المعركة وظروفها، على حين انزوى الشاب ماريوس، في هدوء، يخطِّط للمعركة الحاسمة، ويرتّب كل الاحتمالات الممكنة، وماذا ينبغي فعله إذا كُسِرَت الأبواب؟ وماذا ينبغي فعله إذا تبين أن المعركة - من جانبهم - خاسرة وهل سيستمرون في القتال إلى آخر رجل؟.. وفكر في الأميرة سانيس، وخاف عليها، وتمنى لو يكون حاميا في ذلك اليوم، الذي ستشدد فيه المعركة!

مر اليوم الأول مشحوناً بالحماس والعمل الدؤوب، وخيم على الأجواء انتظار ثقيل مَشُوب بالشك والتوجس. وفي اليوم الثاني كان كل شيء جاهزاً، بما في ذلك الخطة الحربية، التي عرضها ماريوس بخيلاء أمام أورليوس سيبو؛ القائد العسكري السابق وحاكم المدينة الحالي، الذي خاض حروبا كثيرة انتصر في جلها، ولكن عزيمته الآن وهنت، وقد تقدم به العمر، وأوكل الأمر إلى الشاب ماريوس وبعض أعضاء المدينة وأمنائها.

- «أمم... حسناً!. إنها خطة جيدة.. لا أرى أفضل منها!» قال الحاكم العليل، وأيده الجلساء. وفي الخارج اشتعلت الحماسة في نفوس السكان، وقد ارتاحوا إلى نتاج العمل الذي أنجزوه خلال يوم واحد فقط، وأصبحوا أكثر ثقة بعدما انضم إليهم عدد كبير، غير متوقع، من شبان جبل الأمازيغ المتحفزين، المسلحين بالسواطير والرماح التقليدية، وعيونهم تشتعل بشجاعة خارقة، وكان بينهم فتى اسمه توهي.. صلب الجسم، وشعره طويل، ومربوط بسلك من نحاس، يطلق، من حين لآخر، زجاجة مُرعبة تهز الأزقة كلها في المدينة.

وفجأةً تنهى إلى سَمْع الجميع قرعُ طبول قويّ يقترب شيئاً فشيئاً، ووقف بضعة رجال يراقبون الجيش الغازي من أعلى البوابة الرئيسة للمدينة، التي دَعمت جيّداً بالحديد الصلب والخشب المغطى بصفائح الفولاذ، كغيرها من البوابات الأخرى. وكان ضمن هؤلاء الرجال، الذين يراقبون العدد الهائل من الفرسان والجنود، الشاب ماريوس، الذي تأمّل قائد السرية العسكرية المتقدمة، الذي يرتدي - كما كل جيشه - لباساً من فرو الذئب. صاح ماريوس من أعلى سور المدينة بالقائد الغازي، بصوت واثق مليء بالتحدي:

- هلاً أخبرتنا عن دواعي هذه الزيارة المفاجئة.

ضحك القائد باستهتار:

- أو هكذا يُستقبل قائد جيش عظيم؟. لا أرى عذارى جميلات بأكواب من النيذ، وصحون اللحم والفاكهة!

ردّ ماريوس بلطف:

- أليس قبل أن نعرف سبب الزيارة؟

ضحك القائد مرة أخرى، وقال بصوت أراده أن يكون مجلجلاً:

- القائد داوجاب حين يريد شيئاً لا يقف في وجهه أحد، وأنا أريد أجمل عذارى مدينتكم وكل كنوزها.. إنه طلب قليل، مقابل الإبقاء على مدينة أرتو، وحفظ أرواح سكانها، وإلا...

- ألمس لهجة تهديد في كلامك أيها القائد.. داوجاب!

- إنك لا تلمس، بل إنك تسمع تهديدًا حقيقيًا.. القائد داو جاب لا يمزح، بل لا يعرف شيئًا اسمه المزاح.

ابتسم ماريوس وقال بهدوء:

- لن تأخذ شيئًا!. يمكنك فقط، وفي أفضل الأحوال، أن تأخذ صعاليكك وتنصرف، وإلا.. فستموت...

أعطى قائد الجيش الغازي إشارة بدء الهجوم بهدوء الواثق، واندلعت من الفور معركة طاحنة بين جيش أرتو الصغير والقوات المعادية. وقد أظهر الفتية الأمازيغ، وفي مقدمتهم تواهي، شراسة مثيرة في القتال؛ فقد كانوا يقطفون رؤوس الغزاة بمهارة عجيبة، وكانوا يطلقون صرخات، لم تبث الرُّوع في قلوب الخصوم، بل أفزعت جيش ماريوس المبتدئ أيضًا.

سمعت الأميرة سانيس بخبر غزاة يهاجمون المدينة، ولكنها لم تهتم.. بدا لها الأمر تافهًا جدًّا، ولا يستحق كل هذا الهلع والروع من الناس، كما أنها كانت قد أمرت من قبل والدها، من قَبْلُ، بآلا تخرج من المنزل ذلك اليومَ حفاظًا على سلامتها. وزوَّدت بقارورة سمّ لكي تُشربها في حال اقتحام الغزاة المنزل؛ تفاديًا لمصير سَبِيها المرعب، ولكنها تجاهلت قارورة السم.. لقد بدت لها الفكرة عقيمة، ورددت في نفسها:

- أي هراء هذا؟!.. هل الموت لعب؟!، وهل السبي لعب

أيضًا؟!

خالفت أوامر والدها، فخرجت من بوابة حديقة المنزل. رأتها الخادمة بيرينة، وهي تغادر؛ فصاحت بجزع:

- أرجوك سانيس، لا تُجازف بحياتك!

لكن سانيس لم تُعِرْ رجاء الخادمة أدنى اهتمام؛ فهُرعت بيرينة إلى سيدتها واري، التي قصّدتْ سطح المنزل لعلها تستبين شيئاً مما يجري في المعركة. ارتاعت والدة سانيس السيدة واري، وهرولت نازلةً الدرج، وبحثت عن سانيس في الجوار، ولكنها لم تعثر لها على أثر. سألت حارس المنزل إن كان قد رآها، فرد بالنفي.

مشت سانيس متتبّعة أثر شابّ بدا لها، من خلال ضباب شفاف أبيض، أنه الشاب نفسه، ذو الطلعة البهية نفسها، والتوازن الأنيق في تركيبته جسمه، الذي يعرض لها في المنام دوماً.. ذلك الشاب الذي رآته في بلدة بعيدة لم تعد تذكر اسمها. رأت من بعيد ضجيج معركة شرسة، وتقدمت بخطوات ثابتة، واقتحمت الجموع المتشابكة، ولم تشعر بصليل السيوف حولها. مشت وسط المتحاربين، وكأنها تسير بين أشجار غابة كثيفة، تزيح من أمامها مقاتلاً، وكأنها تزيح غصناً، ثم تتخطى جثة جندي، كما لو أنها تتخطى جسماً حجرياً ناتئاً من الأرض تصادفه في طريقها، أو ركام تراب. تعثرت فجأةً بحصان سقط صريعاً في خضمّ القتال الضاري، ثم وقعت على جثث موتى، وتلطخت ألبستها بدماء دافئة بلّلت شعرها وأطرافاً من وجهها، وتركت بقعاً في كل مكان منها. تفادت السيوف المتشابكة على نحو عجيب لتخترق صفوف المتقاتلين،

ومرت الرماح بقربها بسرعة مذهلة، ولكنّ واحدًا من تلك الرماح لم يُصِبْها. وظل، خلال كل ذلك، طيف ذلك الشاب ماثلاً أمام عينها؛ الشاب الذي يقتحم أحلام يقظتها ومنامها، تراه يتسم بطلعته الأمازيغية الوسيمة، ولكنه يتلاشى بمجرد اقترابه منها. في الأخير، شعرت بحرارة بركانية غير عادية، وتنبهت إلى الشخص الذي يقف أمامها.. لقد رأت رجلاً ضخماً، قبيح الهيئة، يرتدي لباساً من فرو ذئب رمادي.. نظرت إليه باستغراب. أدهشها منظره العجيب؛ فشعر الرجل بلسعات برد قارس، وبرعشة تهز جسمه، وبظلام يغطي عينيه، وأحس برعب مبالغت جراء جمال سانيس المذهل، الذي لفحه بحرارة حرقت كل الجبروت داخله؛ فضهل جواده صهيلاً مروّعاً، ورفع قائمته الأماميتين؛ فصاح داو جاب بأعلى صوته مخاطباً جيشه:

- انسحبوا.. انسحبوا فوراً...

لم يفهم جنده هذا الأمر الغريب؛ فهم كانوا الطرف الغالب في المعركة، ولكنهم رأوا قائدهم يُدبّر منسحباً، فما كان منهم إلا الانسحاب أيضاً، بل لم يتوقف داو جاب عن الهرب؛ فقد روى بعضٌ ممن كانوا يرابطون خارج المدينة أنهم رأوه يضيع في الخلاء البعيد، وأن جنوده بدورهم تتبّعوا أثره دون أن يتوقفوا، ولو للحظة واحدة!

اجتازت سانيس شارع المعركة، وخيول الغزاة تمر بمحاذاتها وتتفادها، حتى إنّ فارساً كان يحاول الهرب سقط عن جواده بعدما

صدم سور بناية الرئيس في محاولةٍ شبهٍ مستحيلة لكي لا يجعل جواده يرفس سائيس. تهشمت جمجمة الفارس بعد ارتطام رأسه على حجر ناتئ، وتدفق منه الدم غزيراً، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة، وعيناه تتبعان سائيس بانبهار.

واصلت الأميرة سائيس السير غير مهتمة، وتجوّلت قليلاً في وسط المدينة الميتة؛ فقد كانت كل الحوانيت مغلقة، غير أنها حيّت العجوز كاجي الجالس كصنم فوق كرسي عتيق، لكنه لم يردّ تحتها هذه المرة.. لقد بدا شبه جثةٍ محنّطة. استمرت تتجول في الأزقة الضيقة، وفي الشوارع التجارية، ولم تجد رائحة الخبز، ولا رائحة نشارة الخشب الطرية للسيد ريمس، بل وجدت رائحة غريبة نفذت إلى روحها العميقة، كأنها رائحة دم محروق، أو رائحة لحم بشري مقليّ في شحم ثور فحل.. لعلها رائحة الموت.. تلك الرائحة التي لا تعرفها سائيس!

حيرة الانتصار

انشغل الحاكم أورليوس سيبويو، هو وأعضاء مجلس المدينة وأمنائها، بالإشراف على عملية تنظيف موقع المعركة، وتقديم قتلى الغزاة قرباناً للآلهة؛ الغزاة الذين تبين أنهم مجرد قُطّاع طرق من أقوام رومانية وأقوام خلاسية وأقوام من الزنج. وقد أطلق على المعركة اسم «معركة الذئاب»، واحتفِيَ بالسيد ماريوس احتفاءً عظيماً جزاءً على حسن تدبيره للمعركة، وأُعْلِنَ في الملأ أنه البطل القومي

للمدينة. ولكن كان هناك مَنْ رأى الأميرة سانيس تمر وسط المعركة كطيف من غمام أبيض شفاف، و تخننوا أنها ربما كانت العامل الحاسم الذي رجّح كِفّة النصر لصالحهم، ولكنهم لم يستطيعوا التأكد من خوض سانيس المعركة إلى جانب الرجال؛ فهي لم تكن تحمل سلاحًا في يدها، ولذلك كتموا الأمر في نفوسهم. ومع ذلك، أُبلغ الحاكم أورليوس سيبيو بوجود ابنته في مكان المعركة. استغرب في البداية، ولكنه ترك الأمر إلى أن يلتقي سانيس بنفسه. وحين عاد إلى المنزل، رأى ابنته تعود بدورها معفّرة بالدم والتراب، ولكنها بدت في ألقها وعنفوانها المعتاد.. جميلة وفوّاحة كوردة طرية؛ فخطبها بدهشة:

- هل شاركت في المعركة يا سانيس؟

تساءلت ببراءة تامة:

- أي معركة؟

- المعركة التي خضناها اليوم؟

قالت بصوت هادئ:

- لا، لم أشارك في شيء.

- ولكن أين كنت؟، وما هذا الدم الذي يلطّخ ملابسك

ووجهك وشعرك؟!!

- أردتُ التجول قليلاً في المدينة، فوجدت نفسي في شارع

بناية الرئيس، وكان عليّ اختراقه، لكنني صادفت فوضى عارمة،

فاخترقت الجموع التي كانت تتقاتل بغباء، ويبدو أنني أصبت بهذا التلوث جرّاء الزحام الشديد.

لَفَت الحيرة والدها أورليوس سيبيو.. لم يصدّق أن ابنته تتحدث بهذه الجِدِّية.. كيف أمكنها عبور المعركة الشرسة دون أن تصاب ولو بجرح بسيط؟ خاطب ابنته بنوع من الفخر والإعجاب:

- اذهبي، يا سانيس، واغتسلي، وغيّري ملابسك، واعتني بنفسك جيّدًا.

في حمّامها الخاص، وتحت رغوة صابون صلصالي أحمر، وهي عارية تمامًا، ظلت سانيس ترى ذلك الشاب، بهيّ الطلعة، يُقبل نحوها باسم الملامح، منشراح الأسارير، ولكنه بدا، هذه المرة، حزينًا أو متعبًا، ورأته يقبل نحوها ويجنّبه طيف غامض.. غامض جدًّا، ولكن الصورة سرعان ما تلاشت، كما العادة، في غمام أبيض شفاف، لتَضِيع في النهاية!

لماذا تقطفين الثمرة الفجة المرة،

وتسرقين الأعناب النامية قبل أن تملأ الدالية؟

دعي الثمرة الناضجة تسقط بشكل طبيعي..

دعي البراعم تواصل نموها؛

فالحياة ليست عقيمة تافهة لقاء انتظار قليل.

ثمار تيرينا المؤجلة

لم يستفق أنير تمامًا من دوخة الألم والنوم الذي غيَّبه مدَّة يومين متتابعين، ولكنه - على الأقل - استطاع سماع أصوات وصلته دون أن يدرك هويتها؛ أصوات صدادع فظيعة مختلطة مع أصوات رجالية ونسائية متداخلة، كما لو أنها تأتي من حلم مزعج بعيد. ثم بدأ شيئاً فشيئاً يتململ في رقدته المضطربة؛ حيث كان نائماً على جنبه الأيمن، ومستنداً على وسائد لكي لا يتخلى جسمه عن ذلك الوضع. لقد بدا أشبه ما يكون بأسد جريح يلفظ آخر أنفاسه. أراد فتح عينيه، لكنّه لم يستطع؛ لأن الوجع الذي في رأسه لا يُحتمل. وبعد فترة، استطاع التقاط حوار بين فتاة ورجل باللغة الأمازيغية، فشعر بارتياح لذلك:

- يبدو أنه سيستيقظ قريباً.

- نعم.. ذلك ما يبدو. انظر، إن جسمه يتحرك، وأجفانه أيضاً.

فتح أنير أخيراً عينيه بصعوبة.. في البداية لم يستطع رؤية شيء، ومع مرور الوقت استطاع أن يرى أطياً لأشخاص.. وفي تلك اللحظة خاطبه صاحب المنزل:

- أيها الغريب، هل أنت بخير؟

لم يستطع النطق، ولكنه قال في نفسه: «نعم»، غير أن تلك الكلمة ظلت محبوسة داخله، وشعر بخوف.. إنه لا يعرف أين هو، ولا يعرف كيف وصل إلى هذا المكان، بل لا يعرف من يكون!. أسئلة حارقة ظلت تُتمور داخله، وكانت تزيد من حدّة الصداغ الذي يشعر به في رأسه. في المساء، وبعدما شرب قليلاً من الحليب، وقليلاً من حساء الحمص المطحون أيضاً، استطاع أن ينظر حوله، وأن يرى الفتاة الشابة والرجل الكهل اللذين يجلسان بالقرب من فراشه.

- يمكنك أن تتحدث الآن.. كيف حالك؟

فتح أنير فمه ليقول شيئاً، ولكنه لم ينبس إلا بحروف انفلتت من فمه من غير معنى. سأله صاحب المنزل من جديد:

- لعلك لا تفهم لغتنا.. أم إنك تفهم؟. إنك تفهم لغتنا، أليس

كذلك؟

أشار بحركةٍ من رأسه بأن «نعم». وتعاون الأب وابنته على إجلاسه في سريره، مستنداً إلى وسائد لكي لا يصيب رأسه الحائط،

فوقظ جرحه الذي كاد أن يتعفن، لولا المجهود الهائل الذي بذله السيد بيكاو، وابنته الشابة تيرينا؛ لمداواة الجرح، وإزالة الدم المتجلط، الذي كان قد بدأ في التعفن، قبل أن يُطلي السيد بيكاو الجرح العميق بمزهم، هو عبارة عن خلاصة زيوت طيبة مستخلصة من الأعشاب، وبعض ثمار الأشجار النادرة، على حين أن الشج، الذي حدث لأنير في جبينه، كان قليل الخطورة، ومع ذلك تم التعامل معه بكل جدية:

- هل تعلم.. تيرينا كانت لا تنام من الليل إلا قليلاً؟! خافت أن تموت فجأة. لقد تناوبنا على حراستك ليل نهار، وكانت هي على يقين بأنك أمازيغي مثلنا.

هز رأسه علامة شكر وامتنان، ولكنه تساءل في نفسه عمّن يكون حتى يُشمل من قبل غرباء لا يعرفهم، ويُفترض أنهم أيضاً لا يعرفونه، بكل هذه العناية! سيسألهم حين يستطيع الكلام على نحو جيد، وحين يخفّ عنه الصداع الحاد، الذي يشبه دقّ أوتاد في رأسه.

في المساء، قُدمت له وجبة خفيفة.. فاكهة مدعوكة مع بعض العسل. وجد في نفسه الشهية، وانفرجت أسارير الفتاة والدها؛ بسبب ما يبدو من تحسن في صحة أنير:

- «هل تشعر بتحسّن؟» سأله بيكاو.

أجاب أنير بصوت ضعيف:

- نعم.

- لن أزعجك.. سأترك إلى جوارك تيرينا.. إذا احتجت إلى شيء فستكون خير مساعِدَة لك.

نظر أنير إلى تيرينا. بدت له بريئة وجميلة، وشم فيها أريج كستناء مشوي، ووجدها تشبه فتاة اسمها زهرة الجمر، ولكنه لا يعرف من تكون هذه الفتاة التي تدعى «زهرة الجمر». تأمل تيرينا طويلاً، وانبهر بألقها وسِحْرها الفاتن. نظرت تيرينا بدورها إليه، وتساءلت بحيرة عن هذا الأمازيغي الوسيم الذي رمته الأقدار على هذا النحو المُزْري إلى باب منزلهم. وفجأة صاح أنير:

- من أنا؟. أقصد: من أكون؟ ومن أين أتيت؟ وفي أي مكان أنا الآن؟

ابتسمت تيرينا، وأدركت أن الشاب لا يزال في حالة نفسية مضطربة، وأنه يحتاج إلى وقت إضافي ليسترجع كل قواه الذهنية، وقد بدا لها ذلك أمراً عادياً للغاية:

- أنت في منزل آمن، ربما يكون هذا المنزل أكثر منزل تستطيع أن تشعر فيه بالأمان التام.

- ما اسم هذا المكان؟

- نحن نسكن وحدنا في هذا الخلاء.. هو خلاء بلا اسم، ولكننا لسنا بعيدين كثيراً عن مدينة أرتو. هل تعرف مدينة أرتو؟

- أنا لا أعرف شيئاً!

- اسمي تيرينا.. ما اسمك؟

- اسمي؟! أنا لا أعرف اسمي.. أريد أن أنام.. أنا مرهق.

- حسناً! ولكن ينبغي ألا تنام على قفّاك.. ثمة جرح غائر خلف رأسك، يحتاج إلى أيام لكي يلتئم، ويجب أن تتفادى النوم على جبينك لكي لا تؤذي الجرح الآخر الطفيف.

تلمّس أنير رأسه برفق؛ فاكتشف عصابة تلف رأسه، وفهم حينذاك كلام تيرينا.. تمدّد على جنبه الأيمن، وقامت تيرينا بإسناده من كل جانب بالوسائد. من الفور، كان قد غرق في نوم عميق، تخلّته الكثير من الكوابيس المزعجة. استيقظ في الصباح الباكر. وجد مثانته مليئة بالبول، ولم يستطع صبراً. رأى تيرينا تجلس قبالة، وقد شحب وجهها.. لعلها تكون قد سهرت الليل كلّه، دون أن يغمض لها جفن:

- أريد.. أريد.. أن...

أجابت تيرينا بقلق:

- ماذا تريد؟

- أرجوك.. أكاد أن أفعلها في...

- يمكن أن أساعدك إذا شئت.. هل تستطيع الوقوف؟

- سأحاول...

نهض بصعوبة. كان جسمه يرتجف، وبدا مهددًا بالسقوط في كل لحظة.. حينذاك اضطرت تيرينا إلى مساعدته على دخول الحمام، الذي لم يكن يبعد إلا بضعة أمتار في فناء المنزل، غير أن أنير كان قد أطلق، قبل ذلك، بوله. أدركت تيرينا أن الوقت قد فات على كل شيء. قادتته برفق إلى الحمام، وأجلسته على كرسي خشبي من صنع والدها السيد بيكاو، ثم طلبت منه أن يزيل ثوبه الملوث بالبول. فعل أنير ما طلبته منه تيرينا، وشعر بقشعريرة، وانكمش على نفسه، كقنفذ متوجس، في الحمام البارد، ونفذت إلى عظامه أولى موجات برد الخريف القاسي. انهمكت تيرينا في تسخين قدر كبير من الماء. وحين عادت إلى أنير، وجدت ذقنه يرتجف. غمرته ببعض الماء الساخن مُحاذرةً ألا تبلل رأسه الجريح. نظفت جسده بصابون تراي؛ جسده الوسخ الذي كان يحتاج إلى نظافة شاملة. مررت يدها على كل جهة من جسده، وغمرته بالماء الدافئ. وخلال ذلك بدأت تستيقظ فيها الرغبة الأنثوية الطبيعية، التي كانت قد قررت- في السنوات السابقة- أن تلغيها من أحاسيسها؛ بحيث انتقلت للعيش مع والدها في هذا الخلاء الموحش في محاولةٍ للتخلص من نزعتها الأنثوية إلى الأبد، متبعة فلسفة والدها الغريبة؛ فلسفة لم يفرضها على ابنته، ولكنها آمنت بها، وأخلصت لها حتى هذه اللحظة، التي ترى نفسها تغسل جسد رجل غريب، أصيبت بإحباط عميق، وحينذاك أدركت الانقلاب الخطير الذي قد يشكله هذا الشاب في حياتها. توجست، وشعرت بخوف، ولكنها أكملت مهمتها، وخرج أنير من الحمام بروح جديدة، وبحيوية وطاقة جديدتين أيضًا.

شوق مغتال

- «أبي.. لن أحرس الشاب هذه الليلة!» قالت تيرينا وهي مرتبكة جداً، وهو الأمر الذي لاحظته والدها أيضاً، فتساءل بجزع:

- لماذا.. هل بدّر منه ما يُسيء؟!!

- لقد نظّفت جسمه، وكان عارياً تماماً، فاستيقظت في نفسي غرائز الأنثى، التي كنت أتصور أنني تخلصت منها نهائياً. ثم إنني قد أغرّم به.

صمت والدها قليلاً قبل أن يرُدِّف قائلاً:

- تيرينا، أنت لست مجبرة على اتباع فلسفتي.. هذه الفلسفة اخترتها بمحض إرادتي، وبعدها جرّبت الكثير من الأشياء في الحياة.

- أعلم ذلك يا والدي، و...

لم تستطع إضافة شيء، لكنّ والدها قال:

- ألا ترين أنها فرصة لاختبار قدرتك الحقيقية.. ربما كان ما فعلته مجرد حماسة ظرفية!

- ماذا تقصد؟

- منذ زمن لم تتح لك إمكانية التعرف إلى جسم شاب يتفجّر رجولةً!. جرّبي.. قد يكون اختيارك الأول خاطئاً، أو قد تصمدين ويكون الاختيار صادقاً ونابغاً عن قناعة.

صمتت تيرينا، وغرقت في ذهول عميق.. أي سر عجيب يحمله

هذا الأمازيغي الوسيم؟! وكيف استطاع أن يخرج غرائزها إلى
السطح بعدما كانت قد دفنتها في الأعماق البعيدة من جسدها
اليانع، حين كانت في مدينة أرتو؟! أي قوة غيبية يحملها في روحه
هذا الشاب الغريب؟!!

لاحظ بيكاو استغراق تيرينا في وجوم طويل؛ فسألها عن صحة
الضيف، وأجابت بحماسة:

- استيقظ في حال صعب، ولكنه حين أخذ حمامًا دافئًا أصبح
أكثر حيوية، وطفح وجهه بعافية كانت غائبة تمامًا عنه في الثلاثة
أيام الأخيرة.

- حسنًا! هذا جيد... ينبغي أن نقدم له وجبة الفطور لنرى
مدى قدرته على الكلام.

- تحدثت إليه ليلة البارحة وهذا الصباح.. يبدو أنه يعاني بعض
الاضطراب.

جلست تيرينا، خلال وجبة الفطور، بجانب أنير، على حين جلس
أبوها بيكاو أمامه، وبينهم صحون من العسل وجبن الماعز والخبز
والحليب الساخن. أراد بيكاو أن يجعل من وجبة الفطور مناسبة لخلق
طقس أسري حميمي، لا يشعر فيه الضيف بأي حاجز نفسي:

- «أراك اليوم في أفضل حال» قال بيكاو؛ فرد أنير من الفور:

- هذا بفضل.. ف.. فينو.. فينوس...

- اسمها تيرينا.

- نعم.. ربما تكون أخبرتني، ولكنني نسيت!

بدأت شهية أنير مفتوحة، ولكن أسئلة غريبة كانت تدور في رأسه.. من يكون؟. ومن جاء به إلى هنا؟. ولماذا يُخصَّصه هؤلاء بكل هذه العناية؟! ولذلك لم يرتشف من الحليب إلا رشفة واحدة من وعاء الفخار الذي وضعته تيرينا بين شفتيه:

- هل لي أن أسألك شيئاً يا سيدي؟

ردَّ بيكاو بهدوء طافح بحكمة رجل حنَّكته تجارب الحياة:

- نعم.. تفضل.

صمت أنير.. لم يجد الطريقة المثلى لطرح سؤال سيبدو- ولا شك- غيباً أو مجنوناً. وبعد تفكير قصير قال:

- لماذا أنا هنا؟

صمت بيكاو قليلاً. بدأ الموقف صعباً، ويثير الكثير من التوتر:

- لا نعرف أيها الضيف.. لا نعرف.. وجدناك عند باب منزلنا، وكنت مصاباً بجرح عميق في مؤخرة رأسك، وكان هذا الجرح سيؤدي بحياتك لو لم تصل إلينا في الوقت المناسب.

- هل هذا كل ما تعرفونه عني؟

- نعم، ولكن ماذا تعرف أنت عن نفسك؟

حاول أنير أن يحفز ذاكرته وينشطها، ولكنه لم يستطع التوصل إلى شيء ذي بال.. حاول الرجوع إلى ماضيه، ولكنه لم يتوصل- في النهاية- إلا إلى وجع فظيع يطرق رأسه.

- لا شيء يا سيدي.. لا شيء.. لا شيء.. فقط أذكر أنني عانيتُ في
طريقي إلى هنا.

اعتدل السيد بيكاو في جلسته، وسأل سؤالاً بداله ربّما كان
حاسماً:

- هل تتذكر شيئاً عن الجرح العميق في مؤخرة رأسك؟

- لا.. لا يا سيدي.

- ربّما تكون قد تعرضت إلى اعتداء من قبل قُطاع طرق..
الضربة جاءتك من الخلف، ومن البديهي ألا ترى أحداً، ومن
البديهي أن تنسى أشياء كثيرة، أو كل شيء، ولكنني أراهن على أنك
ستستعيد ذاكرتك قريباً.

ردد أنير بوهن وبعفوية شديدة:

- ربّما يا سيدي.. ربّما.. ولكن مَن سأستعيد ذاكرتي؟. أقصد..
مَن أخذها مِنّي؟!

أراد بيكاو أن يقول شيئاً، ففتح فمه، لكنه لم يجد كلاماً مناسباً،
وفي الأخير غادر وترك ابنته تيرينا وحيدة مع أنير، الذي لم يأكل
شيئاً، باستثناء رشفة من الحليب. ورأت تيرينا أنّ من واجبها أن
تساعده على الأكل؛ لكي يستعيد حيويته وصحته سريعاً. غمرت
إصبعها في العسل، ووضعتَه في فمه. امتصه بنهم، وكان يمتصّ من
خلال إصبع تيرينا العسل، وروح تيرينا البريئة المفعمة بالأنوثة
والرغبة الجامحة؛ تلك الروح التي كانت تنتقل من إصبع تيرينا

لتسري في أوصال أنير ناشرةً رغبة خفيةً لم يستطع تحديد ماهيتها. واستمرت العملية على هذا النحو. في الأخير، وجد أنير نفسه قد شبع، ولكنه احتفظ بإصبع تيرينا في فمه، وأخذ يداعبه بلسانه وشفتيه بغفوية تامة. ونشرت هذه اللعبة، التي تحمل في طياتها تواطؤاً بريئاً بين الاثنين، داخل تيرينا نشوة عارمة.

خارج المنزل المبني بالطين الأحمر، هبت ريح خفيفة محملة برائحة خريف بارد، وأطلقت بعض الطيور شداً بدا وكأنه بكاء كئيب، لكن الدفء داخل البيت الذي كانت فيه تيرينا وأنير، غمر الأجواء بمسحة كثيفة من العواطف، غمرت الاثنين كضباب صيفي يشبه بخار بحيرة حارة.

استرجع أنير، بعد حوالي أسبوع، بعضاً من عافيته، وصار بمقدوره الذهاب إلى الحمام دون مساعدة أحد، بل إنه استطاع التجول في الحديقة بمفرده، ولكنه ظل شاردًا طوال الوقت. واستمر بيكاو في العمل؛ يحرث أرضه، ويعتني بمزروعاته وأشجاره القليلة، على حين كانت تيرينا تكتفي بإعداد الأكل، وطحن القمح، والعناية بالدواجن والقطيع الصغير المكوّن من الماعز والأغنام.

نجوم

وقف أنير بجوار سُور الحديقة الصغيرة يتأمل أشجارها المتنوعة، والطيور البعيدة المهاجرة. استشعر ضيقاً يستبدّ به.. لا يفهم ما يختلج في صدره تجاه تيرينا، ولا يدري شيئاً عن ماضيه!.

إنه مجرد شخص يعيش ميتاً، ويمارس أنشطته الجسدية والذهنية في شبه حالة موت يَقْظ.

تقدمت نحوه تيرينا، وحدّقت فيه ملياً. بدا لها أبهى في لباسه الجديد، الذي خاطته له بيديها البديعتين ليلائم جسمه المتناسق. أعجبت به، واستيقظت داخلها تلك الأنثى المتحفزة، التي كانت قد نسيتها منذ زمن. نظر إليها بدوره، وكان- في تلك اللحظة- يبحث عن أجوبة لأسئلة حائرة في ذهنه.. من أين أتى؟ وإلى أين كان يتوجه؟! سأل تيرينا، ولكنها لم تستطع إلا أن تخبره بأنها وجدته قرب الباب، وبأنه انهار تماماً حين التقيا بالدهشة والخوف.

- أريد المغادرة إلى مدينة.. مدينة... ما اسمها؟

- تقصد أرتو...؟

- نعم أرتو... هل هي بعيدة؟

- مسيرة شهر ونصف أو شهرين بالتقريب.. ولكن لماذا تريد مُفَارَقَتَنَا؟

- لست أدري.. أشعر بأن شخصاً ما في مكان ما ينتظرني! وحين سمعت اسم هذه المدينة لم أجد هذا الاسم غريباً.

- هل تكون من سكان أرتو؟. لا أتصور ذلك؛ فأنت لست رومانيا!

-... نعم، نعم.. أنا لست رومانيا..

- لقد هجرنا، أنا وأبي، أرتو منذ ثماني سنوات، وكان عمري

حينئذٍ أربع عَشْرَةَ سنة، ولا أذكر أنني رأيتك في المدينة، والمدينة ليست كبيرة جداً؛ فقد تتذكر ملامح أي أمازيغي وسيم ومتميز، إذا التقيته صدفة... ولو لمرة واحدة..

- لست أدري تيرينا.. لست أدري!

شعّ وجه تيرينا بهجة مفاجئة، وترقرقت في عينيها دموع محشمة، وقالت بفرحة طفلة صغيرة؛ فرحة مفعمة بحب آتٍ من أعماقها البعيدة:

- لقد قلتها أخيراً.. لقد قلتها!

استغرب حينئذٍ، وأجاب:

- ماذا قلت؟

- لقد نطقتَ اسمي.. لقد ردّدتَ اسمي!.

أقبل بيكاو نحوهما من بعيد. كان رجلاً في ذروة كهولته، ولكنه يحتفظ في جسمه القوي بنفحة شباب ظلت على الدوام مصاحبة سنوات عمره الجادة. قالت تيرينا مخاطبة والدها، وكأنها تحتج:

- إنه يرغب في مغادرتنا قريباً جداً إلى أرتو!. ألا ترى أن جسمه لم يُشَفَ تماماً من الجرح، وأن جسمه لا يزال مُجهّداً للغاية؟!

- هل حقاً تريد الرحيل أيها الضيف؟

- لو سمحت لي يا سيدي.

- لا أنصحك بذلك قبل شهر ونصف من الآن على الأقل.

الطريق نحو أرتو طويلة جداً، وأنت لا تزال تحتاج إلى صحتك الكاملة لخوض غمار سفر شاق كهذا.

- كما ترى يا سيدي.. يمكنني أن أنتظر.

- ولكن لماذا تريد الرحيل إلى أرتو؟

- لست أدري!. أشعر وكأن شخصاً ما ينتظرنى في مكان ما،
و حين تحدثتم عن مدينة أرتو، وجدت هذا الاسم قريباً من نفسي.

في اليوم التالي، استيقظ فزعاً من النوم.. لقد رأى في حلمه الإلهة
فينوس، بألقها وجمالها الباهر، تناديه نداءً عذّباً. نهض ببطء من فراشه،
وتلفّع بغطاء نومه، وخرج إلى الحديقة. كانت الليلة ظلماء، والنجوم
مبهرة، وهي تملأ فراغات سواد السماء. أخذ يتأمل النجوم. أحسّت
تيرينا بخروجه. خافت أن يغادر إلى الأبد؛ فقامت بسرعة من مرقدها،
وارتدت ألبستها على عجل، ثم خرجت. وجدته جالساً بوقار فوق
سور الحديقة، وعيناه مشدودتان إلى السماء.

- هل استعصى عليك النوم؟!

لم يُفاجأ أنير بوجود تيرينا، وكان عنصر المفاجأة لم يعد موجوداً في
تركيبة تكوينه النفسي.

- لا، خرجت فقط لأتأمل النجوم.. هل تعلمين؟. النجوم ما
هي إلا انعكاس للفتيات الجميلات جداً في الأرض.

نظرت تيرينا دون وعي إلى النجوم، ثم إلى أنير. أدهشها كلامه
الذي بدا لها رائعاً:

- مَنْ قال لك هذا الكلام؟

- لست أدري.. لست أدري... لعله بقايا كلام ظل عالقًا في ذهني!

- وهل تحب الفتيات الجميلات؟

- قد أحبّ واحدة، وقد تكون صورتها الآن منعكسة على هيئة نجمة في السماء.

- هل تراني من بين تلك النجوم المعلقة في السماء؟

- ربما.. إنها نجوم لا حصر لها... ولا يمكنني تحديد نجمتك

من بين كل ذلك العدد الكبير من النجمات.

شعرت تيرينا بخيبة أمل.. وجدت في إجابته العفوية شيئًا من إحباط لم تقبله أنوثتها البريئة، غير أنها- في النهاية- أدركت أنه في الطريق نحو استعادة ماضيه، وأنها ربما تكون في الطريق أيضًا إلى استعادة غرائزها، وإعادة الرغبة إلى جسدها، لكنها شعرت بإحباط، وأدركت أن هذا الضيف سيغادر بعد زمن قليل، وأدركت كذلك أنه سيضع مصيرها في مأزق حقيقي.

- هل أنتِ من هذا المكان؟

- سألها دون أن ينتبه إلى أنها أخبرته قبْلُ بأنها غادرت مدينة أرتو

رفقة والدها قبل ثماني سنوات. أجابته ضاحكة:

- أنا من البحر!. أقصد... وُلِدْتُ في البحر.

رد بعفوية شديدة:

- جميل أنك ولدت في البحر.. تماما مثل الإلهة سانيس.

- ليست هناك إلهة بهذا الاسم!. ربما تقصد الإلهة فينوس.

- الإلهة سانيس موجودة أيضًا، وأعتقد أنها عرضت لي يوما في

حلم ما.

اعتقدت تيرينا أن أنير يتحدث بمنطق الشخص الواقع تحت

تأثير صدمة قوية.

- ولكن كيف ولدت في البحر؟. لا أستطيع تصور كيف يمكن

أن يحدث ذلك!

ضحكت تيرينا من جديد بنبرة فاتنة، وأجابت:

- كان والدي نائبًا لقيّم مكتبة مجلس المدينة في أرتو، وكان في

حوالي الأربعين من عمره حينذاك. حبلت أمي سينسيا، وأجهضت

عدة مرات؛ لأسباب مجهولة! ولما حملت بي، استشارت الحكماء

والعرّافين، فنصحوها بأن تمكث في قارب وسط البحر من بزوغ

الشمس إلى غروبها طوال فترة الحمل. وهكذا استعار والدي مركبًا

من أحد العبّارين، وقضى كل وقته مرافقًا والدي في البحر، وكانت

تحمل تيممة عبارة عن محارة نادرة مصنوعة من الذهب. وفي الشهر

الأخير من الحمل، ركب أبي وأمي القارب، وأبحرا به من جديد

كما العادة. وبعد مُضيّ وقت مَرِحٍ قَصِيّاه في صيد السمك، قرّرا

في المساء العودة إلى الشاطئ، ولكن المخاض باغت والدي قبل

الغروب بقليل، وحاول والدي الوصول إلى البرّ بسرعة، ولكن

اعترضتِ القاربِ عاصفة مفاجئة جعلت الإبحار باتجاه الشاطئ شبه مستحيل. اهتم والدي بتوليد والدي بنفسه، وتمت العملية على أحسن ما يرام. ووضعني والدي على صدر أمي، ورضعتُ من ثديها قليلاً، ونظرت إلى أمي نظرة باسمة تفيض بالفرح والحب، وهمست لوالدي بصوت خافت:

- هذه التيممة.. علقها على عنق تيرينا، ولا تجعلها تضيع منها أبدا.

قالت تيرينا ذلك، وأظهرت التيممة لأنير، ثم أضافت مكملة القصة:

- رأنتني أمي قبل أن تموت، على حين لم أرها أنا قط! وعاد أبي بأمي جثة هامدة، وموجة حمراء دموية تتبع المركب، وبعض النوارس الكثيية تحوم حولنا، والغروب يرسل نوراً أحمر فاتراً لطح وجهي الصغير، ووجه أبي الباكي بلطخات شاحبة. ودَفَنَ والدي- في الأخير- والدي سينسيا وسط البحر بطقوس معروفة في مدينة أرتو؛ طقوس دفن خاصة بمن يموت أو يغرق في البحر. وعاد بي والدي إلى أرتو رضية.. هكذا وصف لي أبي المشهد حين كبرت.

تيرينا عارية

لم يتخلص أنير تماماً من ذهوله، ومن فقدان شيء من ذاكرته.. أصبح يقضي معظم وقته يتحدث إلى السيد بيكاو حول المزرعة

الصغيرة، أو يتحدث إلى تيرينا بنوع من اللوعة التي ظلت تشويه من الداخل دون أن يعرف سبباً لها. ذات مرة رأى تيرينا تتوجه نحو النهر الصغير، الذي يمر على مقربة من منزل بيكاو، فقرر أن يتبعها. فجأة غيَّبها عنه للحظة تل صغير، وحين تجاوزه، رأى تيرينا تتخلص من ملابسها ببطء تحت شمس دافئة كانت ترشها بأشعة بهيجة، ورأى من بعيد جسدها النحاسي الذي يشبه الشفق المتوهج، ورأى رديها وهي تنحني، فشعر بلذة غريبة.. اقترب منها مأخوذاً بالسحر الذي شعر به يدخل روحه، ويدغدغ حواسه كلها.. حرقه منظر أردادها المدورة. انتهت تيرينا لوجوده، ولكنها لم تفرع.. ظلت محافظة على هدوئها. تلمست بقدميها ماء النهر الصغير في محاولة لاستكشاف حرارته. وقف أنير مبهوراً أمامها، وشعرت تيرينا بالانفعال الغريب الذي يلف أنير يتسرب إلى روحها، ولم تفهم دواعي ذلك الانفعال الذي وجدت أنه غير مبرر. التفتت إليه، وابتسمت له ابتسامة حانية أشعلت في نفس أنير كل الغرائز الميتة. نظر إليها دهشاً لذلك الإحساس الذي يغمره كلما وقعت عيناه على جزء من أجزاء جسدها المثير. وقف أمامها ببراءة طفل، لم يكن يفصله عنها سوى مسافة ذراع واحدة. لمسها، فسرت من الفور في جسده رعشة هزته هزا لطيفا كموجة برد خاطفة، وتنفست تيرينا عميقاً وهي مغمضة العينين. جثا أنير على ركبتيه، وأخذ، عن قرب، يتأمل جسدها الباهر الذي لم يرمثه قط من قبل. لقد رأى في جسد تيرينا إجازا وتفاحا وعبنا، وشعر بلذة في حواسه وغرائزه من غير أن يضطر إلى أكل تلك الثمار، لكنه وجد أن

تلك الثمار تسبب له عذابًا وصداعًا حادًا في رأسه، ورعشة غريبة في جسمه كله. غير أنه حين شعر بذلك الصداع يجتاحه كهيجان موج هادر، وشعر بأن أشياء غير عادية تحدث داخله، ارتاع ونهض. نظر قليلاً إلى تيرينا التي كانت أنفاسها تتدافع كموج صاخب، ثم غادر بخطوات محبطة.. لقد شعر أنه عاش حلمًا جميلاً، واستيقظ من ذلك الحلم قبل أن يصل إلى ذُرْوَتِهِ.

صدمة بيكاو

استعاد أنير، بعد أقل من شهر، بعضاً من عافيته، بل استطاع العودة، بشيء من ذاكرته، إلى لحظة مغادرته المنزل، وتعرضه إلى الاعتداء والسرقة في الغابة كذلك. واستمرت الصور مشوشة في ذهنه، وغير واضحة تماماً. سرّ بيكاو لهذا التحول الإيجابي في صحة أنير وذاكرته، وشق عليه فراق الشاب الذي وجدته لطيفاً، فأحبه حباً حقيقياً أيضاً، مع بعض الشك الغامض الذي ظل يخامرهم نحوه.

- سأغادر الآن.. أشكركم على كل شيء.. ربما زرتكم يوماً.

ردّت تيرينا على نحو مفاجئ:

- سأرافقك.

صدم بيكاو.. لم يصدّق ما يسمع، ولكن ابتته بدت مُصرّة. لم يمانع أنير، بل رحّب بالفكرة؛ لأنه وجد في قلبه حساً غامضاً،

ولكن عذبا، نحو تيرينا، وأشفق على بيكاو للعزلة التي سيجد نفسه فيها بعدئذٍ.

توجه بيكاو نحو دوالي العنب، وأخذ يشذب أغصانها شارد الذهن.. لم يتحمل الموقف. نزلت دموعه بهدوء من عينيه المتهدلتين، وطارت في المدى البعيد طيور سوداء وتشتتت إلى أن اختفت نهائياً.. لقد أحس بأنه أصبح عجوزاً في لحظة واحدة، وفكر بأن هذا الزائر حمل إليهما الشؤم، ولكنه سرعان ما طرد هذا الخاطر الخبيث من ذهنه. «منذ زمن لم تتح لك إمكانية التعرف إلى جسم شاب يتفجر بالرغبة والرجولة! جرّبي.. قد يكون اختيارك الأول خاطئاً، أو قد تصمدين ويكون الاختيار صادقاً ونابعاً من قناعة لا تترحزح».. «أنا من أدخل الفكرة إلى رأس تيرينا، وعليّ أن أتحمّل مسؤوليتي بكل شجاعة».. هكذا فكر بيكاو، ثم قال مخاطباً ابنته:

- هل أنت متأكدة من صواب هذا الاختيار؟

- أرغب في اختبار غرائز الأنثى داخلي.. لا تزال إلى الآن خامدة، وإن كانت قد استُفزت قليلاً، وسأرى إلى أي حدّ أنا مستعدة لكي أهب أهم غريزة في الإنسان إلى فلسفة يبدو أنني اقتنعت بها تماماً في وقت من الأوقات، ولكنها تتعرض الآن لامتحان حقيقي.

لم يفهم أنير الموقف المرتبك الذي فرض نفسه وقت الرحيل، ولكنه أدرك أيضاً أنه لا يفهم أشياء كثيرة في الحياة. انهمكت تيرينا في إعداد نفسها للسفر إلى أرتو.. هناك ستبدأ حياة جديدة، وهناك ستكتشف حقيقة نفسها، بل - أكثر من ذلك - ستكتشف حقيقة

هذا الضيف الذي دَخَلَ قلبَهَا على نحو مباغت. وكما توقعت، فقد بدأ يتشكل هذا التحول داخلها منذ تلك اللحظة.

سحب بيكاو أنير جانبًا، ثم أخذ يحدثه عن مدينة أرتو:

- هي مدينة جميلة ومسالمة أيضًا، وشعبها طيب، لكن حكامها ليسوا كذلك؛ فهم يعاملون الأمازيغ معاملة سيئة للغاية.. كنت أشتغل في مجلس المدينة نائبًا لقيّم المكتبة، وكنت أقرأ كثيرًا تلك الكتب المحرمة على العامة، وكنت أطلع على أشياء ما كان ينبغي لي أن أطلع عليها. تزوجت فتاة من شعبنا الأمازيغي.. فتاة جميلة وطيبة، أخذت تيرينا من ملامحها وروحها أشياء كثيرة، وكنا نحاول إنجاب طفل، ولكن باءت كل المحاولات بالفشل إلى أن رُزقنا بتيرينا وسط البحر. وقد أخبرتني تيرينا بأنها روت لك القصة. ثم بعد ذلك اتخذت زوجة رومانية، تبين لي فيما بعد أنها شريرة.. حوّلت حياتي إلى جحيم! وإنني أتساءل اليوم: هل كانت تلك الزوجة لعنة من الآلهة؛ بسبب قراءتي تلك الكتب الممنوعة على العامة؟! والآن تقودك الأقدار إلى منزلي، وتسلب مني ابنتي الوحيدة التي خفت عليها في أرتو من لعنة ما، ولكنك تعيدها- بطريقة غريبة- إلى تلك المدينة، التي هربتها منها، بعدما اخترعت لها رواية مزيفة حول فلسفتي وهجري المتع الغريزية الفانية، التي تحوّل الكائن البشري إلى مجرد آلة لتفريخ الشر!. كنت قد أصبت باللعنة الأبديّة، ولا شك في أن ذلك بسبب غضب الآلهة؛ فحكام مدينة أرتو الرومانيون يستمدون شرعية حكمهم من بركة الآلهة،

وأنا خالفت أوامر حكام أرتو.. هل أنت مبعوث شرّ جئت لتُكمل انتقام الآلهة مني؟! إذا كنت كذلك فأرجوك... تيرينا لا ذنب لها، خذ قصاصك مني، واتركها وشأنها.

كان أنير يستمع باستغراب وشرود شديد. وحين توقف السيد بيكاو مترقبًا الردّ الرهيب، أجاب أنير بعفوية بريئة:

- لست أدري يا سيدي.. لست أدري؛ فأنا لا أعرف، بعد استعادتي ذاكرتي، إلا أنني غادرت دريو متوجّهًا إلى مدينة أرتو.. لا أعرف أكثر من هذا!

- لا تخبر تيرينا بشيء مما قلته لك! أتركها وقدرها.. هل تفهمني؟

هبّت ريح شمالية محملة برائحة بحر بعيد، وبنسائم خريفية باردة، وعبرت المجال الأفقي أسراب طيور مهاجرة حجبت قليلاً شمس الغروب الكبيرة. عانقت تيرينا والدها، والدموع تنزّ من عينيها، على حين تجلّد والدها المتوجس جدًّا، وقال هامسًا في أذنها، وهو يدس في يدها مالًا وفيرًا:

- كونا عونًا دائمًا واحدكم للآخر.

صافح أنير بيكاو بحرارة، وشكره على كل ما فعله لأجله، وقال، وهو يتعد بخطوات قليلة، كلمات خرجت من فمه من دون وعي، ومن دون أن يدرك معناها:

- الوداع أيها السيد بيكاو.. الوداع! قد نرى بعضنا مرة أخرى، وقد لا نرى بعضنا أبدًا.

ظل بيكاو متجمداً في مكانه كجذع شجرة يابسة. شيع بنظراته
المدهوشة طيف أنير وتيرينا، وهما يتعدان عنه. وجد نفسه- في
الأخير- يتبعهما بخطوات وئيدة كشبح مخيف لنفسه. وحين غَيَّبَ
غيش الغروب أنير وتيرينا، سقط بيكاو فجأة منكفئاً على وجهه في
حفرة.. فتوقفت أنفاسه، ومات من الفور!

ومن تلك الشجرة تُصنع مشنقة لموت بعض البائسين

ومنها يصنع صليب مروع للتعذيب.

وهي تمنح البوم الصباح ظله الفاضح ليستريح،

وتعير الصقور والنسور أغصانها لبناء الأعشاش

أفولاي ورائحة الموت

بدأت السماء فضيئة، كما لو أنها بدر لا نهاية له. انزوى ساريل، كعادته منذ بداية الرحلة، بعيداً نسبياً، وتكوّر حول نفسه مستغرقاً في نوم هادئ كجرو مُجهد، بالقرب من البغال وأكياس الملح المترصّة. وتمدد أسافو قريباً من السيد أفولاي المتكى على جذع شجرة قديمة، مستغرقاً في تأمل أيقونة ثفوشت بوله عجيب، وكأنه يؤدي صلاة مهيبة. لقد فكر في بلدة دريو، وقفزت إلى ذهنه صورة زهرة الجمر، وشعر بدفء الأيقونة يكاد يكوي كفه، وفكر في الشاب أنير وصديقه المعلم ماسين، الذي لا يعرف مصيره.. هل يكون قد فارق الحياة، أم كتبت له الآلهة عمراً جديداً؟.. واعتملت في نفسه مشاعر متضاربة، وهو يرى شمساً أخرى عميقة تشعّ من أيقونة ثفوشت.

كانت القافلة الصغيرة، المكونة من عشرة بغال وثلاثة رجال، تهجع في صمت مطبق، غابت فيه أصوات الطيور وحشرات الليل وهوائه. وكان الصوت الوحيد، الذي يصدح في المكان، هو صوت الصمت المدوّي؛ صمت جعل كل شيء يفرز صوتًا صامتًا وباردًا في سَمْع السيد أفولاي، الذي شمّ فجأة رائحة غريبة، ولكنها رائحة تعود شمّها في مناسبات قديمة... استنفر حواسّه، وشعر بتوجُّس لم يعرف مصدره. استمرت الرائحة تنتشر على نحو مثير لمخاوف الكهل، وفجأة أدرك أن هذه الرائحة ليست إلا رائحة لخطر قريب في أعماق شيء ما، ولم يكن من العسير على السيد أفولاي أن يعرف بأن مصدر الرائحة الغريبة هو سم قاتل يوجد في الجوار. تحركت عيون الكهل الوقادة، واشتعلت بوميض حادّ، ونظر إلى كل الاتجاهات، وسرّعان ما رأى خيطًا من ظلّ رقيق يخترق أعشابًا يابسة تتكسر برتابة، نائرة صوتا ميتا يكاد لا يُسمع. تابع السيد أفولاي الظل الرفيع الذي يسير ببطء، وفجأة استلّ سيفه، ووقف منحنيًا يرقب الظل الذي كان يتوجه بالتواء أفعواني نحو الشاب أسافو. بدأ السيد أفولاي يخطو بتمهل وحذر شديدين، محاولاً أن لا يُصدِر صوتًا يستنفر ذلك الشيء الذي يشبه خيطَ ظلّ رفيعًا. واصل مشيه، والسيفُ في يده، ونظره الثاقب يتبع خيط الظل، ثم سرعان ما زاد السيد أفولاي من وتيرة سرعة مشيه، ولكنه حافظ على هدوء بالغ.

كان تقدير السيد أفولاي دقيقًا جدًا.. فقد وصل في الوقت

المناسب:

- «لا يجب أن تعيش بعد اليوم أيها الغادر؟».. قال ذلك بعدما ضرب، بسيفه الحاد، ضربة مباغثة وحاسمة وقعت قريباً جداً من عنق أسافو، وظل السيف مغروساً في الأرض يلمع حده تحت نور البدر الباهر.

استيقظ أسافو مذعوراً من النوم، وكان أول شيء فعله - لا إرادياً - هو أنه أخرج السيف، وحاول أن يطعن السيد أفولاي في بطنه دون أن يعرف هوية الشخص المغروس سيّفه بمحاذاة عنقه، غير أن السيد أفولاي كان أسرع؛ بحيث أزاح بخفّة سيف أسافو، ورماه بمناوَرَة ماهرة بسيفه بعيداً:

- «يُجْدُرُ بك أن تكون أكثر فطنة أيها الصبي».. قال السيد أفولاي بلا مبالاة، وهو ينظر بعيداً جداً؛ حيث المدى الذي لا تحدّه العين، وضوء البدر الباهر الذي يثر ذرات فضية على كل شيء. ٤.

همهم أسافو بنبرة غير مصدّقة:

- أتريد قتلي يا سيدي!

- لست أنا، أيها الغبي، مَنْ أراد قتلك؟

رد أسافو بغير إدراك كامل لما يقول:

- أتقصد سيفك يا سيدي؟!

- ولا سيفي أيها المغفل!

تساءل أسافو بحيرة:

- من إذا؟!!!

قال السيد أفولاي محتفظًا بلا مبالاته الغريبة:

- ذلك المتمدّد بجَنْبِكَ.

- تقصد ساريل؟

- إنه من الجبن بحيث لا يستطيع حتى التفكير في ذلك!

احترار أسافو:

- لا أفهم شيئًا يا سيدي!. أرى فقط سيفك قرب عنقي.

رفع السيد أفولاي، بسيفه، الثعبان مقطوع الرأس بجانب أسافو، ووضعته أمام ناظرَيْه:

- أقصد هذا أيها المغفل.. عليك أن تتعلم دائمًا كيف تشمّ وتسمع وترى الموت، وكل خطرٍ محقق بك، وأنت مستغرق في النوم!

نظر أسافو بهلع إلى الثعبان الفتاك المبرقع بدوائر تشبه قطعاً نقدية فضية قديمة؛ الثعبان الذي يتدلّى ملولبًا من سيف السيد أفولاي، فوجف قلبه من المشهد المروع، ورأى دما قليلًا يرشح من الثعبان مقطوع الرأس.

- لقد كان على بُعد شبر واحد من عنقك.. تصوّر لو أنه تمكن منك.. كنت مُتّ من الفور!

قال أسافو بصوت مرتجّ:

- أعرف هذه النوعية السامة من الثعابين.. سمُّها ينتشر فجأة في الجسد.. حينها لا يتوفر أي وقت لإنقاذ الضحية!

قال السيد أفولاي متهمكماً:

- حتى لو قطعتُ رأسك... وهو ما كنت سأفعله لو لدغك الثعبان.

أخرج أسافو زفرة عميقة، وقال بصوت مهزوم:

- كانت زهرة الجمر مُحِقَّة حينما حذرنا من ثعبان قد ينبري لنا في أي وقت.

- لا تكن مغفلاً أكثر يا أسافو!. زهرة الجمر أذكى من أن تحذرنا من ثعبان خجول كهذا.. لقد كانت تقصد شيئاً آخر...

توجه السيد أفولاي من جديد إلى الشجرة، وضع السيف بجنبه، ثم أخرج أيقونة نفوشت، وأخذ يتأملها بعينين عميقتين.. رأى زهرة الجمر تَذوِي كزهرة نرجس قرب نهر صغير رقراق، ورأى أنير ملقى على الأرض والنحل يلسعه، ورأى المعلم ماسين يُدفن في قبر وهو واقف، ورأسه مرفوع بشموخ إلى السماء. شعر بحنين جارف إلى كل شيء في بلدة دريو، وتساءل إن كان بمقدوره أن يوصل الأيقونة والخاتم إلى أنير، وراعه احتمال ضياع أنير في سفر انفرادي مخيف. ظل فكر الكهل تائهاً، وهو يتأمل الأيقونة التي كانت تنشر داخله دفئاً غريباً:

- نَم يا أسافو.. لن يهاجمك ثعبان آخر! صدفة مثل هذه لن تتكرر مرة أخرى.

- نم أنت يا سيدي أفولاي.. فأنت لم تذق طعم النوم طَوَّالَ الليل فيما يبدو!

- لا تقلقُ أيها الشاب المخلص!. لقد نمت ما يكفي على صهوة البغل مساء هذا اليوم.

لم يستطع أسافو النوم! ولم يكن سبب ذلك خوفه من ثعبان ما قد يهاجمه، ولكنه شعر بامتنان نحو السيد أفولاي الذي أنقذ حياته، ولم يشأ أن يتركه يحرس القافلة وحيدا؛ فقرّر أن يبقى مستيقظا حتى الصباح. تمدد من جديد على الأرض، وجعل نفسه يبدو كمن استغرق في نوم عميق، لكنه سمع صوت السيد أفولاي يخاطبه بوَدّ:

- لا تخدع نفسك بنوم مزيف سيرهقك أكثر مما سيرُيحك!

لم يقل أسافو شيئا، ولكنه لم يستطع إغماض جفنيه. وظل يراقب السيد أفولاي، الذي واصل تأمل الأيقونة حتى بدا- في الأخير- وكأنه انفصل عن العالم المحيط به، وولج عوالم لا تمت إلى الواقع بصلة؛ فقد رأى في شبه منام إلهة الشمس تلقي زغبة من شعرها المتوهج لأنير، وكان النور يملأ قلب الشاب الأمازيغي بالحب والطموح. وبعد وقت طويل، بدأ رأس الكهل يتدلى، قبل أن تخطفه غفوة غاب خلالها الشاب أسافو بدوره في نوم داهمه على حين غرّة. لكنه سرعان ما استيقظ على صوت السيد أفولاي، الذي كان يلكره بعقب سيفه:

- انهض يا أسافو.. يجب أن نغادر قبل أن تدركننا شمس الضحى الحارقة.

نظر أسافو حوله؛ فرأى غسقا أحمَرَ يُلطخ وجه السماء، والمحيط
الذي تلبس حلة برتقالية متوهجة، وشمَّ رائحة الندى والأعشاب
اليابسة. وطغت رائحة الملح حتى حُيِّل إليه أنه في مصفاة ملح
في بلدة دريو. بعد قليل، كانت البغال قد حملت بأكياس الملح،
وسارت القافلة يتقدمها ساريل الذي لم يتوقف عن التثاؤب ككلب
ظمآن.

بودي أن تهبّ الريح مؤاتية؛
لذلك يا مَنْ أرغمتني على أن أحبك بلا رغبة،
سأحبك بلهفة.

جبل الأمازيغ

مات النائب سيساو؛ والد السيد ماريوس، إثر هزيان الشيخوخة المتواصل الذي جعله يردد لبضعة أيام العبارة نفسها، وهو يلوح بالغمد بعدما جردوه من السيف مخافة إلحاق الضرر بمن حوله:

_ سأموت.. ولكن سيوفي لن يموت.. سيثقب القبر ويخرج ليحكم أصقاع الأرض كلها.

أصبح السيد ماريوس، الذي أُعْلِنَ سابقاً بطلاً قومياً لمدينة أرتو، عقب الانتصار الباهر الذي تحقق في معركة الذئاب، يمتلك صلاحيات واسعة؛ فهو الآن النائب الأول للحاكم أورليوس سيبو خلفاً لوالده سيساو، وقائدُ عامٍ للجيش الذي شكَّله بسرعة، وجَهَّزه بعتاد حربي حديث، بعدما استقدم مدربين مَهْرَةَ من

الرومان لتأهيل مدربين لجيش المدينة، وقَسَّم الجيش إلى عدة سرايا، ووزعها على الأبواب الأربعة. كما ضاعف من عدد حراس المدينة لكي يضمن استتباب الأمن، ولكي يردع المجرمين الذين غالبًا ما يتكرس الاعتقاد الخاطيء بأنهم ليسوا سوى الأمازيغ، الذين ينهبون أحيانًا في الليل حوانيت صائغي الذهب أو بائعي التحف، ومخازن مواد التموين الغذائي، وكل شيء ثمين تقع عليه أيديهم، بينما الحقيقة أن الكثير من الحراس الليليين يترصدون أي فرصة للقيام بأعمال السرقة، وهم أنفسهم من يلقي القبض على أي أمازيغي بريء يصادفونه يتسكع في الليل. كما أن السيد ماريوس كلف ورشة نشارة السيد ريمس بصنع باب خشبي ضخيم وقوي، بدلًا من باب المدينة الكبير الذي تحطم خلال معركة الذئاب.

ظلت الأميرة سانيس تعيش عالمها الخاص، وواصلت رؤية ذلك الشاب البهي في أحلام يقظتها ومنامها، يُقبل نحوها منشرًا باسمًا، ولكنها ظلت ترى أيضًا إلى جنبه طيفًا غامقًا غير محدد الملامح، ولم تكن تعرف هل ذلك الطيف طيف إنسان أم هو طيف لشيء آخر. واصلت السير إلى وسط المدينة، ومرّت بورشة النشارة التي استعادت نشاطها وحركتها المعتادة، وشمّت رائحة خشب السنديان والزان، وتضوّع حولها رحيق عجيب امتزج برائحة الحديد المنبعث من ورشة العجوز كاجي، بعد العمل غير المسبوق الذي حصل داخلها قبيل معركة الذئاب؛ بحيث تم فيها شحذ عشرات السيوف في يوم واحد. وتصورت سانيس هذه المرة أنها ترى ذلك الشاب بهيَّ الطلعة في ورشة كاجي فعلاً، وأنه يتسم لها فعلاً، وأنه يهرول

نحوها فعلاً، ولكنها- في الأخير- وجدت نفسها تمر بجوار ورشة كاجي، ولم تر سوى العجوز الذي يُقارب سنُّه الثمانين، وعاملِيه اللذين لا يكفان عن الضرب، بمطارقهما القوية، على الحديد، ضرباتٍ تزعج سمعَ سانيس، التي رأت العجوز كاجي يُحدِّق فيها مدهوشاً، تكاد عيناه تسيلان على الأرض بشبق شيخوخة واهن، بينما وجته اليسرى اليابسة ترتجف بوتيرة غير عادية. لم يكن هذه المرة ميتاً من الداخل، كما في المرة السابقة حين كانت تدور في شارع الرئيس رحي معركة طاحنة.. حينذاك كان يعيش فترة بعيدة جداً من شبابه، وكان يتذكر حرباً ضروساً خاضها ببسالة، وشاهد فيها الدم والقتلى والجرحى لأسابيع طويلة متوالية.

تجاوزت سانيسُ العجوزَ السيد كاجي، وهي في طريقها إلى حي الأمازيغ، وبدت لها السماء غريبةً ذلك اليوم كما لو أنها بحيرة زرقاء متجمدة، والسحبُ الحمراء والصفراء الباهتة متمسِّرةً في مكانها، ورأت الشمس ترشُّ وجوه الناس وجُدُران المدينة بأشعة شاحبة. واندفعت الصور داخل سانيس بقوة وشراسة ماحقة كبركان هادر كاد يتفجر من كل تقاطيع وجهها، وتقاسيم جسدها البديع، حين اقتربت من منحدر جبل حي الأمازيغ، سمعت عزف موسيقى تصلها مع الريح الخفيفة الممزوجة برائحة أشجار الرند، التي أمر السيد ماريوس بغيرسها في كل أنحاء شوارع أرتو وأزقتها.. موسيقى نفذت إلى وُجُدان سانيس، وتغلغلت في روحها المندفعة.

في الجهة الأخرى من الجبل نفسه، المفتوح على الخواء وعلى مجرى مائي صغير، ظهر أنير بمشية محملة بإجهاد سفر شاق، وإلى جنبه تيرينا تسير برشاقة غزالة سُهوب منهكة. نظرا بدهشة نحو الجبل الذي غُرست على سفحه بيوت فقيرة ملونة، فرأيا أطفالاً عُراة يلعبون في الأزقة الضيقة، ويتراشقون برؤث حمير. قالت تيرينا، وهي تنظر مستغربة للتحول العجيب الذي طال جبل الأمازيغ:

- لقد تغير الحي كثيراً.. لم يكن بهذا الاكتظاظ قبل ثماني سنوات!

رفع أنير نظره، ماسحاً الجبل بنظرة عابرة، وقال:

- أشياء كثيرة تتغير، وفي زمن قصير.. أكثر بكثير مما نتصور!

كانت تيرينا تمشي خلف أنير حين دخلا زقاقاً من أزقة حي جبل الأمازيغ الضيقة. بدت متوجسة ومسكونة برهبة عجيبة.. إن العودة إلى الجذور تعني العودة إلى ذكريات جميلة وقاسية، وإلى ماض حزين وبهيج. لاحظ أنير أن سكان الجبل يُدهشون كلما وقعت أعينهم عليه، بل كان نشاطهم يتوقف ويظلمون يبخلقون فيه! التفت إلى تيرينا ليعرف هل هي أيضاً قد انتبهت إلى الملاحظة نفسها، لكنه ارتاع حين لم يجدها خلفه! رأى فقط عدة أزقة متفرعة.. لم يعرف على أي زقاق يراهن، ولكنه سأل أمازيغياً كان مشغولاً بالاغتسال في الزقاق عارياً، كما ولدته أمه، وكان قد توقف عن صبّ الماء من القدر على جسمه الضامر بمجرد رؤيته لأنير:

- أيها السيد، هل رأيت تلك الفتاة التي كانت برُفقتي؟

ظل ذلك الرجل ينظر إلى أنير مذهولاً، قبل أن يستعيد بعض وعيه، فقال:

- لا.. لم أراي فتاة.. كنت وحدك فقط!.. لا.. لم تكن هناك فتاة..
لا...

احتار أنير.. لم يعرف ماذا يفعل! ووقف لحظات ينتظر لعل تيرينا تظهر من جديد، وشعر- خلال ذلك- بكل الزقاق ينظر نحوه، وشعر بالنساء تتطلعن إليه من خلال الكُؤات والنوافذ الخشبية القديمة، وبالأطفال من فوق الأشجار، ومن وراء حيطان القصب العتيقة، ترتسم على وجوههم معالم حيرة واستغراب لم يستطع أنير فهمها! وفي الأخير، صاح بأعلى صوته:

- تيرينا.. تيرينا...

غير أن صيحته تدرجت مع الجبل، وانحدرت إلى الأسفل كحجرة ثقيلة الإيقاع والوزن. ومع صيحة أنير، ازداد استغراب الأمازيغ، وهم يعاينون ارتبাকে وشكله الغريب.. لم يتوقعوا رؤية أمازيغي بهيئة وشكل راق جدا، يفوق الرومان وسامة وشموخا! ظلوا ينظرون إليه بعيون واسعة ودّهشة. وتساءل أنير:

- ولكن أين تيرينا؟! بحق الآلهة كيف يمكنني أن أفرط فيها؟
وكيف أستطيع تحمّل هذا الموقف الصعب!!؟

أصبح يسير بغير هُدى بين الأزقة باحثاً عن تيرينا، واستمر

سكان جبل الأمازيغ يُحْمَلِقُونَ فِيهِ بدهشة غريبة، وكان كل نشاط يتوقف بمجرد وقوع أعين مُزاوليه على أنير.

السيدة جيزيا والرومانية الحسناء

في الأسفل، ومن الجهة الأخرى، بدأت الأميرة سانيس صعود جبل الأمازيغ. ولجت زقاقاً ضيقاً يقود إلى حي ملوث بكل أنواع القذارة الممكن تحيلها.. خضار متعفنة، جثث كلاب تعيش فيها مستوطنات من الديدان، بول في كل زاوية أو وراء أي حائط، قمامة مرمية مخلوطة بماء فاسد، وسقط دواجن عفنة تفوح منها روائح عظنة... أصبحت سانيس تسير وسط موجة من القذارة، التي لا يمكن لشخص عادي تحملها، ولكنها كانت- في مكان آخر، وفي عالم آخر- تعيشه بطريقتها؛ فقد ظلت ترى ذلك الشاب البهي، منشرح الملامح، يقرب منها بوتيرة متسارعة، وترى إلى جنبه طيفاً غامقاً غير واضح القسمات، وكان ذلك الشاب كلما اقترب منها، ابتعد مرة أخرى، ولكن ذلك الطيف الشفاف الغامض سرعان ما اختفى من جنب الشاب البهي. واصلت سانيس صعود الجبل، لقد بدأت رحلتها إلى المستقبل، الآن سيحسم كل شيء، لن تظل سجيناً للأحلام الموجهة.

صادف في تلك اللحظة أن ألقت شابة أمازيغية من نافذة البيت بعشوائية ماءً من قدر، وكان الماء ملوثاً ببقايا سمك، وقع على أسفل شعر سانيس، وعلى خلفية ثيابها. لم تُبال، بل استمرت في مشيها،

وصادفت في طريقها أطفالا ابتسموا في وجهها ببراءة، ولكنهم -
فجأة- بصقوا في وجهها حين اقتربت منهم، وفرُّوا مقهقهين!

تناهت إلى سمعها نبرات صادحة لموسيقى قيثارة ساحرة،
فتتبَّعت أثرها غير مهتمة بما حولها، وكأنها تتبع حلماً في منام هادئ.
وأرغمها بائع أو انٍ منزلية، بإلحاح عنيد، على شراء بضاعة منه، ولما
اقتنت ذلك الشيء، الذي لم تتبه إلى ما يمكن أن يصلح له، وجدته
قد سُرقَ منها من قبل فتیان فرُّوا هاربين حتى قبل أن تدفع ثمنه
للْبائع. واصلت السير المتهمل، وكأنها تتجول في حديقة مزهرة،
وأحسَّت بأنها تقترب أكثر فأكثر من مصدر موسيقى القيثارة، التي
جذبتها جذباً غريباً إليها. وفجأةً وجدت نفسها تغرق حتى الركبة
وسط مستنقع من ماء آسن يطنّ فيه البعوض والذباب الأزرق
ثقیلُ الطيران، وتعموم فيه الضفادع وبعض الحشرات الغريبة..
كادت تسقط! وحين حاولت الحفاظ على توازنها، لامست بيدها
مياه البركة المتعفنة، فتناثر على وجهها وملابسها ماء متخثر أسود.
ورغم كل شيء، وجدت نفسها- في الأخير- تقف عند بوابة البيت
الذي تنبعث منه تلك النبرات الساحرة. لقد بدت في حال أشبه
ما تكون بفتاة عوقبت بالقذف بكل شيء قذرٍ وملوِّث، لساعات
طويلة؛ كما هو العُرف في مدينة أرتو، لعقاب الزانية قبل ترحيلها
بعيداً عن المدينة!

وقفت الأميرة سانيس مشدوّهة لسحر العزف الباهر الذي
تسرب إلى روحها كموجة من رحيق فردوسي غير ممكن.. رحيق

لا يصدق. طرقت الباب عدة طرقات. لم يفتح الباب، لكن العزف الموسيقي الساحر ظل متواصلًا، وتناثر في نفسها كأوراق ورد عبق بطيب مدوّخ. بعد لحظة، فتح الباب، فوجدت نفسها أمام أمازيغية مراهقة مليحة الوجه، سوداء الشعر والحواجب، رموشها مرتخية كحلّم جميل لا يوّد أن ينتهي، ترتدي ثوبًا باليًا، ولكنه كشف أسرار جسدها البديع المحير في تناسقه البارِع. لم تقل المراهقة الحسنة شيئًا، بل فتحت الباب، وتراجعت إلى الداخل. ترددت سانيس قليلًا، لكنها تبعتها في الأخير، لتجد نفسها في فناء كوخ قديم؛ كوخ مبني بالقصب والعيّدان، ورأت شابًا يافعًا يحضن قيثارة غريبة مزركشة الألوان؛ قيثارة لم تشاهد مثلها من قبل، ولكنها قيثارة ترسل نبرات أنيقة ساحرة. جلست الأمازيغية المراهقة بجانب الشاب، ثم أخذت تصفّ يدها شعرها المتموج الهادر. أكمل الشاب عزف الوصلة الموسيقية، ثم رفع بصره نحو سانيس، فاحتوته بعض الحيرة، ولم يعرف كيف يتصرف.. لقد أدرك بوضوح أنها فتاة فقيرة جدًا من الأسفل.. هكذا يسمي أمازيغ الجبل سكان مدينة أرتو؛ ولذلك خاطب الفتاة الأمازيغية الحاملة كمخلوقة عجيبه منبعثة من نبرات موسيقى رفيقها:

- تيرارا، أعطها شيئًا تأكله؛ شيئًا تسدّ به رملها، وحبذا لو أعطيتها أيضًا رداءً تستبدل به هذا الملوّث.

لم تجب تيرارا، ولكنها حاولت أن تنزع عنها ذلك الثوب القديم لتمنحه للمتسولة المُفترّضة. لكن الموسيقي زجرها بلطف، وأمرها

أن تحضر لها ثوباً نظيفاً. وتدخلت الأميرة سانيس في الوقت المناسب لتشرح الموقف للموسيقيّ:

- جئت أبحث عن بربري عرّاف.. سمعت بأنه بارع جداً في علم التنجيم.

صمت الموسيقي قليلاً، وهو ينظر بشبه استغراب:

- تقصدين عرّافاً أم عرّافة؟

- لست أدري! ربما تكون قارئة طالع!

- أعتقد أنك تقصدين السيدة جيزيا.. إنها تسكن غير بعيد من هنا. ولكي تصلي إليها، ينبغي حمايتك.. سأرافقك إليها إن أحببت.

- سأكون مُمتنة لك أيها السيد المحترم.

- اسمي لوطر.

- سانيس.. اسمي سانيس.

التفت إليها باستغراب، وهو يهيمّ بالنهوض من مكانه، ثم قال بغير كثير اكتراث:

- تشبهين الأميرة سانيس بنت حاكم أرتو، وتحملين اسمها نفسه، يا للغرابة!

- أنا سانيس بنت أوريلوس سيبو بالفعل يا سيد لوطر.

- حقاً؟!!

في البداية، لم يصدق الموسيقي الأمازيغي اللطيف ما يسمع، ولكن

كل شيء كان يوحى إليه بأنها هي، ولم يكن في حاجة ليسأل ما الذي جعلها تبدو على تلك الحالة البذيئة.. وحينذاك قرّر أن يُشكّل فرقة صغيرة لمرافقة الأميرة إلى السيدة جيزيا قارئة الطالع، وإبقاء الأميرة في أمان تامّ حتى خروجها من حيّ الأمازيغ. ولكي يشكل فرقة الحراسة الصغيرة، فقد اكتفى الموسيقي بمناداة مراهق من الشارع، حضر في الحال. همس في أذنه بكلام، ثم انصرف مسرعاً. وبعد لحظات، ظهر، كالمعجزة، بضعة فتیان يافعين، من اللاشيء، يبدو أنهم أقرب إلى فصيلة العفاريت منهم إلى البشر! وقفوا متحفزين لتنفيذ أي أمر يصدر من الموسيقي، ولو كان هذا الأمر هو افتراس الفتاة الرومانية الغريبة بأسنانهم الصفراء المسوّسة.

سارت سانيس برفقة لوطر وسط فرقة صغيرة من الحراس المتطوعين. وبعد مشي قليل، وقفت أمام باب كوخ لا يختلف كثيراً، في طابعه العام، عن باقي أكواخ الأمازيغ، ولكن لونه الأسود الداكن أثار في نفسها مشاعر متضاربة غير مفهومة ومخيفة في الأخير. طرق لوطر الباب، ثم تراجع إلى الخلف، وخاطب الأميرة سانيس:

- سنتظرك ريثما تُنهين مهمتك، وبعدها سنوصلك حتى مخرج

الحي.

- حسناً!. أشكركم جميعاً.

لم تنتظر الأميرة كثيراً؛ فسرعان ما انفتح الباب على السيدة جيزيا التي بدت امرأة مهيبة؛ امرأة لا يمكن تحديد عمرها أبداً،

ولكن يمكن الجزم بأنه لا يقل عن الثلاثين، ولكنها لا تتجاوز على أيّ حال سنّ الثمانين؛ امرأة ترتدي ألبسة غريبة.. لم تكن ألبسة من قماش فقط، بل هي مزيج منسوج من ريش طيور وقواقع ولحاء شجر ملين ونبات حَلَفَاء وأشياء أخرى مختلفة. بمجرد رؤيتها سانيس، فزعت السيدة جيزيا، وبدت على وجهها الطيني تقاطيع هندسية تشبه شبكة عنكبوت كثيفة الخيوط. تراجعت إلى الوراء، وهي تكاد تطلق صرخة فزع. ابتعدت ماشيةً بمهليل إلى الخلف دون أن تُوليَ ظهرها لسانيس، التي غمرتها موجة من حيرة لم تَعشْ مثلها قط.. لقد بدت جيزيا مرعوبة إلى درجة الهستيريا.

- «اهدئي أيتها السيدة.. اهدئي..» قالت سانيس مُحَاطِبة السيدة جيزيا التي انزوت في ركن الفناء، وتقوقت على نفسها، وهي تلهث بشدة، وأنفاسها تكاد تنقطع. اقتربت منها الأميرة سانيس بهدوء، ووضعت يدها على رأسها، وخاطبتها بصوت حانٍ:

- جئتُ أطلب مساعدتك..

نظرت السيدة جيزيا حولها بارتياح، وقالت بصوت مرعوب:

- فيمِ يمكنني مساعدتك يا بُنيتي الأميرة الجميلة؟!

- ألسنِ قارئة للطالع؟

- بلى، يا بُنيتي.. بلى.

- أريد أن تقرئي طالعي، وتفسري لي حلمًا راودني طويلًا في منامي

ويقظني.

صمتت جيزيا، وهي تغالب بإجهاِدِ انفعالاتها الشديدة:

- لا أستطيع يا بنيتي.. لا أستطيع.

استغربت الأميرة سانيس، وسألتها مستفهِمةً.. لقد ذهب ظنّها

إلى والدها أوريليوس سيبو:

- لماذا لا تستطيعين.. أأكون أحد قد منعكِ.. والدي مثلاً؟

- لا أحد! ولكنني أرى داخلك بركاناً ملتهباً يكاد يرمي بالحَمَم

مَنْ حوله.. فيك طاقة هائلة تلجم كل معارفني بعلم التنجيم!.. لا..

لا أستطيع.. سأموت لو حاولت!

لمست الأميرة سانيس صدقاً في كلام السيدة جيزيا. ولكي تختبرها

جيداً، أخرجت من تحت ثوبها سواراً ذهبياً ثميناً:

- سيكون لك هذا السوار إذا نفذت ما طلبت منك.

أجابت السيدة جيزيا برعب:

أرجوك بنيتي.. أرجوك! أبعديه عن أنظاري.. إنه يكاد يُحرقني!

غادرت الأميرة بعدما تأكدت من عدم جدوى استمرارها في

المحاولة مع امرأة غريبة الأطوار؛ كما بدت لها، وربما تكون مصابة

بمسّ من الجنون. خاطبت الموسيقى لو طر:

- هل تكون هذه المرأة هي حقاً العرّافة البربرية الأكثر براعةً في

علم التنجيم؟

- نعم، والكلُّ يشهد لها بذلك.. هل قضت حاجتك؟

- بطريقتها الخاصة طبعًا.

صاح الفتية من الخلف:

- إذا ثبت أن هناك عُرسًا، فنحن نريد حصّتنا من لحم الماعز.

ضحكت الأميرة سانيس، وأخرجت السوار الذهبي، وسلمته إلى
لو طر:

- لو طر سيبيع هذا السوار، وستقتسمون ثمنه بالتساوي بينكم..
تستطيعون، بثمنه، شراء عشرين إلى ثلاثين رأس ماعز على الأقل،
ولكن ليس هناك عُرس، وإلا لكنت قد استضفتكم جميعًا في حفل
الزفاف.

صاح أحد الفتيان بحذقلقة:

- إنها أخبار سيئة كما يبدو.. يمكنك اختيار عريس أمازيغي
قَدِر وفحل كحمار.

ابتسمت سانيس، ولم تعلق.

واصل فتى قصير القامة، يُدعى تواهي، قيادة فرقة الحراسة
الصغيرة؛ فتى عريض المنكبين، متصلّب عضلات الأرداف والذراعين،
يطلق شعرًا طويلًا، مشدودًا بسلك من نحاس. وظل يزجر كذّاب
جائع، وحين يتناثر صوته في الأرجاء، يموت الزقاق من الفور..
يتجمّد الأطفال خوفًا، ويلتصق المارة بالجدران، وتسكن الحركة،
ويهدأ الضجيج الهادر المنبعث من الأفنية، وينقطع ثغاء الماعز
وصياح الدجاج وشقشقة العصافير. واستمرّ الفتى القصير يضرب،

بقضيب مصنوع من فرع شجرة سدر، الأرض والجدران، ناشراً
طقس رعب يُجيده على نحو مثير للإدهاش.

انسلت الأميرة سانيس من وسط فرقة الحراسة بعدما شكرت
الفتية بحرارة، وغادرت مخرج حي العَجْر. صاح بها فتى طويل
القامة، مربع الوجه، ومجدد الشعر:

- لقد عشقتك أيتها المتشردة الجميلة.. عودي مرة أخرى..
أعدك.. لن ترغبي في الرجوع إلى أرتو.. لدى كل شيء يمكن أن
تجّيه.

وصاح فتى آخر:

- هذه القذرة حسناء بالفعل، بل لا يمكنني تجاهل إعجابي
الباهر بها.. لقد عشقتها.. انظر كيف تهتز أردافها.. إنها عاهرة
لذيذة.

وظل تواهي يضرب ركبته بلطف بالقضيب المصنوع من فرع
شجرة سدر، وفي الوقت نفسه كان يتابع الأميرة سانيس بعيون
طافحة بإعجاب غامض ومرعب. انسحب رفاقه عائدين إلى الجبل،
ولكنه استمر يراقب سانيس من بعيد. وحين غابت تماماً عن
ناظريه، تنهد تنهيدة طويلة، خرجت مندفعة مع أنفاسه الحارقة،
وامتزجت بريح بداية خريف بارد. ردّد في نفسه بتصميم مخيف:
«يجب أن نلتقي مرة أخرى أيتها الياמה الملوثة.. نعم، يجب أن
نلتقي..».

واصلت الأميرة سيرها، وهي ترى طيف شاب بهيّ الطلعة
يقترّب منها أكثر من أي وقت مضى، وبدت ملامحه هذه المرة أكثر
وضوحاً من أي مرة أخرى، ولكنه ما فتئ، كالعادة، يتعدّد بمجرد
اقترابه منها، وتضيق صورته وسط موجة ضباب أبيض مائل
للزرقة. وظلت تفتّش عنه في مخيلتها من دون كلل، ولكنها عجزت
تماماً عن اللحاق به. وحين عاود الظهور، كانت الخادمة بيرينة قد
أدخلتها بسرعة إلى جناحها في القصر، وجهزت لها حماماً ساخناً،
وألبسة نظيفة. غرقت الأميرة سانيس في رغوة صابون صلصالي
أحمر، والتصقت بجسدها، المنحوت كإلهة نورانية، فقاقيع صغيرة
وكبيرة انهمكت في إطفائها، بنشوة غامرة، الواحدة تلو الأخرى،
وصورة الشاب البهي ترسم أمامها كطيف بروح حقيقية؛ طيف
لا يرغب في الابتعاد عنها، ولا يرغب في الاقتراب منها. ورأت دائرة
ترسم أمام وجهها؛ دائرة في بداية تشكلها؛ دائرة تمثلتها في حلم
أصرت في نفسها على أنه يجب أن يتحقق في النهاية.

هروب

استمر أنير ينادي تيرينا من أعلى جبل الأمازيغ، ولم يعد يبالي
بنظرات الاستغراب التي تقع عليه كقطرات مطر خريفي ثقيلة.
فتش في عدة أزقة ملتوية وموحشة؛ أزقة غريبة هي عبارة عن
مقابر اصطفت فيها القبور على جنبات الأزقة؛ قبور منبوشة،
تظهر في بعضها جماجم موتى، وبعض من هياكلها العظمية. جدّ

في السير، وهرول مبتعداً، وشعر برجفة هزّت كيانه من الداخل،
وشعر بذاكرته تتحرك، وتذكر أشياء من ماضيه البعيد، ورأى
الكهل ماسين، وفي يده أيقونة ثفوشت الذهبية، وتاجر الملح
السيد أفولاي وفرحته بالكتاب؛ تلك الفرحة التي ارتسمت على
مُحَيَّاه كطفل بريء، وبلدة دريو البعيدة، والأرملة ليفيا الطيبة
الفاتنة، وزهرة الجمر التي لفحت ذاكرته بوخز مؤلم وحالم. تعثر
فجأة بحجر، بينما هو يهرول لاهثاً. وقع على الأرض، ولم يستطع
التحكم في نفسه. رأى نجومًا تسطع أمامه؛ نجومًا تسبح في سماءٍ
من دم. تدحرج مع المُتَحَدِّرِ الوَعْر، وتمرّغ في التراب وفي القذارة
وفي البرك المائية الصغيرة الملوثة. حين وصل أسفل الجبل، أضحى
أشبه بشخص شحاذ أفاق من نوم محموم ليجد نفسه في حظيرة
حيوانات! شعر بالآلام في جسمه، وراعه منظره، وتذكر شكله في
رحلته المجهدة بين دريو وكوخ السيد بيكاو؛ حيث اعتنت به تيرينا
عناية فائقة، وحمته بهاء ساخن أعاد إلى جسمه الحيوية والعنفوان،
وشعر بيديها الناعمتين تلامسان جسده برقة وعذوبة، وعالج السيد
بيكاو جرحه المتعفن. ولكنه الآن يستلقي مرتطمًا بجذع شجرة رند
تدفع في روحه أريجًا منعشًا مختلفًا برائحة القذارة التي تنبعث منه.
نهض بمشقة من مكانه. اتكأ على جذع شجرة الرند. نظر
إلى المجال من حوله، فرأى مدخل مدينة أرتو من الجهة الجنوبية
لجبل حي الأمازيغ.. مدينة جميلة، بناياتها متناسقة مبنية بحجر أحمر
شاحب منحوت بشيء من المهارة. الحركة داخل المدينة عادية. الكل
يزاول نشاطه بهدوء، وحراس المدينة يمرون من حين لآخر راكبين

جيداً تدقّ حوافرها الإسفلت الحجري دَقّاً يُسمع من بعيد، وقد علقت على أحزمتهم سيوف من نوعية ممتازة. أخرج أنير، من صرّة صغيرة، قطعة ذهبية صغيرة هي الوحيدة المتبقية بحوزته، وتوجّه بها إلى صائغ في آخر الشارع. تأمّله الصائغ باستغراب شديد، وظلّ يحدّق فيه قبل أن يقول له أنير:

- أريد استبدال هذه القطعة الذهبية بأخرى من عملة المدينة.

استجاب الصائغ لطلبه دون أن يتوقف الاستغراب الذي استحوذ عليه. وحين خرج أنير، أدرك أن هذا الاستغراب أمر عادي ما دام على تلك الحال من القذارة. توجه إلى دكان قريب، واشترى ألبسة جديدة، وعامله البائع بالحيرة والاستغراب نفسيهما:

- هل يوجد هنا حمّام قريب يا سيدي؟

أجابه تاجر الملابس بعدما استفاق من ذهوله العميق:

- نعم.. في الشارع الثاني، وفي المحل الثاني أيضاً، على اليمين..

على اليمين.

استدار أنير، وهو لا يزال يستمع إلى توضيحات التاجر. بعدما اقتنى بعض الحاجيات، استحمّ، وارتدى ملابس جديدة عبّقة برائحة الكافور. على حين ظلّ صاحب الحمّام، رغم ذلك، ينظر إليه بالدهشة نفسها التي استقبلته بها أرتو منذ اللحظة الأولى، التي حطّ فيها قدماه على شوارعها. خرج إلى الشارع، وشمّ رائحة أكل شهّي تنبعث من مكان ما. شعر بالجوع، فتبع أثر الهواء المحمّل

برائحة الرند وزببل جياد فرسان الحراسة ورائحة يوم كثيف الرطوبة، ووجد نفسه أخيراً أمام مطعم يبيع اللحم النيئ والمطهو، والسّمك المجفف المملّح مع خبز الشعير، وحساء القطاني. تناول طعامه بهدوء، غير مكترث بنظرات الاستغراب التي كانت تحتويه كالبخار الصاعد من قدور الطبخ في المطعم، وفكر في شذا الكستناء المشوي، وفكر في المعلم ماسين، الذي حمّله مهمة لن تكون يسيرة أبداً، ورأى أن مستقبل شعب الأمازيغ متعلق - بدرجة كبيرة - بنجاحه في المهمة النبيلة التي تقوده إلى هذه المدينة، وفكر في وجوه الفتيات اللواتي تعودن أن يأتين إليه لشراء الكستناء من حين لآخر، في بوابة سوق بلدة دريو، محمّلات بذات الغنّج والدلال الدائمين:

- هل أجد لديك شغلاً؟. أستطيع أن أنظف أرضية المطبخ، وأغسل القدور، و... أستطيع فعل أشياء أخرى كثيرة.

- «لا.. لست في حاجة إلى عامل أيها الشاب».. رد صاحب المطعم، وهو غارق في شرود بدا وكأنه شرود أبدي.

اجلس بجنب خليلتك..

لا أحد يستطيع أن يقول لك: لا!

اضغط جنبًا إلى جنب لتكون لصيقًا بقدر ما تستطيع

شكرًا لعادة المقعد المزدحم.

أنير في مدينة أرتو

مرّ أنير بجنب مصنع زجاج، ورأى من الخارج أشكالاً بديعة؛ من مزهريات زجاجية ملونة، وزجاج للزينة، وزجاج للاستعمال المنزلي.. كؤوس وأطباق وقوارير ملونة، ورأى صاحب المصنع يجلس على كرسي، ويحاور شخصاً آخر يرتدي لباساً مختلفاً عن ألبسة أهل أرتو، يبدو أنه تاجر وفد من مدينة بعيدة. انتظر أنير حتى انصرف الرجل. دخل مصنع الزجاج. شمّ من الفور رائحة لا تشبه أي رائحة أخرى، ولكنه خمن أنها لن تكون إلا رائحة زجاج؛ رائحة زجاج منصهر في حرارة تشبه الجحيم. نظر مالك المصنع باستغراب نحو أنير، وكأنه لم يشاهد إنساناً من قبل. «ألم أستحم؟! وقد لبست ألبسة جديدة أيضاً! وهي ألبسة سكان مدينة أرتو نفسها! فلماذا

يستغربون لرؤيتي؟!«.. تساءل، وقد احتواه بدوره استغراب عظيم. خاطب صاحب المصنع بعدما حيّاه:

- هل يمكن أن أجد عندكم شغلاً سيدي؟

ظل صاحب المصنع مذهولاً، قبل أن يصحو بذعر، ويرد بطريقة آلية:

- لا.. ليس لديّ شغل أيها الشاب! لا.. ليس لديّ شغل.

ولم يكن السيد سابسي؛ صاحب مصنع الزجاج الشهير، متأكداً مما إذا كان بالفعل يحتاج إلى عامل أم لا؛ فهو غالباً ما يطرد عماله معاونين القلائل إذا وجد منهم إهمالاً بسيطاً، أو أفسدوا صناعة زجاجية قد لا تساوي الكثير؛ وبالتالي كان يحتاج، باستمرار، إلى أيدي عاملة، ولو احتياطية؛ فصناعته، من جهة أخرى، كانت مزدهرة، وزجاجة المشهور كان يُصدّر إلى أماكن بعيدة جداً عن أرتو. لمح أنير التحف الزجاجية الجميلة، وشرّد ذهنه، وابتعد في متاهات قادته إلى فتاة رومانية فاتنة رآها- ذات سنة بعيدة- في بلدة دريو، وإلى الحلم الذي جاء به إلى هذه المدينة، وتساءل غارقاً في تيه عميق أمام نظرات صاحب المصنع الموغلة في الاستغراب والدهشة:

- هل يمكن أن ألتقي تلك الفتاة هنا في أرتو؟.

غادر مصنع الزجاج، وقد تشربت ملابسه رائحة غريبة؛ رائحة هي مزيج من كافور وملونات نباتية وفحم. هذه التركيبة العجيبة تحولت إلى رائحة تشبه رائحة أوراق شيخ مهروسة. واصل أنير السير وسط المدينة، ورأى نشارة السيد ريمس، ورأى منحوتات

جميلة، وأشكال أبواب فائقة الروعة، وهياكل خشبية كبيرة، وجذوع أشجار عريضة وطويلة، انهمك بعض الفتية، بجهد جبار، ليجعلوا منها ألواحًا مصقولة بمهارة. تذكر الغابة، وتذكر الحادث المروع الذي تعرض إليه في مخرجها. تظيرت نفسه، ورهب الخشب وجذوع الشجر. هرب من الموقف من غير أن يبحث عن صاحب النشارة ليسأله إن كان في حاجة إلى عامل.

اجتاز بضعة محالّ لم يعرف مجال اختصاصها، ولم يتوقف عند المتسوقين والعابرين، الذين كانوا يرشقونه بنظرات تعجب متواصلة، ولكن لا أحد جرؤ على الاقتراب منه، أو التحدث إليه، وهو أمر ارتاح له من جهة، ولكنه انزعج لعدم تمكنه من فهم سبب هذا الاستغراب الذي يُقَابَل به كلما وقعت عين أحدهم عليه. لم يهتم. واصل سيره، ووقع المطارق الحادّ في ورشة حدادة العجوز السيد كاجي يصله من بعيد، مختلطًا بهديل حمام كان يحط فوق أحد الأسطح، وقد تلبّدت السماء بسحب الخريف الداكنة، ولعلع الرعد في الجهة البعيدة من المدينة؛ حيث البحر ومراكب الصيادين وغناء النوارس الكثيب.

وجد نفسه -في الأخير- يقف أمام شيخ طاعن في السن، لحيتُه بيضاء، وحاجباه الناصعان ينسدلان حتى يكادان يغطيان عينيه. نظر العجوز إلى أنير باستغراب هادئ، واستمرت الضربات الرتيبة لمطارق العاملين تهز ورشة الحدادة، وتصمّ سمع السيد كاجي. تحدث أنير وسط ضجيج لا يمكن أن يُسمع فيه شيء، ولكن العجوز

كاجي أشار إلى عامليه بأن يكفّا لحظة عن الطَّرْق. وبمجرد أن نظر
العاملان إلى أنير شلت حركتهما، وظلّا فاغريّ الفمين، وبدا من
الصعب إعادتهما إلى نشاطهما السابق، لو أمرهما بذلك السيد كاجي:

- «سيدي، هل يمكنني أن أجد عندكم شغلًا؟».. قال أنير،
والعجوز كاجي ينظر إليه بحيرة، وبصمت أيضًا. انتظر أنير إجابة
عن سؤاله، ولكنه لم يتلقَ أي شيء:

- سيدي، ألاحظ أن الجميع هنا ينظرون نحوي باستغراب! هل
لأنني غريب عن المدينة، أم إنّ المدينة لا تقبل الغرباء؟!

استيقظ السيد كاجي من استغرابه المؤقت:

- نعم؛ لأنك غريب! وهذا صحيح.

- ولكن ألا يدخل المدينة غرباء كثر سواء للتجارة، أو لمجرد
النزهة، أو للعمل أيضًا؟!

- نعم.. يدخلون، ويوجد الكثير منهم الآن في المدينة.

- ولكن، لماذا أعامل أنا بهذه الطريقة بالضبط؟!

التفت العجوز كاجي، ونظر إلى كل شيء حوله دون أن يستقر
بصره على شيء محدد:

- لأنك الغريب الحقيقي من بين كل الذين ذكرت... ولأنك
أمازيغي أكثر وسامة.. ونبوغا ربما من الرومان أنفسهم. هل
فهمت أيها الشاب؟!

- لا يمكنني فهم مثل هذا الكلام! هل تراني أبدو على هيئة مختلفة؟!

- لا، أنت- في المظهر- شخص عادي كأني شخص آخر، ولكنني أشعر، وعيناي تُصدّمان بك، وكأن حريقًا مستعرًا يمور داخلك، وكأنك تحتاج إلى كل مياه الأرض والسماء لتطفئ ذلك الحريق! - طبعًا، أنت لا تتوقع أن أفهم مثل هذا الكلام.

- نعم، أفهم أنك لن تفهمه.. إلا إذا كنت أنت أنت آخر ينظر إليك.. وهي معادلة غير ممكنة كما ترى! - يا سيد...؟

- «السيد كاجي».. هكذا يناديني الجميع، ولكن زوجتي الشابة، وهي الآن في الثالثة والستين من العمر، تحب أن تناديني تحببًا «كاجيو». وكاجيو كلمة فيها رجولة أكثر.. وربما فحولة أكثر بحسب اعتقادها.

ضحك أنير لأول مرة منذ دخوله مدينة أرتو، وأعجب بالعجوز وروحه الطيبة الودودة:

- هل يمكنك أن تشغلني في ورشتك يا سيد كاجيو؟

- لا أسمح لأحد بمناداتي بهذا الاسم غير زوجتي، ثم إنني أقتلك بساطور حاد إذا تحرّشت بها.. أنا محارب قديم، وأهل قدرًا زائدًا من الغيرة على زوجتي.

- اطمئن! لن أفعل؛ فأنا رجل شريف.

- ولكنها ليست كذلك مع الأسف!. إنها عاهرة في آخر الأمر!

تنهد العجوز كاجي، وبدا وكأنه يعني ما يقول. وبعد صمت قصير، خاطب أنير:

- قلت إن اسمك.. ماذا؟!

- أنير.. يا سيدي.

- ولكنني، يا أنير، لست في حاجة إلى عامل، ثم حتى وإن شغلتك في ورشتي، فإنني غير مستعد لأدفع لك راتبًا! أنت بربري؛ كما يبدو من خلال اسمك، ونحن لا ندفع أجورًا للبربر! ربما منحتك وجبة أكل واحدة يوميًا.. وقد أعطيك كوخًا صغيرًا مرفقًا بالورشة لتبيت فيه، ولكن ماذا يمكنك أن تضيف إلى الحدادة؟.

- أثناء تجوالي بوسط المدينة لاحظت شبابيك البيوت.. إنها من طراز عادي وبسيط، ولا توجد فيها نفحة إبداع!

- الناس يطلبون الشبابيك فقط، وأن تكون متينة طبعًا، ونحن ننفذ طلباتهم.

- حسنًا! هذا جيد، ولكن ينبغي لورشة حدادة محترمة أن تقدم الجديد دومًا والجميل، الذي يبهر الأثرياء؛ فيقبلوا على شرائه بأثمان خيالية.

- تبدو شديد الثقة بنفسك، ولكن هل تمتلك مهارات لتدعم بها هذه الثقة؟

- امتحن قدراتي يا سيد كاجي.

- هل كنت حدّادًا قبل مجيئك إلى أرتو؟

- لم أعمَل قط في الحدادة.

- يبدو أنك تضيّع وقتي.. وأعصابي أيضًا! أنا عجوز.. عجوز،

هل تفهم ما معنى أن تكون عجوزًا...؟!!

- لعل من المزايا القليلة جدًّا التي أتمتع بها هي أنني أحب

التحدي.. لدى شيء قليل من النقود، سأشتري به منك، يا سيد

كاجي، بعض القطع الحديدية، وسأشكّل منها نموذجًا لشباك

لتقف على مهاراتي.. ما رأيك؟

- حسنًا!. كل شيء في متناولك.. إذا نال عملي إعجابي، فستستحق

العرض الذي عرضته عليك، وإلا فإنك ستدفع ثمن المواد الأولية

التي ستكون قد أتلفتها، إلى جانب التعويض عن الوقت الذي

بدّدته في لا شيء.

- موافق.. أريد أداة للرسم، ومعاونًا يساعدي.

- نحن لا نشتغل بأدوات الرسم أيها البربري الغريب..

وبالمناسبة، هل تعرف لماذا ينظر الناس نحوك باستغراب؟. لأنك

بربري، ولأنك بربري مختلف.. مختلف جدًّا، وفي كل شيء!

قال كاجي، وهو يكاد يفقد أعصابه، لكن أنير هرول بسرعة،

ودخل محلاً اشترى منه أداة كتابة، وورقًا مصنوعًا من جلد مُلِين،

وبدأ يشتغل في صمت غير مبالٍ ببعض أسئلة السيد كاجي. تذكر

الإلهة فينوس، وتذكر ألقها الباهر، وحاول أن يرسم على الورقة

نموذجًا لشباك نافذة أنيق، استعمل فيه أشكالًا تحاكي حراشف سمكة الفرخ الأبيض، ولكن بطريقة أدق وأجمل، وتذكر فتاة أمازيغية، بارعة الجمال، تفوح برائحة ملح زكية، ولدت ذات يوم بعيد في البحر، وأن والدتها ماتت مباشرةً بعد ولادتها، وتذكر زهرة الجمر، والدفء المخيف الذي تبعثه أنفاسها الملتهبة. زرع أنير نجومًا بديعة على الشباك؛ نجومًا كانت تُخرج من روحه العميقة كل الإبداع الممكن. وفي الأخير، انتهى إلى رسم شكل مُبهر، وبقيت الخطوة الأهم، وهي تحويل الصورة إلى مجسم شباك حديدي بحجم شبابيك البيوت المألوفة في المدينة. وهكذا بدأ يشتغل بمهارة خارقة، مدفوعًا بإلهام عجيب، استوحاه من جمال الفتاة الرومانية التي قادتته إلى هذه المدينة، واستوحاه أيضًا من وصية المعلم ماسين ومستقبل شعب الأمازيغ. وكان معاون أنير ماهرًا في تطويع الأشكال الحديدية، وإصاقها ببراعة مع بعضها البعض بتعليقات دقيقة، ومتابعة صارمة من أنير.

عندما انتهى أنير من العمل، شعر وكأنه تخلص من شيء ثقيل كان بداخله منذ دخوله المدينة، وشعر بأنه أفرغ ذلك الشيء الذي قال عنه السيد كاجي:

- ولكنني أشعر، وعيناى تصدمان بك، وكأن حريقًا مستعرًا يَمُور داخلك، وكأنك تحتاج إلى كل مياه الأرض والسماء لتطفئ ذلك الحريق.

عرض أنير الشباك على العجوز كاجي بعدما لونه تلوينًا بارعا،

واحتاج السيد كاجي إلى بذل جهد مُعتبرٍ ليتبين التفاصيل الدقيقة المكوّنة للجمال العام للشباك، لكنه- في النهاية- لم يستطع إبداء إعجاب حقيقي بإنجاز أنير، وسلم بأن ما يراه قد أثار البعض من إعجابه فحسب، ولم يكن مبعث ذلك البعض من الإعجاب سوى اكتشاف السيد كاجي، في الشباك الذي أبدعه أنير، شكلاً مغايراً تماماً للأنماط التقليدية المألوفة في صناعة شبابيك بيوت مدينة أرتو، والمدن الأخرى في البلدان التي زارها خلال سِنِّي عمره الطويلة.

- يجب عرض هذا النموذج على أعضاء مجلس المدينة وأمنائه.

اقترح أحد العاملين بعفوية ساذجة؛ كما بدا الأمر لأنير، ولكن السيد كاجي ردّ بحماسة:

- إنها فكرة جيدة! لعل أحد هؤلاء الأثرياء تعجبه الفكرة، ويطلب منا إنجاز شبابيك جديدة لمنزله.

ذهب عامل كاجي حاملاً الشباك العجيب، وكان أنير قد زوّقه بألوان زاهية تنسجم مع اللون العام للبيوت في المدينة، وأشجار الرند الفتية النابتة على الأرصفة؛ الأشجار المعانقة تقريباً بفروعها الخضراء الفواحة للشبابيك الصّديئة لمدينة أرتو.

حماقة تواهي الجميلة

غادرت الأميرة سانيس القصر متوجهة إلى وسط المدينة. لقد شعرت منذ منتصف نهار أمس بصورة ذلك الطيف البهي للشباب

تقترب منها أكثر فأكثر، وتلحّ عليها إلحاحًا مستمرًا، بل أصبحت تلك الأحلام التي تداهمها في المنام واليقظة تنغص عليها هدهدها النفسي، وتكدر مزاجها على نحو كانت تلاحظه الخادمة بيرينة يتجلى في قلق غير مبرر يحرك تصرفات سانيس وانفعالاتها، لكن بيرينة لم تكن تهتم كثيرًا؛ لأنها تعودت دائمًا من سانيس أشياء غريبة.

اجتازت شارع بناية الرئيس، وعَن لها أن تعبر زقاقًا ضيقًا لتصل وسط المدينة بأقل مسافة ممكنة.. لقد استشعرت حرارة غريبة تسربت هذه المرة إلى جسدها، وغمرتها حالة ارتباك لم تفهم سببها. واصلت السير تحت جو خريفي بارد، وتحت ظلمة طقس ينذر بنزول الأمطار في أي لحظة، وسمعت طيور الدّوريّ تشقشق بقلق متنقلة من سطح إلى آخر، ومن شجرة رند إلى أخرى. همّت باجتياز زاوية الزقاق، وفجأة وجدت أمامها فتى عريض المنكبين، متصلب عضلات الأرداف والذراعين. زمجر في وجهها كضُبع جائع، ولم يكن ذلك الفتى سوى الفتى الأمازيغي تواهي، الذي كلفه الموسيقى لوطر، ذات يوم، بمرافقة زملائه لحراسة الأميرة سانيس حين زارت جبل الأمازيغ من أجل العرافة السيدة جيزيا. قال لها، وهو يضع رأس خنجره الحادّ تحت ثديها الأيسر:

- لا أريد سماع عويلك العذب، أيتها الذئبة الشهية.. تقدمي أمامي بصمت، وإلا فسيكون هذا الخنجر مغروسًا في قلبك.

سمعت الأميرة سانيس صوت تواهي المزمجر، الذي بدا لها

كسجع قمري ورأت في يده خنجراً حاداً، ورفعت عينيها الرائيتين إلى عينيه المتقدتين بحماسة جهنمية، لكن عيني تواهي سرعان ما تراختا؛ فذبلت نظراته، وبدا ضعيفاً ويائساً فجأة، حين اصطدمت نظراته بنظرات سانيس الحانية. ثم أخذت منه الخنجر، وقالت له بكل لطف:

- اذهب إلى كوخك، ويُستحسن أن تنام قليلاً.. تبدو مرهقاً جداً أيها الفتى البربري الوديع.

فرّ تواهي راکضاً. كان يشعر بأن كل شيء في المدينة يطارده. اصطدم بحمار فلاح كان يحمل بضائع إلى سوق المدينة؛ فتدحرج على الأرض، ثم نهض بسرعة، وأخذ يجري من جديد، واجتاز كل الأزقة والشوارع بسرعة فائقة. لفت أنظار كل المارة والحراس. لا أحد اقترب منه أو أوقفه. لقد تذكروا بلاءه الحسن في معركة الذئاب، وظلوا يحتفظون له، منذ ذلك الحين، بذكرى بطل بربري منسي. وبمجرد دخول تواهي بوابة الجبل، سقط منبطحاً على بطنه، وكانت أنفاسه تتلاحق بوتيرة متسارعة، وتجمّع حوله الرفاق والفضوليون من فتية الأمازيغ المتشردين؛ فقال أحدهم:

- تواهي يلفظ أنفاسه! لا بد أنه أسرف في الشرب.. ألا تشم قوة رائحة الخمر التي تنبعث منه؟!

فرد آخر:

- ومتى كان الخمر يقتل تواهي أيها الأحمق؟ إنه مرهق جداً.. هذا كل ما في الأمر.

حمله أصدقاؤه، وتوجّهوا به إلى منزله، وألقوا بجسمه فوق
سريره ككيس من قطع خشب الزان، وقال أحد الفتية:

إنه ثقيل كما لو أنه جثة بغل!

الخنجر

واصلت سائيس سيرها وسط المدينة، والخنجر في يدها، وكان
منظرها يثير استغراب وروع كل الذين يرونها، وساد الاعتقاد بأنها
تطارد الأمازيغي الذي رأوه يهرب بكل قواه. لم يتدخل الحرس.. إنها
الأميرة سائيس؛ بنت أوريليوس سيبو حاكم المدينة، وعليهم التحلي
بالحيطة والحذر في التعامل معها. ورغم ذلك، وبتوجيهات من السيد
ماريوس، الذي أبلغ سريعا بالخبر، ظلوا يراقبونها من بعيد حفاظا على
سلامتها الشخصية. وبينما كانت الأميرة سائيس تقترب من نشارة السيد
ريمس، شعرت بقشعريرة هزت كيائها، وبرد تسرب إلى نفسها العميقة،
وشمت رائحة محبّبة، ولكنها رائحة مخيفة في الوقت نفسه، وأحسّت
بأنها لا تستطيع التقدم إلى الأمام، وبأن رجليها لا تطاوعانها. توقفت
عن المشي، ورأت في أحلام يقظتها شابا بهي الطلعة، منشرح الأسارير،
ينظر إليها بتولّه، ويتقدم نحوها بخطوات سريعة، ولكنه لا يصل إليها
أبدًا! وجدت نفسها في النهاية تعود بخطوات تائهة إلى المنزل، وهي
ترى السماء ملبّدة بغيوم قائمة متفرقة، وترى أسراب الكراكي المهاجرة
البعيدة، وتشم رائحة الرند، ورائحة خشب السنديان والسرو، وتسمع
هديل اليمام النائح.

وحين ولجت بيتها، استقبلتها الخادمة بيرينة بسؤال ممزوج بهلع:

- سيدتي، لماذا تحملين هذا الخنجر في يدك؟!

ردت سانيس غير مبالية:

- أحدهم أراد قتلي؛ فانتزعت من يده.

تساءلت الخادمة برّوع متزايد:

- كيف استطعت أن تأخذي منه الخنجر؟!

- تسلّمته من يده، ولم يُبدِ مقاومة.

- بهذه السهولة؟!!

- لم يكن شيئاً خطراً! أراد فقط قتلي.. هذا كل ما في الأمر!

وبعد لحظة صمت قصيرة، أضافت:

- بيرينة، أنا متعبة.. أشعر به هنا في هذه الحجرة، أو في القصر،

أو ربما في المدينة.. إنه هنا!

- تقصدين الشخص الذي حاول قتلك؟ يجب تنبيه الحرس

حالاً.

- لا، إنه.. إنه.. إنه شخص آخر...

بدأ بعض العرق ينزّ من جبين الأميرة سانيس؛ عرق يشبه

أريج عسل وردي فاتح، وشعرت بحرارة طيف ذلك الشاب البهي

تُلهبها.. تحرقها من الداخل.. تكويها، ولم تكن تعرف ماذا تصنع!

دخلت الحمام بعدما طلبت إلى الخادمة بيرينة أن تُعدّها ماءً فاتراً،

وغطت بجسدها العاري في حوض ماء مغمور بالكافور وماء
الورد ورغوة صابون أحمر. وبينما كانت تشعر بالماء الفاتر يقتحم
جسدها بلطف، ويداعب بشرتها الناعمة، كانت ترى فقائيع صغيرة
وكبيرة من الرغوة تنبت فوق فخذيها وساعديها وصدرها، وأخذت
تتلهى بإطفائها الواحدة تلو الأخرى، وهي تفكر في شاب بهي
الطلعة، منشرح الملامح، يبعث حرارة مخيفة يقترب من مجالها على
نحو مستمر ومتواصل.

اسمع!

إني أرى انتصارك قادمًا،

وسأرفع ترنيمة شكر،

وأغنى عاليًا بمدحك.

الشباك المزوق

اقترَب عامل كاجي من مقر مجلس المدينة في شارع بناية الرئيس، حاملاً الشباك الملون، فوجد على البوابة فارسين يمتطيان جوادين قويين، ويمتشقان سيفين من تلك السيوف الجيدة التي جلبها السيد ماريوس لجُند المدينة وحرسها. كان الفارسان ينظران بدهشة إلى الشباك العجيب المزوق. وحين اقتحم العامل بوابة مجلس المدينة، لم يتبها إليه.. لقد تماهت مشاعر الحارسين تماماً مع سحر الشباك. وواصل العامل سيره، واقتحم -بالصخب والضجيج نفسه- قاعة الاجتماعات في مبنى رئاسة مجلس المدينة. وقف الحضور هلعاً واستغراباً، وهم مذهولون للطريقة التي دخل بها العامل! وفي تلك اللحظة، ارتد الباب مُحدثاً دويًا قويًا، تردد صدهاء في القاعة الواسعة الصامتة. اقترَب العامل بعفوية، ووضع الشباك الملون على الطاولة الكبيرة، وسط دهشة أعضاء

مجلس المدينة وأمنائها ورئيسهم. اتسعت أعين الحضور، ولم يفهم أحد منهم ما يجري! وذهب ظن بعضهم إلى أن الحاكم أوريلوس سيبوربما أمر بصُّنع هذا الشباك، أو نائبه السيد ماريوس لغرض ما، لكن السيد ماريوس كان أكثر الحضور يقظة، واستطاع الخروج من ذهوله الشديد بسرعة؛ فسأل عامل كاجي:

- ما هذا؟

- كما ترى يا سيدي.. إنه شباك، وقد صنعناه في ورشتنا.

نظر السيد ماريوس إلى الشباك بانتباه شديد. وبعد لحظة صمت طويلة نسبياً، سأل مرة أخرى:

- أي ورشة تقصد؟

- ورشة كاجي يا سيدي.

صمت السيد ماريوس قليلاً، قبل أن يواصل استجوابه للعامل:

- أعرف أنكم قد تصنعون حدوة بغل، أو حدوة حمار مثلاً، وبعض الأشياء البسيطة؛ كشحذ السكاكين والسيوف، وتستطيعون طبعاً صنع شبابيك نوافذ متواضعة، ولكن كيف استطعتم صنع هذه التحفة؟! لا أصدّق في الواقع!

أجابه العامل بزّهو:

- بلى يا سيد ماريوس.. لقد وفد إلى ورشتنا حدّاد بربري مدهش.. إنه يستعمل التصوير قبل صنع هذه الأشياء، وأنا من ساعدته.. لقد أنجزناه معاً.

أطال السيد ماريوس النظر إلى الشباك، وفكر في الحدّاد البربري،
وتساءل باستغراب: متى كان البربر يمتَهنون مثل هذه الحرف،
ويبرعون فيها؟! لقد بدال له الشباك جميلاً أكثر من أي شيء آخر،
ويحتوي على قدر غير مألوف من الإبداع، بل شعر وكأنه أمام
سجاد زينة مصنوع من خيوط حرير نادر، ومن نسج أنامل
عذارى متمرسات في المهنة. وهبت في نفسه رائحة الأميرة سانيس
وأنوثنها المتحفزة، وشم رائحة فتاة مجهولة بارعة الجمال. وفي لحظة
ما، أحس وكأنه أمام صورة سحرية تتحكم في مشاعره! لم يفهم
السيد ماريوس تفاصيل الأشكال التي على الشباك، لكنها عكست
في نفسه صوراً مألوفة بالنسبة إليه. وهذا الأمر هو ما أثار استغرابه
وإعجابه أكثر من أي شيء آخر. كما أن الألوان جعلته يحسّ وكأنه
في بيته، أو في مجال كان دائم الحضور في نفسه وأمام عينيه، وتساءل
بصوت حائر كتّمه داخله: كيف استطاع هذا الحرف صنع هذا
الشباك الباهر!؟

- سأذهب لرؤية هذا الرجل لو سمحتم! يمكنكم إكمال
الاجتماع، واتخاذ القرار الذي ترونه ملائماً.

رد أحد أمناء المجلس:

- خذ معك هذا الشباك يا ماريوس.. يكفي.. لقد رأيناه.

صمت السيد ماريوس قليلاً، وقال:

- لا، سيبقى هنا.

ركب السيد ماريوس جواده، وطلب إلى العامل الالتحاق به. مشى بهدوء وسط شوارع المدينة وأزقتها، وبدا مغموراً بإحساس غريب يجتاحه.. شعر بأن هناك لمسات سحرية غير عادية في الشباك، وأدرك أن الحرفي البربري لن يكون إلا شخصاً استثنائياً جداً، و متمكناً من صنعه إلى أبعد الحدود، وسيكون- لا شك- قد أخذ الصنعة عن حداد روماني ماهر. وفي الطريق إلى ورشة كاجي، كان السيد ماريوس يتلقى تحيات الحرس وضباط الجنود وعلية القوم في مدينة أرتو. وخيم مساء رطب راسماً طقساً كثيباً على المدينة، التي فاجأها فصل خريف مبكر. على حين بدأ عمال المدينة وأصحاب المحالّ والمتسوقون يستعدون للعودة إلى منازلهم.

اقترب السيد ماريوس من ورشة السيد كاجي، التي تراءت له من بعيد مجرد ورشة عادية وصغيرة، تشغل بناية قديمة لا تكاد تلفت انتباه أحد لولا الضرب المستمر لمطارق العاملين اللذين يزاولان فيها عملهما اليومي. نظر السيد ماريوس حوله، وتأمل شجيرات الرند التي أصبحت أطول بفضل العناية المستمرة التي تحظى بها، وشعر بالزهو للجمالية الأخاذة التي أضفتها الأشجار على الأزقة والشوارع. وقف أخيراً بجواده أمام حدادة السيد كاجي. وفجأة وقعت عيناه على شاب بهي الطلعة، منشرح الملامح؛ شاب يبدو موسيقياً، أو شاعراً قوَّالاً أكثر منه حداداً. بعضلات مفتولة، يفترض أن تكون قوية، وبكتفين عريضتين جداً. لكن السيد ماريوس ما كاد يتخلص من هذه التصورات حتى أحس باستغراب، وشعر بأن الشاب مختلف بالفعل، وبأنه غريب

في كل شيء! وبالتأكيد، فإنه لن يكون بربرياً من سكان جبل المدينة ولا من جوارها. لّفه ذهول في الوهلة الأولى. ولما كان من طبع السيد ماريوس السيطرة بسرعة على انفعالاته، فقد استطاع سريعاً الرجوع إلى صفاء ذهنه:

- كيف حالك يا سيد كاجي؟

رفع العجوز رأسه محاولاً رؤية الشخص الذي يحدثه. وسرعان ما عرف، من خلال نبرة الصوت الواثق، أنه السيد ماريوس؛ نائب رئيس المدينة وقائد الجنود والحرس العام:

- بخير.. بخير يا سيدي...

- تلقينا شباكك، ونريد أن نعرف من صنعه.. هناك تساؤلات وأشياء ينبغي تفسيرها.

أجاب العجوز كاجي مشيراً إلى أنير متبرّئاً:

- هذا البربري الغريب يا سيدي.. لقد طلب عملاً؛ فقلت له: برهن على مؤهلاتك. والنتيجة كما رأيت. ولقد بعثت إليكم الشباك؛ لكي لا أخرج عن قوانين الصنعة في المدينة.

نظر السيد ماريوس إلى أنير، وخاطبه بلهجة جادة، وبنظرة فيها البعض من الترفع البسيط، ولكن ذلك التصرف لم يبدر من السيد ماريوس إلا بسبب ضعف باطني شعر به حيال الشخص الغريب الذي يقف أمامه شامخاً كشجرة من أشجار الرند الياضعة:

- ما اسمك أيها.. ال...؟

رد أنير الذي ظل طوال الوقت صامتًا، وهو مُدرك - بحسّه الثاقب - أن الرجل الذي يحدثه بهذه اللهجة لا يمكن إلا أن يكون من كبار قومه؛ ولهذا أجابه على نحو مثير لدهشة كاجي وللسيد ماريوس أيضًا:

- دَعْنِي أَخْمَنُ.. لعلك أحد جنود المدينة، ولعلك تكون بمرتبة قائد سرية تؤهلك لتحدث بهذه اللهجة، ولكن هذا لا يهم.. اسمي أنير، وأنا ما جئت إلى مدينة أرتو إلا لغرض شريف، وإذا كان هناك ما يستدعي استنطاقي، فينبغي أن أعرف السبب.

رد السيد ماريوس بهدوء، وبحكمة ممزوجة ببعض الغمز الخفي:

- نحن لا نروم استنطاقك أيها الشاب، ولكننا نريد استفسارك عن أشياء معينة.. وهذا من حقي بوصفي نائبًا لرئيس المدينة، وقائدا عامًا لجندها، وقائدا عامًا لحراسها، وأكبر تاجر للسجاد في المنطقة أيضًا.

نظر إليه أنير، وطيّف ابتسامة ساخرة لطيفة ترسم على وجهه بهدوء:

- أفهم أن هذه اللباقة في الحديث لا يمكنها أن تتأتى إلا لرجل بقدر مقامكم.. أقصد أكبر تاجر سجاد في المنطقة.

رد السيد ماريوس، وهو يتحفز للكز جواده استعدادًا للمغادرة.. لقد شعر بضيق لم يعرف كيف يتصرف حيالَه:

- على أيّ حال، قد يكون اجتماع أمناء وأعضاء مجلس المدينة

على وشك الانتهاء، ويجب أن ألحق بعض الأشغال هناك، وسيكون لي معك حديث مهمّ يوم غد.

ابتعد السيد ماريوس دون أن ينتظر رد فعل من أحد. وطوّال ذلك الوقت، ظل العجوز كاجي يرمق أنير بنظرات محمّلة بغضب وأسى عميق؛ أسى لم يجد طريقه إلى عيون العجوز منذ أن ماتت زوجته الرائعة الأولى كيريا، قبل سنين عديدة جرّاء إصابتها بمرض الفالج، بعد سنة واحدة فقط من زواجهما. بلع ريقه بصعوبة، وأدرك أن هذا الشاب يحمل في ثناياه الشر والشؤم، وندم على إعطائه الفرصة لصنع ذلك الشيء الذي اعتقد أنه سيكون شباكًا، وها هو يلطّخ سمعته في مجلس المدينة، وربما أصبح بدوره متورّطًا في جُرم لا يعلم كُنْهه، ولا تداعياته.. لقد غادر السيد ماريوس غاضبًا، ولن يمرّ غضبه ببساطة طبعًا:

- انصرف أيها الغريب.. لا أرغب في رؤيتك هنا أبدًا، وإلا هشّمت رأسك.

لم ينبس أنير بينت شفة.. لقد شعر بأنه خطأ أول خطوة في الطريق الطويلة التي تفصله عن الفتاة الرومانية التي طالما تخيلها وكأنها إلهة فينوس، التي سيطرت على تفكيره زمنًا طويلًا. ولاحظ، على نحو مثير، أن نظرات استغراب ساكني أرتو نحوه قد هربت مع ريح المساء الباردة.. أي كيمياء كان يحملها جسده؟ وأي لعنة؟! لعل ذلك الحريق المستعر، الذي استشعره السيد كاجي يمور في أعماقه، قد خمد وضاع إلى الأبد في هواء المدينة؛ ولذلك لم يعد أنير مثيرًا

لاستغراب سكان أرتو الذين ألفوا رؤيته في أزقة المدينة وشوارعها، ولم يعد يثير دهشتهم بتميُّزه الواضح من الأمازيغ الذين يعرفونهم جيداً.

في السجن

ودَّع أنير السيد كاجي الغاضب، وكذلك العاملين اللذين تعلقا به، ولم يجباً أن تجري الأمور على ذلك الشكل. دفع للعجوز مقابل المواد الأولية الحديدية التي استخدمها، مع تعويض مناسب عن الوقت الذي استغرقه في ورشة الحدادة لصنع الشباك. وحين خرج من الورشة، وجد الظلام قد بدأ ينزل ثقيلًا ومُملًا على المدينة. شمَّ في نفسه رائحة الحديد والصباعة التي استعملها في تلوين الشباك، وشعر بأنه مقرف، وبأن هيئته توحى بكونه شحاذًا، أو بالأحرى متشرِّدًا كما هو في الواقع. أخذ يجوس الشوارع والأزقة المظلمة، اللهم إلا من مشاعل متفرقة بعيدة نُصبت في أهم وأكبر الشوارع. أحسَّ بالتعب والجوع والنوم، ولم يكن معه ما يكفي لشراء طعام، أو لحجز حجرة في خان رخيص. بحث عن مكان آمن يبيت فيه في الشارع، لكن لسعات البرد القارس أبعدت بسرعة هذا التفكير عن ذهنه. جلس، حين انعدمت كل الحيل أمامه، في زاوية حائط بناية قديمة تحجب الريح الباردة، ثم انكمش على نفسه. حاول أن ينام، لكن البرد بدأ يلسعه بقسوة، برد لم يتعوّد عليه في بلدته الصغيرة البعيدة دريو. فكَّر في الأيام الجميلة التي قضاها في كوخ

السيد بيكاو، وتذكر تيرينا التي حَمَمته بيديها الناعمتين، وأسبغت عليه عناية أنثوية لا يمكنه نسيانها؛ تيرينا التي يشدُّه إليها حنين خاص؛ حنين لشخصها ولروحها الجميلة أكثر من كونه خوفًا عليها وعلى مصيرها؛ لأنه يعرف أنها نشأت هنا، وسيكون لديها معارف هنا بلا شك، رغم أنها أمازيغية؛ وبالتالي فأنير يعتقد أنها في مأمن، ولكن السؤال المحير الذي ظل يشغل ذهنه هو: لماذا هربت منه حين كانا فوق جبل الأمازيغ؟. هل افتعلت قصة مرافقته إلى مدينة أرتو كمبرر للهروب من عزلة خلاء لا يمكن لإنسان عاقل أن يعيش فيه؟! وبينما هو منشغل في هواجسه وتساؤلاته، أيقظه وقع حوافر جياد قوي على الأرض.. إنها فرقة من بضعة حراس مراقبة يجوبون النقاط المظلمة في المدينة. وقفوا بمحاذاته تمامًا، حتى إنه شمَّ في أنفاس الجياد رائحة شعير فاسد. خاف أن تدوسه حوافر الجياد، وترفس رأسه أو طرفًا من أطرافه. نهض بسرعة؛ فسأله أحد الحراس:

- ماذا تفعل هنا أيها البربري اللقيط؟

- لا شيء!. كنت أحاول أن أقضي ليلتي في هذا المكان. أنا غريب عن المدينة.. هذا كل ما في الأمر.

أطبَّق الصمت على الحراس، حين سلطوا عليه ضوء المشاعل التي كانت في أيديهم.. لم يتكلم أحد منهم. كانوا يتساءلون إن كان هذا هو الشخص الذي طلب السيد ماريوس اعتقاله، وإيداعه سجنَ المنحرفين عقابًا على سوء تصرفه ووقاحته. اعتقد أنير أنهم ربما يكونون في حالة

الدهشة والذهول نفسها التي كانت تتتاب كل من تقع عيناه عليه لأول مرة؛ ولذلك حاول الانسلاخ من بينهم مبتعداً، غير أن أحد الفرسان أشهر في وجهه السيف، وخاطبه بحزم:

- تقدّم أمامنا.. هناك مكان آمن تستطيع المبيت فيه. وفي الصباح سنغرّضك على قائد الحرس لينظر في أمرك.

وبعد لحظات، ألقى أنير نفسه مرمياً بين مجرمين وشحاذين وقطاع طرق.

لم يستطع أنير النوم؛ بسبب الجوع والبرد والرائحة التّينة التي تفوح في المكان. ورغم كل شيء، تمدد على الأرض، ليجد نفسه وقد نام نوماً مضطرباً. غير أنه استفاق - في النهاية - مرعوباً على وقع شلال من ماء نتن كان ينهمر على وجهه، ولم يكن ذلك الماء إلا بول ثلاثة صعايك لم يتبين هيتهم؛ بسبب ظلمة الصباح الباكر:

- انهض أيها البربري الوضيع، هيا.. أرنا كم يوجد لديك من مال؟!

ولحسن حظ أنير، دخل الحراس في تلك اللحظة إلى السجن؛ السجن الذي لم يكن إلا مغارة صغيرة محفورة أسفل جبل صغير:

- هل يوجد هنا شخص باسم أنير..؟!!

هكذا نطق الحارس اسم أنير محرّفاً، ولكن أنير عرف أنه هو المطلوب:

- نعم.. أنا هو أنير يا سيدي...

تقدم إلى الخارج... السيد ماريوس يطلبك في مقرّه.

ولكي تجعلِي عَجينة سهلة الاستعمال
أضيفي عسلاً يتقطر من خلايا إغريقية
ومع أن البخور يهدئ الآلهة والأرواح الغضبي
فلا ضرورة أن تمنحيه كله لنار المذبح.

محنة أنير وتواهي

نهض أنير بصعوبة من مرقده في السجن، وتقدم نحوه أحد الحراس وسط عتمة تُغيب كل الألوان والأشكال. تلمّس الحارس يدي السجن الأمازيغي، ووضع عليهما أغلالاً حديدية ثقيلة:

- اللعنة! بولك يشبه بول عجوز مريض بداء المعدة! أنت في هذا العمر وتفعلها في نومك؟!

قال الحارس بتأفف، وهو يشم رائحة بول نفذت إلى خياشيمه. وقبض على أنير من قفاه، ثم قاده كما يُقاد لص في سوق. وفي مخرج السجن، سمع أنير، وهو مغمض العينين، أصفاد الباب الحديدي الضخم تُغلق:

- هل صنّع هذا الباب في ورشة السيد كاجي؟

سأل أنير الحارس بعفوية ساخرة، وهو يداري أشعة شمس
فاجأت بصره، الذي تخمرت فيه عتمة كثيفة طوال الليل
والصباح.

- كُفَّ عن هِزارك غير الظريف أيها البربري النَّزِق! فلولا
تعليمات السيد ماريوس لكسرت رأسك بعُقب هذا السيف.

فكر أنير في الوقت الطويل الذي فارق فيه بلدة دريو،
واستحضر الأحداث الماضية، وتذكر سانيس؛ الفتاة الرومانية
الفاتنة، التي دعتَه إلى زيارة مدينة أرتو، وها هو الآن- بعد مضي
بضع سنوات- يصل المدينة، محاولاً البحث عن تلك الفتاة التي
لم تفارق ذهنه أبداً. إنه يشعر نحوها بجاذبية حبّ مختلف عن أي
حب يمكن تصوره. لقد أحب زهرة الجمر، ولكن ذلك الحب لم
يكن كافياً ليُجعله يتمرد على كل شيء، بما في ذلك التخلي عن حلمه
الدائم، ومحاولة الارتباط بالمراهقة الأمازيغية الفاتنة التي لم تكتف
مشاعر حبها الهادر تجاهه. والآن يجد نفسه في قبضة حارس فظّ،
يقوده إلى الشخص الذي حدّثه أمس بتعالٍ، ويبدو أنه من كبار
القوم وسادتهم في المدينة. تُرى كيف سيتعامل معه؟! وماذا يُبيّت
له؟! هل يعيده من جديد إلى السجن القذر، وسيُنسى داخله إلى
أن تأكله الديدان والبراغيث؟! كيف يستطيع الوصول إلى سانيس؛
ابنة قائد الجيش الذي لم يعد يذكر اسمه:

- سيدي، أريد مقابلة سانيس.. إنها ابنة قائد الجيش.. لقد

نسيت اسمه!

- «أضمت أيها الوغد البربري!. كيف تتجرأ وتطلب طلبا بليدا كهذا؟!».. قال الحارس، وضرب بعقب السيف كتف أنير.

شعر أنير بالألم والإجهاد. لم تقوَ قدماه على حمله، وبدأ فاقداً تماماً للقوة؛ بسبب شغل أمس الشاق، وبسبب الجوع الذي يطوي معدته؛ حيث إنه لم يتناول طعاماً منذ ضحى أمس. كان الصباح يطل فاتراً على مدينة أرتو، والناس يسرون بهدوء وسكينة، وطار سرب من الكراكي بعيداً، وتحركت ريح خفيفة، ولكنها باردة.

وسط القمامة

قادت فرقة الحرس، المكوّنة من خمسة أفراد، أنير مصفد اليدين. وظل يبذل جهداً جبّاراً كي يستطيع جرّ جرة رجليه، ولكنه عجز في الأخير، ثم سقط تاركاً جسمه في يد الحارس القوي؛ الحارس العملاق الذي لم يتورع عن توجيه لكمة محكمة إليه، أسقطته على الأرض فوراً، وهو يتلوّى ألماً. خاطبه الحارس الفظ:

- لا تميت الآن أيها الكلب الأجرّب.. نحن في حاجة لتبقى حيّاً، على الأقل إلى أن نسلّمك للسيد ماريوس. وفي النهاية، انهار أنير تماماً.. لقد فقد كل قواه دفعة واحدة، وفي تلك اللحظة مرّ السيد جينيو ومعاوناه على العربة التي تنقل القمامة من أمام أبواب المنازل والمحلات. وقبل أن تبتعد العربة، صاح قائد فرقة الحراسة منادياً:

- يا.. أنت، جينيو، تعال.. نحتاج إلى عربتك لبعض الوقت.

أدار السيد جينيو البغلين، اللذين يُجْران العربّة، في اتجاه فرقة الحراسة، وحينذاك لم يكن جينيو في حاجة ليفهم الموقف؛ فقد رأى الحارس العملاق يرفع أنير عاليًا، ويرميه في العربّة فوق قشور الخضرة المتعفنة، وفوق أحشاء السمك التنتنة، وبراز رُضّع أصفر مائع تسبح فيه الحشرات، وقماش لنساء حائضات، وماء أسود هو عبارة عن عصارة لكل القذارة الممكنة تخيلها. وبينما كان أنير يحاول تغيير وضعيته وسط القمامة، وجد رجله تغرق في جسم جنين ميت متفسخ، حام حوله ذباب كبير الحجم، وأصبح عرضة للسعات البعوض، وكانت العربّة تهتز في سيرها السريع، وأنير يترجرج وسط جحيم من الوسخ العجيب. وحين وصلت العربّة إلى أمام بناية الرئيس، سحب الحارس أنير من العربّة، وأنزله بعنف. واصلت العربّة سيرها بعدما تركت في جسم أنير الكثير من قذارتها ورائحتها العطنة. أدخل الحارس، عظيم الهيئة، أنير، مُجْرَجْرًا إياه من القفا، حتى أوصله إلى باب بناية الرئيس.

وبينما كان الحارس الضخم يجر أنير وسط البناية النظيفة، التي تلمع جدرانها وأرضيتها البرّاقة، استمر خيط من ماء متخثر عَفِن يتبع خطوات أنير، وكانت هناك أيضًا بعض بقايا القمامة، التي ظل الكثير منها ملتصقًا بوجهه وثيابه وشعره. أدخله الحارس بعدما استأذن السيد ماريوس، الذي لم يصدّق-

في البداية- ما يراه بعينه أمامه. أشاح بوجهه، وراح ينظر بعيداً من خلال النافذة العريضة، وقد ارتسمت على تقاطيع وجهه الوسيم، المدهون بزيت تزيين، علامات تقزُّ لم يستطع إخفاءها، رغم المجهود الجبار الذي بذله. وقال بلهجة متعالية من غير أن ينظر إلى أنير:

- من فعل بك كل هذا؟!!

وقبل أن يجيب أنير، انبرى أحد الحراس قائلاً وكأنه يُفشي سرّاً خطيراً:

- ثم إن هذا البربري القَدِر، يا سيد ماريوس، يسأل عن الأميرة سانيس!

نظر السيد ماريوس بفضول إلى أنير. صُدِم بكلام الحارس، واشتعلت داخله شكوك غامضة. منذ أن رأى هذا الغريب أمس، وهو يشعر نحوه بشعور متناقض.. شعور إعجاب وحسد، وها هو الآن يؤكد تخميناته بسؤاله عن الأميرة سانيس! تُرى لماذا يسأل هذا البربري الوسيم الوافد من مكان بعيد عن الأميرة؟! تجاهل هو اجسه، وتركها مؤقتاً جانبا، ولكنه ركز نظره من جديد في أنير، وأعاد السؤال بحِدَّة أكثر:

- من جعلك على هذه الحال أيها البربري؟! ثم لماذا تسأل عن الأميرة سانيس؟

أجابه أنير بصوت لا يعكس شكله التعيس:

- أنت مَنْ فعل بي كل هذا، يا سيد ماريوس. ثم إنني لا أسأل
عن الأميرة سانيس.. أسأل عن سانيس أخرى!

التفت السيد ماريوس إلى أنير مستغرباً:

- حسنا! قد أفهم أنك تسأل عن سانيس أخرى، ولكن لماذا
تحمّلني مسؤولية ما حدث لك؟!

- بسببك طردني السيد كاجي من الشغل، ولم يكن لدي مال
لأكل شيئاً، أو لأحجز حجرة في خان متواضع، فوجدت نفسي
متشرداً في الليل، وحرّسك هم من قادوني إلى السجن، ثم أتوا بي في
عربة جينيو مدفوناً وسط القمامة...

همهم السيد ماريوس، وقال بصوت خافت، وكأنه يخاطب نفسه:

- قد يكون ما قلته يا... صحيحاً! سأمرُّ مَنْ يأخذك حالاً إلى
بائع ملابس، وإلى حمام، ثم إلى مطعم، وسنحجز لك غرفة في خان
لائق مدة أسبوع.. يمكنك اعتبار ما فعله مجرد تعويض بسيط
عن المتاعب التي لحقت بك بسببنا.

و حين أخرج الحارس اللفظ أنير من مكتب السيد أنير، ظل
هذا الأخير يفكر في هذا البربري الغريب الذي لم يصادف مثله من
قبل. لقد بدا له أذكى وأخطر بكثير ممّا يمكن أن يخطر على بال،
وأخطر بكثير أيضاً ممّا يوحى بأنه مجرد بربري وسيم وذكي؛ فقرّر
أن يترك وراءه الجواسيس، وأن يشغله بشيء ليرى ما يخفيه، وليعرف
ما يخبئه من أسرار.

قدارة شاب

كانت العصافير الصغيرة تغرّد في حديقة منزل الرئيس أوريلوس سيبو، وتصل سمع الأميرة سانيس تلك التغريدات البديعة؛ فتتشر في روحها إحساسًا بسعادة لا توصف. لقد حلمت، في الليلة الماضية، عدة مرات، بشاب بهي الطلعة يزورها في مرقدها، ورأته في منامها يرتدي ثوبًا أبيض ناصعًا، وكان يقول لها إن مدينة أرتو تكرهه، ولكنها كانت تغضب، وتردّ بعصبية: «لا، إنها لا تكرهك.. مدينة أرتو لا تكره أحدًا»، والشاب يقول لها: «ولماذا لا يعاملونني معاملة لاثقة؟». وحين كانت سانيس تود أن تسأله توضيحات أكثر، كانت صورة ذلك الشاب الغامض تبتعد عنها شيئًا فشيئًا.. لتغيب في النهاية!

استحمت الأميرة سانيس بسرعة وسط رغوة صابون صلصالي أحمر، ولم تطفئ هذه المرة الفقاعات التي نبتت بكثرة على جسدها البضّ.. تركتها من تلقاء نفسها تنطفئ ببطء الواحدة تلو الأخرى. وبينما كانت تهتمّ بمغادرة فناء المنزل، رأتها الخادمة بيرينة، وكانت بيرينة على وشك إنهاء إعداد طعام الفطور؛ فطلبت من سيدتها الصغيرة البقاء لحظة؛ لأن الفطور جاهز تمامًا تقريبًا، لكن الأميرة سانيس قالت إنها ذاهبة لتستنشق هواء الصباح، وستعود - بعد قليل - لتتناول وجبة الفطور. لم تستغرب الخادمة مثل هذا السلوك من سيدتها الصغيرة؛ فقد تعودت عليه. وفي ذلك الوقت أيضًا، انشغل الرئيس أوريلوس سيبو بمراجعة بعض التقارير، التي

جلبها معه أمس من مكتبه؛ ليتحقق من ضرائب الفلاحين والتجار، والقيمة المدونة على ورق جلدي ملين، والأموال التي عُرِضت أمس في الاجتماع، وباقي الفلاحين الذين عجزوا عن دفع الضرائب؛ بسبب التلف الذي طال فلاحتهم، أو المحال التجارية التي أصابها الإفلاس، وكانت للحاكم أوريلوس سيبو السلطة التقديرية لإصدار الأحكام بناءً على التقارير التي يتلقاها، وبناءً أيضاً، وفي كثير من الأحيان؛ كما كان يفعل في السابق حين كانت صحته جيدة، على وقوفه ميدانياً على الحالات الواقعية ليرى مدى صحة ما يدون في التقارير، وما يوجد على أرض الواقع، غير أن صحته المتدهورة، منذ بضع سنوات، لم تعد تسمح له بمزاولة عمله ميدانياً؛ ففوّض جلّ صلاحياته إلى بعض أمناء مجلس المدينة وأعضائه.

تناول أوريلوس سيبو فطوره بمعية زوجته السيدة واري، ووجد ذلك اليوم جميلاً، وقال لزوجته إنه يشعر بصحته تتحسن، وإنّ آلام المفاصل قد خفّت عليه، وإنه تغوّط دون شعور كبير بالألم؛ فقد أصبح مرض البواسير، الذي يعاني منه منذ أمد بعيد، أقلّ شراسة من قبل. واستطاع الحاكم - بعد ذلك - أن يتجول قليلاً على طرف الجدول، الذي يجري خلف منزله الكبير، وراقه منظر الماء وهو ينساب بين الأحجار الملساء الملونة، وبين بعض أعشاب جميلة تُبهِج النظر، وتناهت إلى سمعه تغاريد الطيور الفرحّة المتقافزة بين شجرة سرو وأخرى، ورأى من بعيد قطعان ماعز ترعى في الخلاء، وشعر لذلك بنشوة غامرة تتسرب إلى روحه العميقة، وعاین بعض

الجنود، وهم يتدربون في ساحة ليست ببعيدة، وكانوا بارعين في استعمال السيوف ورمي الرماح، وملاءة الزهو.. لقد أصبح لأرتو جيشها القوي الخاص، ولن يجرؤ- بعد اليوم- أحد على مهاجمتها. وفكر في السيد ماريوس، الذي استطاع- بحكمته وحماسة شبابه- أن يحوّل المدينة على النحو الذي أصبحت عليه الآن، كما استطاع أن يحمل عنه حملاً ثقيلاً، وكم تمنى الحاكم أوريليوس سيبو لو رضيت ابنته سانيس بهذا الشاب الرائع زوجاً لها، لاسيّما بعد معركة الذئاب، وبعد الوضع الاعتباري الكبير الذي أضحى السيد ماريوس يتمتع به في أرتو.

غادرت الأميرة سانيس المنزل من خلال باب الخديقة، وصادفت ذلك اليوم طقساً مشمساً عكس أمس، واستطاعت أن تشم رائحة زهور الأقحوان وأريج الرند الفوّاح، ورائحة أشجار السرو البعيدة التي يحملها نسيم بداية الشتاء، الذي بدا لطيفاً ذلك اليوم. ورأت الطيور المهاجرة تُعبّر السماء بأسراب كبيرة. مرت بمحاذاة مخزن سجاد السيد ماريوس، وهو مخزن مغلق دائماً، ولا يُفتح إلا حين سحب كمّيات من السجاد منه لتصديرها إلى خارج أرتو. وجدت الأميرة سانيس- في النهاية- نفسها في شارع بناية الرئيس، الذي لا بد لها من عبوره للوصول إلى وسط المدينة بمسافة أقلّ. وفجأة بدأت تشعر بارتجاج عنيف يهزّ جسدها كلّها، وأحسّت بجذب مغناطيسي غريب يجرّها إلى مكان معين من بناية الرئيس! وحين أصبحت تقف قريباً من البوابة الكبيرة، شعرت بدوخة، ولم تستطع أن تتناسك، وكادت تجد نفسها تنقاد إلى داخل البناية، ولكنها قاومت

بشدة حتى تمكنت من الاقتراب من شجرة رند، ثم أطبقت على جذع الشجرة بكلتا ذراعيها، وتمسكت به بقوة.

سمعت - بعد عدة لحظات - ضجّة وضوضاء أمام البوابة الكبيرة، فرفعت عينيها لتستطلع الأمر. وقبل أن تفقد الوعي تمامًا، كانت قد رأت شابا بربريا، يُدفع بفضاضة إلى الخارج، ويرتدي أسماً بالية، معفراً بقذارة ووسخ في كل جزء من جسمه، وتنبعث منه رائحة عطنة لا تُحتمل. لكن الأميرة سانيس - في تلك الفترة القصيرة جداً، الفاصلة بين يقظتها وفقدانها للوعي - كانت قد رأت في الشاب أيضاً إشعاعاً ينبعث من روحه العميقة كنور سماوي مرشوش بأنفاس الآلهة. وتسربت إلى روحها تلك الموجة الغامرة من النور؛ لتشعل داخلها حريق عاطفة هادرة نحو هذا الشاب. استفاقت من دوخة قصيرة ألمت بها، وشعرت برجفة تهزّ جسمها الرشيق، ونظرت تلقائياً إلى المكان الذي رأت فيه ذلك الشاب.. ذلك الشاب البربري القذر الذي يرتدي أثواباً رثة، وملطخة بالوسخ.. ذلك الشاب الذي تنبعث منه رائحة عطنة، ولكن روحه تبعث نوراً باهراً تسرب إلى أعماقها كقطرة ماء باردة في يوم شديد الحر. نظرت إلى السماء؛ فوجدتها قد تحولت إلى لون رمادي قاتم، ورأت الطيور، التي تعشش غالباً في ثقوب أبنية المدينة، تهرب متوجسة إلى كل جهة. وهبت فجأة ريح غبارية غير معتادة. نهضت سانيس، وقد احتواها خوف مفاجئ، ونظرت حولها؛ فرأت بضعة حراس في أمكنة متفرقة، وبعض العابرين

والعمال المنهمكين في تشذيب أشجار الرند وسقيها بالماء، وبعض عمال نظافة الشوارع والأزقة. بدأ العرق ينزل من جبينها، وأحسّت بضيق يخفقها، وشعرت وكأنها ترى ذلك الشاب ينظر إليها من بعيد، وبيتسم بكآبة، وكان مرحاً وحزيناً في الوقت نفسه، قبل أن تضع تفاصيل ملامحه في النهاية. ركضت في الأزقة عائدة إلى منزلها، واندلعت داخلها حرارة غير عادية اجتاحت كل جسدها في الأخير، وسرعان ما اختفت هذه الحرارة حين ابتعدت عن وسط المدينة. وفي النهاية، وجدت نفسها قريبة من القصر، وواصلت الركض بقوة إلى أن ولجت الفناء:

- «سيدتي سانيس، هل طاردك من جديد؟!».. قالت الخادمة بيرينة، وهي تقصد الفتى الأمازيغي تواهي، الذي حاول ذات مرة أن يخطفها. أجابتها سانيس، وهي ترمي جسدها المشوق على السرير:

- نعم.. إنه يطاردني دائماً، بل أشعر به هنا والآن، وفي منامي أيضاً!

أيقنت الخادمة بيرينة، حينذاك، أن سيدتها الأميرة تتحدث عن ذلك الشخص المجهول، وغير الواقعي؛ ذلك الشخص الموجود فقط في مخيلة سانيس، واطمأنت؛ لأنها كانت متوجسة منذ أن أخبرتها سيدتها عن ذلك الفتى الذي انتزعت منه الخنجر؛ لأنه حاول قتلها. أعدت بيرينة حماماً فاتراً لسانيس، وأفرغت في حوض الماء بعض الروائح المنشّطة وماء الورد. نزعَت سانيس ملابسها

قطعة قطعة، وتدلى شعرها مجعداً أشقرًا كأموح هادرة، وبدت كإلهة فينوس في ألقها وأبهتها. وضعت قدميها بهدوء في حوض الماء، ثم استلقت بارتخاء بجسدها الجحيمي، وأخذت الصابون الصلصالي الأحمر، وراحت تمسّد به جسدها تمسيداً ليّناً أدخل النشوة إلى نفسها. وخلال ذلك، كانت ترى الشاب بهي الطلعة ينظر إليها بإعجاب، وكان يتسمم، وكان قد تخلص من قذارته وكرهه لمدينة أرتو، وكانت الأميرة سانيس سعيدة لذلك. وحين تكونت رغبة كبيرة حولها، أخذت فقاقيع الصابون تنبت على خصرها النحيف وفخذيها ونهديها، وسانيس تستمتع بإطفاء كل فقاعة ببطء وبنشوة لم تشعر بمثلها من قبل.

تجاهل

سمع صوتاً أجشّ، لكنه مرّن على نحوٍ أثار استغرابه:

- لن تهرب من المدينة.. لقد وضع السيد ماريوس وراءك العيون! إنه لا يريد بك شراً طبعاً، ولكنه يحتاج إليك.

هكذا خاطب أنير أحد الحراس الذين رافقوه إلى محال الثياب، وإلى الحمام، وإلى المطعم، وإلى خان سيتو اللائق؛ حيث حجزوا له حجرة مدة أسبوع إلى أن يوفر له السيد ماريوس منزلاً محترماً يقيم فيه. كما زوّدوه بقدر من المال. وأرجأ السيد ماريوس محادثته إلى يوم آخر حين يكون أنير في صفاء ذهن كامل، وفي راحة تامة.

وجد أنير حجرته في الخان الجديد نظيفة، وتحتوي على سرير مريح، وأغطية تكفي لصد موجات البرد، التي أصبحت أكثر حدة مع بداية فصل الشتاء. خرج إلى المدينة. أحب أن يتجول قليلاً، ويكتشف الأماكن والمعالم التي تستحق الاكتشاف. أرتو، كما حدثه عنها السيد بيكاو، مدينة جميلة، مبنية وفق طراز معماري متناسق، تكاد المنازل فيها تتشابه، لولا الفخامة التي تتسم بها بعض البنايات، التي من السهل معرفة أنها إما لعضو أو أمين في مجلس المدينة، وإما لأحد الأثرياء الذين راكموا ثروات عبر سنوات طويلة من العمل المشروع أو غير المشروع، أو ورثوها أباً عن جد؛ كما هو الشأن بالنسبة إلى بعض الصناعات المربحة؛ كمصنع الزجاج، وصياغة الذهب والفضة، وتجارة السجاد والحريز، ومعصرة النبيذ. عبّر أنير أحد الأزقة التي تقود إلى وسط المدينة. وفجأة لمحها كما في حلم عابر لا يمكن القبض عليه. تساءل ودقات قلبه تتسارع:

- هل يمكن أن تكون هي؟! يا لها من مصادفة رائعة ستكون!

رأها تسير برفقة امرأة في حوالي الخمسين من عمرها، وظل أنير يراقبها من الخلف.. كل شيء يدل عليها، وكانت ترتدي ملابس فاخرة؛ ملابس لا ترتديها إلا بنات علية القوم في مدينة أرتو. قطع الزقاق بسرعة، وحاول أن يقترب منها أكثر. وفي الأخير، وجد نفسه على بُعد أقل من عشر خطوات منها. أصاخ السمع لعله يستطيع التقاط صوتها في حديثها مع المرأة البدينة، لكنهما كانتا تسيران صامتتين. اقترب منها كثيراً.. حينذاك تأكد من أنها هي بالفعل، ولم يكن في حاجة ليرى

وجهها ليتأكد... هكذا عرفها دومًا بتلك النفحة المشرقة من الوهج الجميل، الذي يتفجر من ملامحها المليحة. ناداها بلطف:

- تيرينا.. تيرينا...

كادت الفتاة تلتفت إلى الوراء، ولكنها حافظت، فجأة، على هدوئها، وهي تسير بجانب المرأة الخمسينية البدنية. مرة أخرى ناداها باسمها. تجاهلته، ولم تُعِرْ مناداته أي اهتمام. ردد في نفسه: أأكون مخطئًا إلى هذه الدرجة؟! وهل تكون في أرتو فتاة أخرى شبيهة بتيرينا إلى هذه الدرجة أيضًا؟! تقدم إلى الأمام، ونظر إليها مليًا، وتبين تمامًا أنها تيرينا.. تيرينا التي رافقت رحلته الطويلة من كوخ بيكاو إلى مدينة أرتو طوال أكثر من شهر، لتختفي فجأة من أعلى جبل حي الأمازيغ:

- تيرينا، أنا أنير...

نظرت إليه الفتاة مستغربة، وردت عليه بحدة:

- ماذا تقول أيها الأحمق؟ أنا لا أعرفك! اغرُب عن وجهي، وإلا ناديت أحد أفراد الحرس، وحينذاك ستجد نفسك متورطًا في تهمة تخرش بفتاة رومانية في الشارع العام.

شعر وكأن دلو ماء مثلج قد أفرغ على جسمه في ذلك اليوم البارد. تساءل بحيرة:

- لماذا تجاهلتنى تيرينا؟! ولماذا أيضا فرّت مني في جبل حي الأمازيغ؟! لا بد أن في الأمر شيئًا ما خطأ!

حاول المحافظة على توازنه قبل أن يقول لها في الأخير:

- أنا موجود لمدة أسبوع في خان سبتو.. إنه أكبر خان في المدينة.. تعرفينه ولا شك، وإلا يمكنك أن تسألني السيد ماريوس؛ قائد الجيش والحرس، وأكبر تاجر للسجاد في المدينة.. تيرينا.. إنه أكبر تاجر للسجاد في أرتو.

كان أنير يقدم هذه المعلومات بشبه سخريّة مُرّة، والفتاة تبتعد غير مبالية، إلى أن اختفت وسط الناس والمتسوّقين، ووسط الأزقة الضيقة الملتوية، ولم يحاول أنير أن يلحق بها.

موت بطل

طغى الهدوء على الأجواء في قصر الحاكم أورليوس سيببو، غير أن الخادمة بيرينة، التي لا تتوقف عن الحركة، ظلت وحدها منشغلة بأشياء لا أحد يستطيع تحديد ماهيتها، ولكنها كانت دوّمًا خادمة بارعة في طهي الطعام، وترتيب أفرشة حجرات النوم، وتنظيم قاعة الجلوس، وتنظيف أجنحة القصر نظافة تليق بمكانة حاكم المدينة وبسيدتها الأولى واري. وكانت الأميرة سانيس متمدّدة على سريرها، غارقة في أحلامها الهلالية الجميلة، والواخزة بألم هادئ جوارحها. أصبحت الآن تشعر بغرام حقيقي تجاه شخص حقيقي، وأيقنت أن ذلك الشخص لن يكون إلا ذلك المتشرد الوسخ، الذي رآته أمام بوابة بناية الرئيس، لكن حدسها الداخلي أخبرها أن ذلك الشاب، الذي اقترن أخيراً بهيئة الشاب الذي يزورها في أحلام

يقظتها ومنامها، سيكون أنيقاً وجميلاً وطيب الرائحة؛ تلك الرائحة السماوية التي نفذت إلى روحها العميقة، رغم أن تنانة لا تطاق كانت تتبعث منه. فجأة طرقت الخادمة بيرينة الباب، فأعطتها الأميرة سانيس الإذن بالدخول:

- سيدتي، هناك شخص غريب يريد مقابلتك.. إنه لا يكف عن البكاء منذ وقوفه بعيداً عن حديقة المنزل.. إنه يبدو بربرياً من حي الجبل!

استغربت الأميرة سانيس.. من يكون هذا الشخص البربري الغريب الذي يريد مقابلتها؟! ولماذا لا يكف عن البكاء؟! طبعاً، فهي متأكدة من أن هذا الشخص ليس هو ذلك الشاب، ولن يكون.. ذلك الشاب البربري الذي يعرض لها في المنام له نفسية فرحة ومزاج رائق وسخي. وفي كل الأحوال، فارس أحلامها لن يبكي أبداً.. هكذا فكرت، وهي ترتدي ملابس الخروج.

- احترسي سيدتي!. قد يكون ذلك القاتل. من الأفضل أن يرافقك أحد الحراس.

قالت بيرينة بروع، وهي تذكر حادث الاعتداء، الذي تعرضت إليه سيدتها الأميرة سابقاً، فردت سانيس بهدوء:

- لا شيء يدعو إلى القلق يا بيرينة.. اطمئني.

وعندما غادرت الأميرة سانيس المنزل عبر بوابة الحديقة، وجدت ريحاً خفيفة تهب، وأحست بنسائم بحرية بعيدة محملة

بأعواد أشجار يابسة مُشْرَبَة بمياه بحر مالحة، ومذاق زبد بحري متيِّس على أحجار الشاطئ، الذي يمتد طويلاً، وكأنه لا نهاية له. وتخيَّلت بحاراً يَلْفِظُ أنفاسه وسط البحر بعدما تسرب الماء إلى مركبه الصغير، ورأت النوارس تصدح بنواح كئيب. وفي الأخير، وجدت نفسها أمام الموسيقي الأمازيغي لوطر، يستند إلى حائط مخزن السجاد الذي يملكه ماريوس. بدا في حالة انهيار شبه تامة. أشفقت عليه، واستغربت وجوده على تلك الحال. لقد كان دائماً موسيقياً حالمًا؛ موسيقياً ينثر الفرحة والحبور في حي الأمازيغ كله، من خلال معزوفاته الموسيقية التي تنساب من الجبل كخير مياه بين أكواخ القصب والقشّ، وكرحيق عبق بالأريج، لتصل تلك النبرات إلى السفح. رفع الموسيقي الأمازيغي عينيه الباكيتين إلى الأميرة سانيس، وخاطبها مفجوعاً:

- مات الفتى تواهي!

فكرت سانيس قليلاً، وحاولت أن تجد صلة ما تربطها بهذا النبأ، لكنها فشلت. فهي تعرف الفتى البربري تواهي، وتكنّ له احتراماً خاصاً؛ لأنه قاد فرقة الحراسة التي شكلها الموسيقي لوطر لحراستها في حي الأمازيغ، وتذكر أنه حاول اختطافها وقتلها ذات مرة على نحو بريء وجميل جداً، ولكنها تعلم أيضاً أنه حارب بشراسة دفاعاً عن مدينة أرتو في معركة الذئاب؛ مدينة أرتو التي لفظته دائماً، كما لفظت باقي السكان الأمازيغ بوحشية بالغة، ولكن هل يجب أن تعلم بموته أو تحزن من أجل موته؟!!

- لتتغمده الآلهة برحمتها.

هكذا قالت الأميرة سانيس، وهي تهمّ بالمغادرة، ولكنها تداركت:

- وعليك ألا تقتل نفسك بالبكاء يا لوطر! لديك زوجة بارعة الجمال.. ابقَ حيًّا لأجل تيرارا.

بهذه العفوية عبرت الأميرة عن رجائها، وكأنها توقعت فعلاً موت الموسيقى لوطر بسبب البكاء.

- سيدتي الأميرة سانيس، يجب أن أشرح لك الموقف.. هناك وصية من تواهي، أو بالأحرى معروف ودّ لو تفعلينه لأجله بعد موته.. لقد كان يحبك.

ردّت بعفوية غريبة:

- لن يكون طلبه طبعاً أن أتزوَّج جثته!

- ربما كان الأمر يشبه ذلك، ولكن بطريقة مختلفة جداً.. لقد حدّثني عن حادثة محاولته اختطافك، وكيف أنك نزعْتَ الخنجر من يده، وكيف أنه فزع على نحو غير عادي!

قالت الأميرة سانيس باستغراب:

- يا للآلهة!! هل مات بسبب الفزع؟

- لا أعتقد سيدتي، ولكنه ركض وقلبه يكاد ينخلع من مكانه إلى أن دخل حيًّا الأمازيغ. زرته في فراشه بعدما أصيب بحمى مباحثة

لازمته أيامًا طويلة. فكلنا نعرف أن تواهي لا يمرض، وأنه كائن صلب كما لو أنه صنع من حديد! لقد روى لي كل شيء، وقال إنه مُغرَم بك، ولكنني أخبرته أنك الأميرة سانيس، بنت حاكم أرتو؛ فأصيب تواهي بياس قاتل. خرج إلى الشارع شارداً لا يكلم أحداً، وظل يركض في أزقة حي الأمازيغ مدة يوم ونصف يوم من غير توقف، ودون أكل ولا شراب، وكان يردد اسمك في البداية بصوت مجلجل يهتز له الحي كله، ولكن هذا الصوت ظل يخفت - مع مرور الوقت - إلى أن انتهى تمامًا، وروى بعضهم أنهم رأوا شفثيه تتحركان في آخر خطواته البطيئة قبل أن يتداعى، وفي الأخير سقط على الأرض سقطه نهائية. وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، طلبني، فذهبت إليه، وأوصاني بما يأتي:

- ادفن معي القضيبي المصنوع من فرع شجرة السدر، وحاول إقناع الأميرة الرومانية بأن تدفن لباسها الداخلي بجانب جثتي في القبر، وحاول إقناعها كذلك بأن تفعل ذلك بنفسها، وقل لها بأنني أحببتها كما لم أحب شيئاً آخر في حياتي!

ظلت الأميرة سانيس تستمع باهتمام بالغ، وبدا أنها تأثرت بقصة موت تواهي الغريبة. قررت - في الحال - الذهاب مع الموسيقي لإلقاء نظرة أخيرة على جثمان تواهي الذي كان ممدداً في قبره، وعلى يساره القضيبي الشهير المصنوع من غصن سدر؛ ذلك القضيبي الذي طالما زرع طقوس رعب عجيبة في حي جبل الأمازيغ. بدا الموسيقي حزيناً ومنكسر القلب.. لقد فقد أحد أشهر فتيانه، وأكثرهم نبلاً

وشجاعة وإخلاصاً أيضاً. وبينما استمرت الأميرة سانيس تمشي بجنبه شاردة، رأت شاباً غريباً عن المدينة، يرتدي ملابس أنيقة، وتفوح منه رائحة طيب تنفذ إلى روحها، وتنشر داخلها إحساساً، يتزايد مع كل خطوة، بالتعلق بهذا الشاب الذي أيقنت أخيراً أنه حقيقة يجب أن تكون ملموسة. قاد الموسيقي لو طر الأميرة إلى صعود زقاق ضيق دفنت على جنباته قبور قديمة وحديثة، بعضها منبوش بطريقة عبثية، واصطف على امتداد الزقاق عدد هائل من سكان حي الأمازيغ جاؤوا للإلقاء نظرة الوداع الأخيرة على روح الفتى تواهي. وكانت سانيس تمشي بأبهة أميرية غير مصطنعة؛ أبهة لصيقة بشخصيتها العفوية، وقد بدت رائعة بجاذبيتها التي لا تقاوم، حتى إن نساء حي جبل الأمازيغ وحسناواته، فغرّن أفواههنّ، وهن يرين كائنة بالغة الحسن، وطافحة بسحر خارق!

- هذا هو القبر، وهذه جثة تواهي! قد لا تتعرفين إليه، ولكنه أصبح على هذا النحو بعد يوم ونصف يوم من الركض تائهاً وسط أزقة الحي من دون توقف، ومن دون ماء ولا طعام!

نظرت إليه الأميرة سانيس مستطلعة، وبدا كلام الموسيقي لو طر صحيحاً.. لم تكن لتتعرف إليه لولا ذلك الشعر الطويل المميز المربوط بسلك نحاس. لقد يبس جلده، والتصق على عظامه الناتئة، واختفى اللحم من وجهه نهائياً؛ فبرزت عظام وجنتيه، وبدا رأسه أشبه بجمجمة مغلّفة تغليفاً مُحْكماً بجلد ثور منقط. ورأت إلى يسار جثة تواهي القضيب الرفيع المصنوع من فرع شجرة سدر.

أطبق صمت رهيب جمّد كل الأصوات في حي جبل الأمازيغ، واستمرت دموع الموسيقى لو طر تتساقط من عينيه بهدوء، واصطففت الجموع، على نحو منظم وبطقوسية فريدة، وكأن الموت ألزم الأمازيغ بذلك النظام الصارم. كانت الأميرة سانيس ترتدي تحت ثوبها الخارجي ثوبًا داخليًا يصلح أحيانًا للنوم، وهو لباس شفاف أحمر اللون. أخذت أمام مرأى الجميع تنزع لباسها الخارجي. فغمر الجميع أفواههم استغرابًا لما يروّنه. وبعد ذلك، وبغفوية أكثر من غريبة، شرعت تسحب ثيابها الحريرية الداخلية قطعة قطعة، لتصبح - في الأخير - عارية تمامًا، وبدا جسدها شهياً، يفوح برائحة رحيق عسل وردي فاتح. رتبت الأميرة سانيس ألبستها الداخلية بهدوء، وعلى نحو متناسق ليتناسب مع قامته جثة تواهي. أحدث عري الأميرة رجّة في صفوف الحاضرين، فشُهد بعض الفتية والشبان، وبعض الشابات أيضاً، يسقطون فاقدِي الوعي جرّاء رؤيتهم جسداً تصوّروا أنه لا يمكن أن يكون إلا لإلهة فينوس، التي تجسدت في هيئة الأميرة سانيس.

كف الموسيقى لو طر عن البكاء فجأة. بدوره كان ينظر مشدوهاً إلى جسد سانيس الفاتن. لقد شعر بحالة غريبة، وهو يعاين بلذّة معذبة ردفِي الأميرة وخصرها وثديها وعنقها وسرّتها وساقها وفخذها.. إنه جمال مدهش وخارق؛ جمال أخذ أنفاس الموسيقى لو طر على نحو مريع.. كان قريباً منها، فرأى جسدها ينز بقليل من العرق، وشم في إبطيها رائحة عسل قوية ومذهلة. لم يصدّق حاسة شمّه، ولكنه كان أمام الحقيقة.. حقيقة عرق يفرز رائحة

عسل لذيذ. أنهت الأميرة سانيس مهمتها بهدوء، غير مبالية بما يحدث حولها، فارتدت ملابسها الخارجية، وحينذاك عادت موجة أخرى من وشوشات خافتة، سرت سريعاً بين الجموع المصطفة على جانب الزقاق. عادت الأميرة سانيس برفقة الموسيقى لوطر إلى أسفل الجبل؛ ومن ثمة إلى مدينة أرتو. ودعت الموسيقى، الذي كان غارقاً في موجة ذهول غير مسبوقه، ولم يستطع منع نفسه من التفكير في جسد الأميرة العاري، ورائحة العسل الشهية التي شمها في عرق إبطينها، وإعجابه اللامتناهي بجسدها الحارق، الذي جعله يسمع موسيقى مذهلة بدأت منذ تلك اللحظة تتسرب من أسفل قدميه إلى جسمه كله.

أيتها الإلهة الذهبية،

المكحلة بسنابل القمح،

لماذا عيدك يكتب ابتهاجنا؟

إن أمم العالم تمجد غلالك وما من إلهة تعطي البشرية مخزوناً أوفر.

أفولاي والقبر الأبيض

توقفت قافلة السيد أفولاي؛ تاجر الملح، بجنب وادي كيل، واد فيه كلاً وماء يجري من نبع يخرج من صخرة، ويسيل ليُشكّل بركة حولها أشجار نخيل غير جيدة الرُّطب، ونباتات شوكية جافة. انشغلت البغال، التي أنزل من فوقها مساعدا السيد أفولاي أكياس الملح، بالشرب والاستراحة، بعد سير طويل مجهد. نظر السيد أفولاي ناحية الغروب، فاستشعر رجفة سرت في جسده، وفكر في أنير، ورؤعه هاجس أن لا يجده أبداً، لكن خاطراً ما جعله موقناً بأنه في الطريق الصحيح إليه.

فتح كيسه الشخصي، فأخرج منه طعاماً، وأخذ يتناول خبزاً يابساً مع ماء، على حين استسلم ساريل المساعد الأجير لغفوة طويلة، وكان مساعده المخلص الدائم، الشاب أسافو، يحدّق في

السماء، ويتابع بعينه طورًا متفرقة، ويترنم بأغنية تخرج مناسبة وعذبة من خلال صوت جميل. وفجأة تذكر السيد أفولاي أيقونة ثفوشت. بحث عنها بارتباك في الكيس الذي يحفظ فيه أمواله وأغراضه النفيسة. وارتاع حين لم يجدها، فتلون وجهه برعب استبدّ به فجأة، وتحيل لعنات مريعة ستعصف بأنير وبالقافلة، وانتابه إحساس بأنه خان وصية المعلم ماسين، وخان شعب الأمازيغ! هرول بخطوات عرجاء إلى مساعده أسافو، ووضع على كتفه يده المرتعشة، وقال بصوت يعتصره إحباطٌ مهول:

- أسافو.. أسافو، أيقونة ثفوشت ضاعت.. ولا أعرف كيف أجدها!

حوّل أسافو بصره إلى أفولاي، وخاطبه بوّد صادق:

- سنعرف أين نجدها يا سيدي، ولكن - قبل ذلك - يجب أن نهدأ ونفكر بصفاء.

شبّك السيد أفولاي يديه، وتحرك قليلاً في مكانه، ودوّامة من حيرة كبيرة تطوّح به. نهض أسافو، ووقف أمام السيد أفولاي، مخاطبًا إياه بلهجة واثقة:

- أعتقد أنني أعرف مكانها.

تهلّل وجه تاجر الملح، ولمعت عيناه ببريق تفاؤل كان قبل قليل شبه مفقود:

- ليتك تعرف أيها الشاب المخلص!

- رأيتها في يدك يا سيدي في آخر استراحةٍ لنا، وكنت تتأملها تحت ضوء البدر، ورأيتك تنام في النهاية، ولست أدري مصير الأيقونة بعد ذلك، ولكنها إذا لم تكن ضمن حاجاتك الخاصة جداً، فإنها ستكون قد وقعت من يدك قبل استيقاظنا في الفجر لنكمل رحلتنا.

تنهد السيد أفولاي، ثم مسح عرقاً خفيفاً غطى جبينه، وقال كالحالم:

- يلزمنا يومان كاملان للعودة إلى المكان، وإحضار الأيقونة!. ولا مناص من أن نفعل.

- لترتح أنت يا سيدي.. سأقوم بالمهمة وحدي. سنريح وقتاً كثيراً. سيبقى معك ساريل كي لا تشعر بالوحدة، ولكي يساهم معك في حماية القافلة.

- لا يا أسافو، لا ينبغي أن نتركك تذهب وحدك!. الطريق طويلة.. وقد تعترضك مصاعب جمة.

- ليس هناك من حلّ إلا أن أذهب وحدي.. لن نستطيع، على أيّ حال، الاتكال على شخص آخر. ثم إنه لا يمكننا العودة بكل القافلة.. سنزهرق البغال، وهي مُحَمَّلة بكل هذه الكمية من الملح.. وسنخسر الكثير من الوقت أيضاً.

- حسناً.. كان بوّدي أن أمنعك، ولكنك تعرف قيمة هذه الأيقونة، وتعرف ماذا يمكن أن تعنيه للشعب الأمازيغي.

- سأنتقل من فوري.. وتوقعُ عودتي في أقل وقت ممكن.

- لترُعَكَ الآلهة يا أسافو.. أنت شابّ طيب.. لن أنسى لك هذا الصنيع الجميل العُمَرَ كُلَّهُ.

جمع أسافو، بعجالة، بعض الأكل والماء، ووضع سيفه في الغمّد. كان يعرف صعوبة المهمة وخطورتها، ولكنه يحفظ للسيد أفولاي معروفًا لن يستطيع أن يرد له ولو نزرا يسيرًا منه مدى العمر.. لقد أنقذ حياته من لدغة ثعبان قاتلة. جد أسافو في السير، قاطعًا مسافة طويلة وسط خلاء صعب التضاريس. وظل السيد أفولاي يعتصر ألمًا صامتًا؛ ألمًا بدا واضحًا في ذبول عينيه، وفي الشحوب الذي طال سحنته المجعّدة. خاف على الشاب أسافو، الذي ساعده سنواتٍ طويلة في تجارة الملح، وعاونه مرات كثيرة على تدوين مخطوطات نادرة، وترميم أخرى. لقد بدا الكهل أفولاي مجهدًا، ولم يفهم كيف أنه سمح للشاب بخوض هذه المغامرة المَهولة وحده، ثم أيّهما الأولى بالمجازفة؟! البغال والملح، أم الشاب أسافو؟! تساءل بلوَعَة مُرّة ومحيّرة، ولم يستطع للممة إحباطه الشديد، لكنه استمر محتفظًا بتفاؤل حذر.

استفاق المساعد الأجير ساريل، فلاحظ الانهيار البادي على السيد أفولاي، وبحث بعينيه، اللتين تشبهان عيني ذئب شرس، عن أسافو في الواحة، لكنه لم يره:

- أين أسافو؟

ولم يتلق جوابًا عن سؤاله من السيد أفولاي، قال ساخرًا:

- هل ذهب للصيد؟. لا يوجد هنا إلا الضباع والثعابين السامة.

- اصمت يا ساريل.. اصمت، لا أريد سماع مثل هذا الكلام!

ضحك ساريل، وقهقهه عاليًا:

- هل تخاف الثعابين والضباع... أيها العجوز الطيب؟!

نظر إليه السيد أفولاي نظرة غاضبة، ولكنه كظم غيظًا عارمًا داخل نفسه.. لم يكن السيد أفولاي سريع الغضب في العادة، ولكنه يجد نفسه أحيانًا في حالة انفعال شديدة ومفاجئة تلمّ به... قال بهدوء:

- أسافو ذهب إلى الموقع الذي استرخنا فيه آخر مرّة، وسيقطع مسافة طويلة، وأنا خائف عليه يا ساريل!

- لا تخف أيها العجوز.. أسافو شاب شجاع، يتقن استعمال السيف، ولن يخاف من الضباع والثعابين السامة... نم.. نم.. نم بهدوء.. لا تشغل بالك به.

حلّ الغروب سريعًا، وتضاعفت مخاوف السيد أفولاي على رفيقه الدائم الشاب أسافو؛ فجالت بخاطره هواجس، ولاحظ سرّبا من طيور سوداء غطّت فجأة السماء؛ فشعر بشؤم وتطيّر، وندم ندمًا شديدًا على سماحه لأسافو بالعودة وحيدًا في هذا الليل إلى المكان البعيد المفترض أن توجد فيه أيقونة ثفوشت. نزل الظلام ثقيلًا؛ فسكنت الحركة إلا من نقيق ضفادع، وأصوات هوامّ ليلية غريبة. تمدد ساريل على الفراش، ثم غطّ في نوم بدا عميقًا جدًا. على حين ظلّ السيد أفولاي يراقب النجوم، ويفكر في خطوات أسافو

في الخلاء الموحش، واجتاحه موج هادر من الذنب؛ فلم يستطع إغماض جفنيه. وفي الوقت نفسه كان شخير ساريل يتعالى، وحنَّ السيد أفولاي إلى صديقه المخلص المعلم العجوز ماسين؛ صانع الأحذية، وأيقن بحسّ غامض أنه سيكون قد فارق الحياة، وسرّه أنه لم يعيش اللحظة المرة والمؤلمة، التي قد يكون الموت اختطف فيها صديقه الحميم، وارتاح لكونه لن يستطيع أبداً أن يعرف بسهولة ما إذا كان المعلم ماسين قد مات فعلاً أم لا. شعر السيد أفولاي بالتعب، وتثائب عدة مرات، وهاجمه النوم بضراوة، لكنه كان يجد نفسه في كل مرة مضطراً إلى استحضار صور متذبذبة لأسافو، وهو يسير في الظلام، وخيل إليه وكأنه يسمع خطواته السريعة على الأرض. وحلم، في غفوة قصيرة، بذئاب جائعة تحيط بأسافو؛ ذئاب تزجر وتستعد للانقضاض عليه، وكان أسافو يُشهر السيف متحفزاً لمعركة لن تكون متكافئة، وحين انقضّ أول ذئب على أسافو صاح السيد أفولاي:

- احذر يا أسافو.. احذر، هناك ذئب.. هناك ذئب.. هناك...

استيقظ أفولاي من الغفوة، وشعر بكآبة جثمت كطمي ثقيل على صدره. حاول بجهد جبار أن يبعد عن ذهنه كل الهواجس المزعجة، ولكنه لم يستطع. غير أن سلطان النوم جرفه في لحظة ضعف شديدة، فنام الكهل الحزين متوسداً كيسه الذي يحتوي على نقوده ونفائس مخطوطات لا تفارقه... وفجأة شعر بيد تهز كتفه برفق.. لقد كانت يد الشاب أسافو.

تهلل وجه الكهل بفرح تقافز من تجاعيد وجهه كطفل،
وارتسمت على فمه ابتسامة عريضة:

- مرحبا يا أسافو.. أرجو أن تغفر لي هذا الخطأ.. ما كان ينبغي
أن أجشّمك عناء السفر وحيداً في ليل خلاء موحش!. يبدو أنني
نمت طويلاً.

جال أسافو بعينه حول الوادي، وتساءل برّوع:

- ولكن أين ساريل، وأين قافلة الملح؟!

- ساريل!!.. قافلة الملح!!

وضع أسافو أيقونة ثفوشت في يد أفولاي، ثم خاطبه بوّد:

- ابقَ هنا.. سأحوم حول الوادي لأستطلع الأمر، وسأعود
سريعاً.

نظر السيد أفولاي إلى الأيقونة، وقبّلها بحنوٍّ بالغ، وسقطت من
عينه دمعة احترقت بسرعة فوق الأيقونة، وشعر بدفء ينبعث منها؛
دفءٍ سرى في جسده وكأنه خرج من صهريج ماء بارد جداً؛ ليجفّ
جسده بسرعة تحت شمس حارة. لم يكن قد استيقظ تماماً من دوخة
النوم، ومن فرحة استرجاعه الأيقونة. لذلك، لم يبال لسؤال أسافو
حول ساريل وقافلة الملح. عاد أسافو، بعد وقت وجيز بخطوات
مجهدة، وقال بصوت محبط:

- فرّ ساريل ليلاً أثناء نومك.. النذل سرق البضاعة!

نهض السيد أفولاي من مكانه بتثاقل. ارتجّ بسبب انفعال سريع

سرى في جسده. لم يصدّق ما سمعه من أسافو، ولكنه وقف على الحقيقة المخزّنة حين لم يرَ المساعد الأجير ساريل، ولم يرَ البغال، ولم يرَ أكياس الملح سوى ثلاثة أو أربعة أكياس يبدو أن ساريل؛ بسبب تسرعه وخوفه من رجوع أسافو المفاجئ، لم يتمكن من حملها على البغال. قال السيد أفولاي مواسياً أسافو الذي غمره إحساس بالذنب حوّل وجهه إلى شبه كتلة غامقة غير واضحة الملامح:

- لا بأس.. يمكننا شراء بضاعة جديدة من الملح، وعدد من البغال عند وصولنا إلى أول مدينة.

بدا الإرهاق الشديد على أسافو؛ فجلس على الأرض، وأخذ يعبّ من جرّة ماء. لاحظ السيد أفولاي الشحوب الذي يغطي وجه أسافو. اقترب منه، ونظر إليه ملياً، وصاح بروع:

- أنت لست على ما يرام أيها الفتى.. كيف أستطيع مساعدتك؟!

سال عرق خفيف على جبين أسافو، ودهمته حمى مفاجئة، واقشعر بدنه برداً؛ فسارع الكهل أفولاي، وخلع رداءه، ووضع على جسم أسافو الممدّد على الأرض.

- كلُّ شيئاً.. لا ريب في أنك جائع، وتحتاج إلى مقويات.. لدى خبز ولحم مجفف.. هيا كل واشرب.

لم يبدُ على أسافو أي رد فعل. غرق في غيبوبة خفيفة، كان يسمع خلالها فقط صوت خرير الماء، الذي يتفجر من صخرة الوادي، وصوت الكهل أفولاي الذي يتردد في أذنيه كصدى كلمات مخطوطة

قديمة قرأها في زمن بعيد، ورأى نفسه يمشي في الظلام ويهرول، متعثراً بالحجارة والحفر قبل أن يصل إلى المكان الذي قضوا فيه استراحتهم الأخيرة، ورأى من بعيد، تحت نور بدر بديع، إشعاعاً خارقاً ينبعث من مكان محدد، وحين وصل إلى المكان خبا الإشعاع، لكنّ لمعناً أخاذاً خطف بصره، وكان ذلك اللمعان يصدر من الأيقونة. لقد وجد أيقونة ثفوشت أخيراً. مدّ بفرح يده المرتجفة، والتقط الأيقونة من الأرض، فأحسّ بها مفعمة بدفء عجيب؛ دفءٍ تسرّب إلى نفسه، وشحنه بموجة غريبة من شهوة عارمة؛ شهوة أغرقتة في عرق تصبّب منه في الحال. أفرغ جسمه من الشهوة كلها دفعة واحدة، وشعر بإنهاك وبلذّة رَجّت رجّاً عنيفاً.

عاد أدراجه مسرعاً، والأيقونة في قبضته. شعر وكأنها تتحرك، وكأنها كائن حيّ يتململ في يده، كما لو أنها تقول له شيئاً. لم يفهم، لكنّ خوفاً استبدّ به، وخطر بباله أن السيد أفولاي في وضع غير مريح، وأن شيئاً فظيماً ما يحدث في وادي كيل؛ فأسرع المشي، وهرول، وركض، إلى أن وصل مجهداً جداً، وفاقداً كلّ قواه، إلى الوادي، وأصيب بخيبة أمل مريعة؛ إذ رأى الكهل أفولاي ينام وحيداً، ولا وجود لساريل ولا لأكياس الملح والبغال، وفهم كل شيء!

- أسافو.. أسافو، أيها الفتى الرائع، هل أنت بخير؟

لم يقل أسافو شيئاً، لكنه حاول النهوض. خائته قواه. عاود الكرّة؛ فاستطاع أن يرفع جسمه ليقف على رجليه، وهو يرتجف. أمسك به الكهل أفولاي، وخاطبه بصوت حان:

- يا ولدي، ماذا تريد؟

رد أسافو بحروف واهنة ومقطعة:

- أريد أن أمشي.. أنا في سفر، ويجب أن أموت وأنا أخطو.

شعر السيد أفولاي بالاضطراب، وأدرك أن أسافو على حافة النهاية، ولكنه احتفظ بالقليل من الأمل في نفسه:

- لن تموت يا بني.. ستكتب لك الآلهة عمراً طويلاً إلى أن نلقى أنير، وربما عدنا ذات مرة إلى دريو؛ بلدتنا الرائعة، وبرفقتنا أنير.

اتكأ أسافو على كتف الكهل أفولاي، وخطا مترنحاً مُلقياً أكثر ثقل جسمه على كاهل أفولاي، وتسارع لهائه، وبدا مرهقاً جداً. وفجأةً فقد توازنه؛ إذ تعثر بطرف كيس ملح، ولم يستطع السيد أفولاي أن ينقذه من السقوط، ودارت أمام عيني أسافو عدة صور؛ فرأى وراء غمام شفاف يغشي بصره أنير، ولم يبدُ له أنير في أفضل أحواله... ثم أغمض عينيه، وحاول أن يقول شيئاً للسيد أفولاي، لكنه لم يستطع تحريك شفثيه!. وفي الأخير، افترّقه عن ابتسامة هادئة، وارتخت أوصاله، وبدا كما لو أنه مات. لكنه ما فتئ أن فتح عينيه من جديد، وحاول بجهد جبار النهوض من مكانه، واستطاع أن يقف بشبه معجزة، وسار بضع خطوات وهو يترنح، قبل أن يتهاوى على الأرض، وقبل ذلك كان قد انقطع نفسه كما لو أنه نور خبا ببطء سَيْرِ قمرٍ مكتمل خلف سحابة.

جلس السيد أفولاي بقرب رأس أسافو، وأجهش بكاء هادئ..

استمر يبكي في صمت. وحين للمم شتات نفسه، نهض وسار بخطوات عرجاء، باحثًا في الجوار عن شيء ملائم للحفر، وسرعان ما وجد حجرًا ناتئًا ربيعًا قُربَ بركة الماء. عاد إلى جثمان الشاب أسافو المسجى قرب أكياس الملح، وبدأ يحفر قبرًا بمثابة لا تكل، واستعمل في ذلك أصابع يديه أيضًا. انتهى من حفر قبرٍ قدَّر أنه سيُناسب جثمان أسافو. جرَّ السيد أفولاي كيس ملح بصعوبة، ثم فتح الكيس، وأفرغ محتواه كاملاً داخل القبر، وأخذ يوزع كمية الملح بإتقان ليغطي أرضية القبر كلها. وحاول أن يحمل جثمان أسافو، لكن قواه لم تسعفه؛ فجَرَّ الجثمان، ودحرجه بحرص شديد لينزلق داخل القبر. وتوجه من جديد بخطوات عرجاء مجهدة نحو كيس ملح آخر، فتحه ثم أفرغه على جثمان أسافو. ارتاح قليلاً، ولهائه يتصاعد بوتيرة شديدة، والعرق يغسل وجهه، ويسيل على عنقه المغبرة المجددة، ويلطخ ملبسه المعفرة بالملح والغبار. وقبل الغروب بقليل، جر كيس ملح آخر، وأفرغه على جثمان أسافو، ثم إنبرى، بهمة عالية، يغطي الجثمان من كل جهة بالملح، وفي النهاية أصبح جثمان أسافو مغطى كله بالملح. ونظر السيد أفولاي الكئيب نظرة مُغرقة في الأسى إلى القبر، ثم أخذ حفنة من الملح، ووضعها في كيس صغير، قبل أن يغطي القبر بالتراب. وملاً جرّته من النبع، ورشَّ القبر بالماء. وجلس واجماً ينظر، بعيون تائهة وموغلة في الحزن، إلى القبر. وحولَّ بصره صوب الشمس التي تتهادى بسرعة نحو الغروب، وجالت بذهنه اللحظات كلها التي عايش فيها الشاب أسافو؛ فشعر بحزن جرح قلبه المتعب. ثم نهض بشاقل،

وأخذ كيسه وكيس أسافو، وتأمّل السيف الذي لم يفارق مساعده المخلص الدائم قط. أدار ظهره إلى القبر، وردّد بخفوت يعتصر ألماً حارقاً:

- لقد مات أسافو.. وأيّ فتىّ مات!!

تأبط كيسه الذي وضع داخله كيس أسافو، ومسك في يده أيقونة نفوشت؛ فتحرّكت داخله رجفة حارقة، وشعر بدفء شواه كما لو أنه دفء نار من ثلج. واصل السيد أفولاي السير بخطوات عرجاء، وصعد تلاً بصعوبة، وبانت من ورائه الشمس تغرق وراء الأفق الأحمر المتوهج، واختلط طيفه البعيد بطيف الظلام، الذي بدأ يصبّ في نفسه حزناً أكثر من أي حزن شعر به السيد أفولاي في حياته.

لا تُعط، ولكن اظهر وكأنك دائما على وشك العطاء،

كالحقول القاحلة التي تسخر من حلم المزارع كالنرد الذي لا بد من

أن يقذفه المقامرون المتحمسون،

وهم مستمرين في الخسران ليعوّضوا عن خسارتهم.

الشباك المعجز

ترك أنير خلفه، حين ولج بوابة البناية الكبيرة لمقر رئاسة المدينة، طقساً مضطرباً. فكر للحظة في لقائه بالسيد ماريوس.. هل يعكس الطقس المعكر في الخارج الحالة المضطربة التي ستتحكم في هذا اللقاء الذي بدأ يرى فيه، رغم كل شيء، مؤشرات أصبحت الآن أكثر واقعية، تقربه من الفتاة الرومانية سانيس؛ ابنة قائد الجيش الذي لا يذكر اسمه، وتقربه أيضاً من تطلع المعلم ماسين لمستقبل أفضل لشعب الأمازيغ؟ توجه إلى مكتب السيد ماريوس. لم يرافقه أحد من الحراس.. وكانت هذه أيضاً إشارة مطمئنة تعاكس الإشارة المشؤومة حول الطقس المضطرب في سماء أرتو. طرق الباب طرقات واثقة:

- ادخل.

دفع الباب، فوجد السيد ماريوس واقفاً أمام مكتبه متأهباً لاستقباله. وكما العادة، فقد بدا وسيماً، يرتدي ثوباً حريراً فاخراً، ويدهن وجهه بزيت زينة نادر وطيب الرائحة. أقبل أنير بخطواته المعتادة غير المترددة، فخاطبه السيد ماريوس بابتسامة ماكرة:

- أهلاً بالشاب البربري؛ ضيف مدينة أرتو الكبير.

- شكراً.. أيها السيد المحترم.

شك السيد ماريوس أصابع يديه، وشعر ببعض الارتباك غير المعهود في طبعه، ولكنه في آخر الأمر قال:

- أعجبت بالشباك الذي أبدعت في صناعته!

- شكراً! يسعدني أن أسمع هذا الكلام من شخص بمثل ذوقك.

- من اليوم فصاعداً ستكون أكبر...

لم يكمل السيد ماريوس جملته. لم يجد كلمة «حداد» مناسبة. وضع سبّابته على طرف فمه، وشرّد قليلاً، ولكنه - بعد تفكير قصير - أضاف:

-... أكبر مصمّم حدادة في المدينة.

- أرجو أن أكون عند ثقّتك.

- شبابيك بناية الرئيس قديمة، ومبينة بطراز عتيق.. نريد أن تصمم لنا حوالي خمسة وسبعين شباكاً جديداً لكل البناية.

- نعم يا سيد ماريوس، سأبذل كل جهد لتكون الشبايبك في مستوى قيمة البناية وجماها.

- عليك أن تتفرغ لتصميم هذه الشبايبك.. خذ الوقت الكافي، وكن مرتاح البال! طبعاً، لن تشتغل في التصميم، وأنت في ورشة كاجي.. سيتسبب لك ذلك في تشويش ذهنك.

- أرى العكس، أيها السيد ماريوس.. وجودي في الورشة، وسماعي مطارق الحدادين، ورؤيتي الحديد والشبايبك.. كل هذا سيحفز ملكة الإبداع في نفسي.

- حسناً! سيكون لك ما تريد. ثم إنني وجدت لك منزلاً جيّداً كان لأحد الأمناء، ولكنه هاجر المدينة لأسباب أراد ألا تشيع بين الناس، والمنزل أصبح في ملكية مجلس المدينة.. يمكنك السكن فيه ابتداءً من بعد غد.. لقد أمرت بتنظيفه جيداً، وإعادة صباغته وتأثيثه.. ستحبه بلا شك!

- أشكرك، أيها السيد الكريم.

- تحدثت أيضاً مع السيد كاجي، وأخبرته بكل شيء، وحتماً سيستقبلك هذه المرة بحفاوة كبيرة. سأبعث لك فوراً أوراق كتابة وأدوات تصوير.

حين خرج أنير من بناية الرئيس، حام حولها، ورسم كل أبعاد واجهاتها الأربع، وقاس، شبراً شبراً، طول الشبايبك وعرضها، ودون في الهامش معلومات إضافية. ثم توجه نحو ورشة كاجي. كان

الطقس ملبداً بغيوم سوداء، ورياح قوية تهب محملة برائحة البحر، ورائحة فتاة تفوح بطعم العسل. استقبله السيد كاجي بمودة غير طبيعية، ووجد لطفًا معتادًا من عامليه المخلصين. أخبرهما حول العمل الكثير الذي ينتظرهما، وأصدر أنير تعليماته المبدئية:

- ينبغي تشكيل ثمانية أنواع إطارات مختلفة في الحجم لنوافذ من نوعية حديد ممتاز، وسيكون القياس على الشكل والعدد الذي سأدونه لكما على هذه الورقة.

أخذ أنير قطعة من ورق جلد، وخطّ عليه مقاس الإطارات بدقة، مع الشروحات الضرورية، وأخبرهم بأنه سيختلي بنفسه ذهنيًا وسطهم لينجز الأشكال المطلوبة، وأي شيء استعصى على فهمهم، أو ساورهم شك حوله، ينبغي العودة إليه دون تردد. انهمك أنير يشتغل بوتيرة جادة، وحاول استحضر كل الجماليات الموجودة في الكون، وفكر في جزئيات باهرة.. فكر في الإلهة فينوس وفي ألقها الباهر الذي يتجلى في كل مرة بصيغته، وفكر في فتاة بارعة الجمال رافقته في رحلة ممتعة من مكان بعيد إلى مدينة أرتو، وفكر أيضًا في المراهقة الدافئة زهرة الجمر. وحاول مزاجية أشياء جميلة في الطبيعة مع ما يدور في خاطره وأحلامه. وفجأة أحس برعدة هزت وجدانه، وشعر وكأنه وسط الخلاء في ليلة باردة يراقب نجمة فينوس، واستبدّ به قلق شديد لم يعرف مصدره! وحين رفع بصره، شاهدها.. شاهدها كما لو أن جرحًا صغيرًا انفتح في قلبه، وشعر بألم لذيذ، ولكنه لم يستطع

تبين ملامح الفتاة المبهرة في جمالها. وأحس بطعم عسل يذوب في فمه، وكانت الفتاة حيثئذٍ قد غادرت؛ فصاح أنير على نحو مباغت:

- هل رأيتموها؟

أجاب أحد عاملي السيد العجوز كاجي:

- من؟. لم نر شيئاً!

- وأنت، يا سيد كاجي، هل رأيتها؟. هل رأيت شيئاً غير عادي؟. دعني أقول إنه شيء كما لو أنه يشبه نجمة فينوس!
- «نعم، رأيت شيئاً غير عادي، ولا يشبه نجمة فينوس إطلاقاً، ولكنه شيء مثير للسخرية.. لقد رأيته أنت!».. قال العجوز كاجي متهكماً. عاد أنير لإتمام شغله، وكانت تلك اللحظة التي رأى فيها الفتاة، في لمح البصر، كافية لتضفي اللمسة السحرية التي كان يبحث عنها طويلاً؛ لإنهاء عمله الذي اقتنع - هو شخصياً في النهاية - ببراعته. بدأ مطر غزير يتساقط؛ فسالت بعض المجاري وسط الشارع. وكان يلزم أنير، ليصل إلى بناية الرئيس، نحو ربع ميل، وكان عليه أن يخفي تصميماته في صندوق من حديد؛ كيلا يتبلل الجلد؛ فتسيح ألوان الصور.

أخذ الصندوق الحديدي، وهرول متوجهاً نحو بناية الرئيس، وقصد رأساً مكتب السيد ماريوس، والماء يقطر من ملابسه المبللة. استأذنه في الدخول؛ فأذن له من الفور. استغرب ماريوس كيف

استطاع أنير إنجاز العمل خلال يوم واحد فقط، وهو الذي كان يتوقع أن يستمر إنجاز تصميمات معقدة كهذه عدة أسابيع:

- دعني أرى ما أنجزته.

فتح أنير الصندوق الحديدي، وأخرج منه أوراقاً جلدية ملينة، وعرضها أمام ناظرَي السيد ماريوس، وشرع يشرح، بإسهاب، التفاصيل الجمالية الدقيقة، التي لا يمكن فهمها فقط من خلال الصور، ولكنها ستبدو أجهلاً حين تتجسد شبابيكَ ملونةً على جدران بناية الرئيس.

- «إنه عمل بارع.. نعم.. هكذا يبدو، وأتمنى أن يتجلى على النحو الذي تصفه!».. علق السيد ماريوس، الذي لم يكن من عادته التسرع في إبداء الآراء، ولكنه - في قرارة نفسه - اقتنع اقتناعاً شديداً بروعة العمل الذي أنجزه أنير على الورق، وتأكد - في الحين - أن هذا الشخص لا يمكنه أن يكون مجرد حدّاد عادي، أو حتى مصمّم عادي، وساورته عدة شكوك وهو اجس مخيفة.. فكّر في أشياء كثيرة، وتساءل برعب عن وجود بربريّ غريب في المدينة؛ بربري يقدم نفسه بطريقة مختلفة، بل - أكثر من ذلك - يسأل عن الأميرة سانيس!!

- ألا يَحتمل أن يكون مدسوِّساً من قبل الأعداء؛ من أجل تنفيذ عمل مريع في المدينة؟ ذكرى المعارك التي خاضها الحاكم أوريلوس سيببو ضد ثوار مملكة ماسيسيليا لا تزال قريبة العهد!. هزّ السيد ماريوس رأسه، وقرر التخلص من أنير، بعد أن ينهي

إنجاز الشبابيك.. لن يستطيع أن يتصور أي أذى قد يلحقه هذا البربري بالأميرة سانيس، وبالمدينة برمتها. وفي ظل استغراق السيد ماريوس في أفكاره، قال أنير مُواصلاً شرح بعض التفاصيل الجانبية:

- كما تلاحظ، أيها السيد ماريوس، فلقد راعينا في عملنا الأبعاد المتعلقة بعلو الطابق الأول الذي يختلف عن علو الطابق الثاني، وأيضاً واجهة البناية التي تظهر فيها الشبابيك للمارة أكثر بكثير من الزوايا الثانوية الأخرى.

- حسناً!.. هذا جيد.. هذا جيد.

قال السيد ماريوس، وقد هاجمته لوعة حب قديم لا يريد أن ينطفئ من قلبه، ورأى في الصور أشياء مرعبة ستظل تطارده، وهو في مكتبه.. أي سحر تنطوي عليه صور هذه الشبابيك؟!

شوقها

سارت الأميرة سانيس مترنحة تحت الأمطار الغزيرة، وكانت رجلاًها ثقيلتين، وشعرت بتعب سنوات العمر كلها. أخيراً تتعب الأميرة، وتتمنى لو يأخذها أي حارس من حراس المدينة على صهوة جواده ليوصلها إلى المنزل. تبللت ثيابها، وأصبح الماء يسيل من شعرها، ويغرق وجهها، الذي بدا كما لو أنه مغسول بعسل وردي فاتح، وازداد ثوبها ثقلاً بفعل تشربه ماء المطر. مشت في الوحل، وفقد حذاؤها لونه وهيئته العادية. والواقع أنها كانت

تحمل في قدميها كومتَي طمي. وراحت أنفاسها تتلاحق بوتيرة سريعة، ورعشة برد تسري في أوصالها. لقد رأته، ولقد رآها.. إنه هو! لم يكن هذه المرة قذراً ولا ننتناً، ولم يكن يرتدي أثواباً رثة؛ كما شاهدته في المرة السابقة. هذه المرة كانت تراقبه، وهي ترتجف ملتصقة بجذع شجرة رند.. لقد رأته منحنياً، طوال الوقت، يدوّن في ورق جلدي بتركيز شديد، وكان - من حين لآخر - يُعطي بعض التعليمات للعاملين اللذين كانا يشتغلان بصناعة إطارات حديدية ضخمة. أصرت على البقاء في مكانها تحت وقع برد قارس، وريح هوجاء، ومطر غزير، إلى أن رفع رأسه بصدفة غريبة.. هل كانت صدفة؟! لا، هي من خاطبته في خاطرها، وقالت له برجاء ساحر:

- ارفع رأسك، وانظر نحو شجرة الرند المقابلة لورشة السيد كاجي، وستراني حتماً.

وما كادت الأميرة سانيس تكمل عبارتها حتى رفع أنير رأسه، والتقت عيناهما في لمح البصر، ولكنهما التقيا كما يلتقي نجم بنجمة في السماء. لقد ارتجّ الكون كله حول سانيس؛ فغادرت فوراً متخفية وراء الناس والفرسان وأشجار الرند، إلى أن ابتعدت عن المكان.

- سيدتي، كيف تتركين نفسك في العراء في مثل هذا الطقس السيئ؟!!

قالت الخادمة بيرينة، وهي تُهرع نحو سيدتها الأميرة لتساعدتها على المشي؛ لأنها رأتها تترنح، وتكاد تسقط في أي لحظة.

- لم يكن طقسًا سيئًا يا بيرينة.. لم يكن طقسًا سيئًا.. لقد كان
أجمل طقس تمتعت به في حياتي.

أدخلت بيرينة الأميرة سانيس إلى جناحها في القصر، ثم نزع
عنها حذاءها الغارق في الطمي، وأزالت ألبستها المبللة، ثم غمرتها
بغطاء دافئ، وطلبت إليها أن تنتظر ريثما تُعدّها حمامًا بهاء ساخن..
أسرعت بيرينة، وجهزت كل شيء في وقت قياسي، تاركّة الأميرة
وحدها. تخلّصت سانيس من الغطاء، ثم نزلت إلى حوض الحمام
عارية كما ولدتها أمها. لم تتمكن من التخلص من ذلك الوجه
الذي اشتعل في عينيها كوهج خاطف إلى درجة لم تستطع معها
تحديد ملامحه بالدقة الكافية، ولكنها رأت بدرًا مكتملاً نثر ذرات
نور باهر حوّلها إلى كائن يهرب من نفسه. وخلال ذلك، أخذت
تعاين اكتمال الدائرة، لكن الدائرة ظلت ناقصة، وظلت ثغرة فارغة
كان يجب أن تغلق. غمرت جسدها بالصابون الصلصالي الأحمر؛
فتكونت حولها رغوة كثيفة، وأخذت الفقاعات الحمراء تنبت
على جسدها، وانهمكت شاردة في عدّ الفقاعات واحدة واحدة،
واستغرقت وقتًا طويلاً وهي تعدّ من دون أن تدري ما تفعل، ولا
ما يجري في مخيلتها، إلى أن فاجأها صوت بيرينة الهادئ من خارج
جناحها في القصر:

- سيدتي سانيس، هل أنت بخير؟

- نعم.. أنا بخير يا بيرينة.. أنا بخير.

أمّت الأميرة سانيس استحمامها، ثم خرجت من حوض الماء،

وسارت بخُطى أنيقة، كخطوات يمامة وديعة، دون أن تنشّف جسدها البديع، وقطراتُ ماء تسيل على وجهها وثدييها وسرّتها، وتسيل من شعرها لتخترق رديفها، وسانيس تشعر لذلك بنشوة حاملة، تنشر في جسدها رعشة عرضية لا تنتهي إلا لتعود من جديد. وبعد ذلك، تمّددت، بعُزها المضمّخ بالماء واللذة، فوق السرير، وغطت جسدها بملاءة حريرية، وغابت في أحلام بين اليقظة والنوم، ولكنها كانت تشعر بجوع غريب وفريد أكثر من أي وقت مضى من حياتها.

رَغْبَتُهُ

أكل أنير، في ذلك الجو العاصف الممطر، دجاجة كاملة في مطعم الطباخ سوسي في وسط المدينة، واحتسى قدحًا من النبيذ، ثم انطلق نحو حجرته في الخان. سار وسط الشارع، الذي احتلته عدة برك مائية جرّاء الأمطار الغزيرة، التي تساقطت طوال الجزء الأكبر من النهار. وانتشر الظلام في أزقة أرتو وشوارعها. تأمل المشاعل التي تنير الشوارع الكبيرة. ولأول مرة انتبه إلى أنها جميلة، وإلى أنها تضيء على المدينة مسحة ليلية عبقة بالفرح وبعوض الحزن أيضًا. لم ينس ذلك الوجه النوراني الذي اشتعل في عينيه في لحظة خاطفة، وتذكر فجأة أنه سمع في أعماقه البعيدة، حين كان يشغل برسم شباك معقد، صوتًا ساحرًا داعبَ شغاف قلبه بوداعة:

- ارفع رأسك، وانظر نحو شجرة الرند المقابلة لورشة السيد كاجي، وستراني حتمًا.

نعم، لقد استجاب لنداء غامض جاءه من الغيب.. استجاب لذلك النداء العذب الذي باغت حواسه بمشهد لن يُمَحَى أبداً من ذاكرته وقلبه. إنها هي.. سانيس الفتاة الرومانية التي سافر من أجلها، قاطعاً الفيافي والقفار والمخاطر من بلدة دريو إلى أرتو. قلبه أنبأه، منذ اللحظة الأولى التي وَطئت فيها أقدامه هذه البلاد، بأنها هنا، وبأنه سيلاقيها حتماً... وقد يتحقق بواسطتها ما تمناه المعلم ماسين لشعب الأمازيغ.

اقترب من خان سيتو، فلاحظ قافلة تحطّ الرحال للمبيت في الخان؛ قافلة من عدة بغال مُحمّلة ببضاعة ما، ورأى رجالاً يبدو التعبُ على وجوههم الملفوحة بالبرد والإجهاد؛ فأشفق على حالهم؛ لأنه مر بظروفهم نفسها، بل بأشدّ منها. دخل أنير حجرته، وأشعل القنديل، فوجد سريره نظيفاً، ورائحة قرنفل تفوح في الأرجاء. تمدّد على السرير بعدما بدّل ملابسه. لفّ حوله الغطاء. ولم يلبث طويلاً حتى كان قد غرق في نوم عميق، لكنه استيقظ فجأة، في وقت ما من الليل، على حلم بداله، للوهلة الأولى، وكأنه واقع؛ فقد رأى فتاة مُشرقة الوجه، جميلة الملامح، مراهقة دافئة وحيّة ترسم حولها هالة مخلوقة.. ملاك أو حمامة من الجنة! رآها تقرب من سريره، ثم جلست قرب قدميه، وخاطبته بصوت عذب:

- انتظرتك طويلاً، ولكنك خيّبت ظني، وارتكبت حماقة لا تغتفر في حقي، ومع ذلك سامحتك.. سامحتك؛ لأنك كنت -قبل

أن تولد- لفتاة أخرى؛ فتاة ربما كانت أجمل مني.. وكنت لهدف
أسمى، هدف أكبر من ألف زواج.

قالت الفتاة وهي مغمورة بإشعاع نوراني انبثق منها متوهجاً
كالجمر، ثم غادرت الحجرة مخترقَةً الجدار كما لو أنها كائن من
طيف غيبي. وجد أنير وجهه مغسولاً بعرق بارد، ووجد في فمه
عبارة:

- لا! أنت أيضاً جميلة.. جميلة جداً، يا زهرة الجمر! كل ما في
الأمر أن هناك هدفاً أسمى كما قلتِ.

ظل لحظات طويلة يفكر في تلك الحالة الغريبة التي عرضت
له.. لم يستطع أن يتخيل أن يكون ما رآه كله مجرد حلم. أصابه أرق
شديد، وشعر بضيق يخنق أنفاسه، وأحسَّ برغبة للخروج والتجول
قليلاً في الجوار. وحين أصبح خارج الخان، رأى ظلاماً مطبقاً يغلف
السماء، ونجوماً بدیعة تتلألأ على نحوٍ يثير كل أحاسيس الجمال،
الذي يمكن للإنسان أن يحمله في نفسه. ورأى فرقة من الحرس
الليلي ترابط غير بعيد في نقطة مظلمة، وفضّل التوجه من خلف
الإسطبل ليبحث لنفسه عن مكان معزول يستطيع من خلاله تأمل
النجوم وحيداً، والاستغراق في ارتشاف دفقاتها الطاقية العجيبة،
التي تغذي روحه بموجة هادئة من العنقوان. وبينما كاد- في سيره-
يتجاوز زاوية الإسطبل، اعترضت طريقه مجموعة كلاب، أغرقت في
عراك جماعي شرس. ولم يكن أمام أنير، لحماية نفسه، إلا الالتجاء
إلى الإسطبل ريثما ينتهي ذلك العراك. انزوى داخل الإسطبل قرب

البوابة، وكان ينظر، بفضول لا سبب له، حيناً إلى الكلاب المتصارعة، وحيناً آخر إلى البغال الواقف بعضها، والبارك بعضها. فجأة أحس بأصابع حادة تشبه أشواك مذراة حديدية غرزت في قفاه، وبخنجر يوضع على عنقه:

- تحرك أمامي أيها اللص، ولا تتفوه بكلمة!

حاول أنير أن يتلفظ بشيء، لكن الشخص الخشن ركله بركبته حائاً إياه على الصمت. خرج حارس الإسطل، وأنير في قبضته، غير مبالٍ بالكلاب المتصارعة التي مرّا وسطها، ثم توجه إلى أول فرقة حرس.. قال وهو يدفع أنير بفظاظة نحو حارس جامد الهيئة:

- أراد اختلاس بضاعة من خان سيتو، وكان لا بد من أن أسلمه إليكم.

قال أحد أفراد الحرس بفرحة من استطاع أخيراً اصطياد طريدة:

- لن يكون لعملنا جدوى من دون وجود أمثالك أيها الشقي.

أراد أنير أن يشرح للحارس أنه أيضاً مقيم في خان سيتو، وأن السيد ماريوس يعرفه جيداً، وأنه ليس لئلاً، لكن الحارس لكزه برُمحه في مؤخرته لكزةً أَلَّتْهُ بشدّة.. حينذاك تبين له أن الصمت سيجنبه الكثير من المتاعب. وبعد لحظات، وجد نفسه مرمياً وسط سجن عطن، تمدد فيه عدد كبير من الأشخاص. وجد في السجن دفئاً لاذعاً عكس ما توقع، لكنه كان دفئاً على أي حال.

وشم رائحة عرق ننتة تفوح في المكان، ومع ذلك التفّ حول نفسه، وحاول أن ينام، غير أن شخيرًا لا يصدّق كان يكسر جدران السجن، الذي لم يكن إلا حُفرة كبيرة حُفرت وسط سفح جبل، وكانت كل مقطوعة شخير قوية كفيلة بإسقاط بعض الغبار من أعلى الحُفرة. حاول أنير مرات ومرات أن ينام، لكنه لم يستطع. وحين داعب نوم طفيف أجفانه، شعر فجأة بفأر يعبر وجهه، وشعر بوقع أقدام ذلك الحيوان الصغير تترك أثرًا باردًا على خده وعينه وطرفٍ من شفته، وشعر بذلك الأثر يختلف عن كل شيء عرفه، وأحس به في حياته.

وفي موجز خمري،

حاول أن تطرح على المائدة أشياء ضئيلة رقيقة تعلمها أنها حسناؤك

الفاطنة، أو حدق في عينيها بعينين من شغف. في وسع النظرات

الصامتة أن تتحدث بعبارة مثيرة.

إعجاب وشك قاتل

وقفت في صباح الغد، وبعد طلوع الشمس بقليل، فتاة أمازيغية الملامح بالقرب من خان سيتو؛ فتاة أنيقة وجميلة تحمل في أنفاسها روح البحر وملحه، وكانت تنظر بقلق إلى كل الاتجاهات، وقد لاحظ صاحب الخان السيد سيتو قلقها المتزايد، فذهب إليها، وبادرها بالقول:

- أيتها الأنسة، لعلك تنتظرين شخصاً أم إنك في حاجة إلى مساعدة؟

أجابت الفتاة بتلعثم واضح:

- هل عندكم هنا نزيل جديد؟. إنه شاب، وسيكون غريباً أيضاً.

ضحك صاحب الخان، وقال بخفة روح:

- كل نزلاء الخان غرباء! أعتقد أنك تقصدين الشاب البربري أنير.

- صحيح.. نعم هو ذاك.

أجابت الفتاة بحماسة. لكن جواب السيد سيتو أغرقها في حيرة غامضة، ولم يكن ممكناً، بالنسبة إليها، هضم حقيقة تلك الإجابة بسهولة:

- مع الأسف، لقد توسمت فيه شاباً رائعاً؛ كما يوحي بذلك مظهره وكلامه اللبق، وكان يبدو دَمِث الخلق، لكنه انتهز أول فرصة ليقدم نفسه على نحو مشين جداً!

أصيبت الفتاة بدهشة، وسألت صاحب الخان:

- هل بَدَرَ منه ما يبسيء يا سيدي؟

- لقد حاول اختلاس بضاعة من الإسطبل، وكان هناك حارس؛ فقبض عليه، وسلمه من الفور إلى الحرس الليلي، وأنتِ تعرفين، بكل تأكيد، عقاب السارق في مدينة أرتو.. كما أن السيد ماريوس لن يتساهل مع جرم كهذا.

انخلع قلب الفتاة، ووجدت أن الموقف بالغ الخطورة. كما أنها لم تصدّق أن يُقدّم أنير على تلك الفِعلَة الشنيعة!. إنه شاب بريء وخَيْرٌ. لم تقتنع الفتاة بكلام السيد سيتو صاحب الخان؛ فودعته ثم مضت، وهي تفكر في ما يمكن فعله لأجل إنقاذ

أنير، وقررت من الفور التوجه إلى بناية الرئيس، والحديث إلى السيد ماريوس في هذا الموضوع؛ لأنها تذكرت أنها سمعت أنير يقول لها، في ذلك اليوم، حين كانت برفقة زوجة والدها، إنه موجود مدة أسبوع بخان سيتو، ويمكنها أن تسأل عنه السيد ماريوس. ولكن كيف تسأل عنه السيد ماريوس؟ السيد ماريوس يكاد يكون الحاكم الحقيقي لأرتو. وما نوع العلاقة التي يمكن أن تجمع السيد ماريوس بشخص أمازيغي غريب عن المدينة؟!!!

طرق أحد الحراس باب مكتب السيد ماريوس، واستأذن للدخول:

- سيدي، هناك فتاة تطلب مقابلتك.

وقف السيد ماريوس متأهّباً كعادته حين يواجه موقفاً غير مألوف، وقال:

- دَعها تدخل.

جالت تصورات كثيرة في ذهن السيد ماريوس. ظن أن إحداهنّ جاءت تشتكي لأجل شيء معين، ولكن هناك - لهذا الغرض - ديوان خاص! وهو، بصفته نائباً للحاكم، غير معنيّ بهذه الأمور الصغيرة. وظن أيضاً أن هذه الأنسة قد تكون ابنة أحد الأبناء أو الأعضاء في مجلس المدينة جاءت لتحمّل إليه رسالة من والدها، ولكن - في الأساس - لكي تجرّب، في الواقع، حظها عسى أن تحظى بإعجابه. غير أن السيد ماريوس لم

يستبعد إمكانية زيارة الأميرة سائيس العنيدة، ولكن لماذا؟! إنها الوحيدة التي تستطيع زيارته بهذه السهولة، إلا أنها- في المقابل- لن تستأذن حارساً أبداً.. كانت ستقتحم عليه المكتب فارضة إرادتها على الحرس وعلى الجميع! وبينما السيد ماريوس غارق في هواجسه، صدمه هواء بحري عليل، نفح وجهه بنسمات عذبة؛ فأحس وكأن ثيابه تهتزّ بفعل تلك النسمات الرطبة، وبدا له وكأن هذه الحسناء البربرية مرشوشة بأنفاس الإلهة فينوس. لقد رأى فتاة بارعة الجمال.. وجهها مُضيء كالبدر، وشعرها منسدل حالم، وفمها مرسوم كوردة في بداية تفتحها.. أمازيغية الملامح: واسعة العينين، سوداء الشعر، نافرة الشفتين. احترقت الفتاة روحه من النظرة الأولى، وهي تتقدم نحوه بقوامها الرشيق، وبأردافها الممتلئة. ردّد السيد ماريوس، وهو يحملق في الفتاة:

- مرحباً بك.

- شكراً جزيلاً.

- أنا في خدمتك.

- شكراً، جئتك لأمر مهمّ.

- تحت أمرك.

- لماذا زجّجتَ بأنير في السجن؟!!

قال السيد ماريوس باسمًا:

- تلك قصة قديمة، وقد طُوِيَتْ قبل أيام.. إنه الآن على وشك أن يسكن قصرًا.

- لعل أمورًا كثيرة تُحدِث في أرتو، دون علمك يا سيد ماريوس!

- مثل ماذا أيتها الشابة اللطيفة؟

- تيرينا.. اسمي تيرينا.

- ماذا تقصدين يا تيرينا؟

- يقبع أنير حاليًّا في السجن بتهمة محاولة سرقة بضاعة من إسطنبول خان سيتو، وأنا على يقين بأنه لا يمكن أن يفكر في مثل هذا الأمر بالمرَّة. أنير، يا سيد ماريوس، شخص ذكي ومتعلم، وهو ليس كأبي شخص قد تتوقع منه مثل هذا الفعل. أنير، رغم أنه وفد حديثًا على المدينة، إلا أنه على حظٍّ كبير من الفطنة لكي يفهم روح المدينة وقوانينها، ويستوعبها بسرعة، بل وإنَّ بمقدوره أن يدخل أفكار الآخرين، ويسبر خبايا ما يجري فيها! إن أنير، يا سيد ماريوس، شخصية لا يمكنك تقدير مكانتها العالية إلا إذا عايشته أو عرفته جيدًا، وقد تتاح لك مثل هذه الفرصة قريبًا؛ لأن أنير لم يخلق ليكون مجرد شخص عادي.

فوجئ السيد ماريوس بهذا الكلام الذي أدخل إلى نفسه الروع!. إذا سيكون أنير كما توقع.. شخصًا على حظ كبير من الخطورة! وإذا كان قد ترك وراءه العيون على مر اليوم، وأنه قد أبلغ ليلة أمس بوجوده في السجن، وعيّن له شبه قصر

ليقيم فيه؛ فهذا كله لكي يبقى قريباً منه فقط، ولكي تكون خطوات هذا الغريب البربري على مرأى من العيون التي بثها حوله. ولكن قناعته الآن تتغير بالكامل.. هذا الشخص يجب أن يموت، وإلاّ تسبب في موت أشياء كثيرة في حياة ماريوس وحياة المدينة، وربما شكّل خطورة حقيقية على الأميرة سانيس، ووالدها الحاكم أوروليوس سيبيو!

- أعلم أن أنير شخص لا يمكن أن تطاله الشكوك. خطأ ما سيكون قد حدث! سأحضره حالاً من السجن.

قال السيد ماريوس، ونادي بأعلى صوته:

- أيها الحارس، تعال.

حضر الحارس راكضاً، فأمره السيد ماريوس بإحضار أنير من السجن فوراً، ومن دون تأخير. ثم طلب إلى الفتاة أن تجلس على كرسي، في انتظار حضور أنير. حاول السيد ماريوس أن يستفسر من الفتاة، على نحو غير مباشر، عن نوعية العلاقة التي تربطها بأنير، ولماذا هي مهتمة بهذا الشاب كل ذلك الاهتمام البارز. لكن تيرينا كانت فتاة يقظة؛ فلم تسرّب أي معلومة قد تسيء إلى أنير من حيث لا تدري، وقد فعلت ذلك بحكمة كبيرة، ولباقة ومهارة متناهيتين. وبفضل ذلك، تواصل إعجاب السيد ماريوس بها، وتساءل برهبة:

- هل ستُنسيني هذه الفتاة البربرية الرائعة حبي الدائم لسانيس،

أم إنها ستعمّق مأساتي أكثر؟

وفجأة سمع ضجيجًا في الخارج، وجلبته، وكلمات استعملت فيها «أيها اللص القذر»؛ فتبين للسيد ماريوس أن جُنْدَه يقودون أنير بالفظاظة المعهودة، فخاطبهم بحدة:

- أدخلوه باحترام.

دخل أنير في حالة سيئة جدًا، وقد التصق بشعره بعض القش الملوث بطين أسود نتن، وتعفّرت ملابسه بوسخ وتراب مزوج بقذارة تبعث عطنًا نافذًا. لم ينظر أنير إلى الفتاة، لكنها اقتحمت بصره عنوة، وفاضت كزبد بحر مالح في روحه. لم يدّر العلاقة بين حضورها وبين مثوله بين يدي السيد ماريوس، الذي سيكون غاضبًا كما توقع، وسيطبّق في حقه عقوبات قاسية! هناك مواجهة خفية بينهما، وهي ليست وليدة اليوم، بل تعود إلى أول لقاء جرى بينهما. هل تكون زوجته الجديدة؟ هل تكون خادمته؟ هل تكون...؟ لم يستطع الوصول إلى يقين، ولكنه حافظ طوال الوقت على تجاهله التام للفتاة. اقترب أنير بخطواته الواثقة، كما العادة، وكان السيد ماريوس ينظر نحوه بمزيج فريد من الحيرة والشك، والحقْد أيضًا! لم يستطع فهم كل هذه الأحداث التي يعيشها أنير، ولم يطمئن تمامًا إلى براءة الشاب، وكان شكّه في براءة الشاب لا يتعلق بقصة محاولته سرقة بضاعة ما من خان سيتو؛ فالسيد ماريوس يعرف أكثر من أي شخص آخر أن أنير أذكى - كما قالت الفتاة البربرية الحسناء - من أن يجعل من نفسه سارق إسطبلات.

- كيف حالك؟.. أرجو ألا تكون قد عانيت كثيرًا في السجن.

نظر أنير إلى السيد ماريوس، وقال بصدق:

- لقد تعودت قسوة الحياة، وتعودت أكثر على مفاجأتها.. حياتي لم تكن سهلة، وبالتالي أعتقد أن شخصيتي قد تكيفت مع الظروف كلها، وسأستطيع تحمل دخول السجن في أرتو، من دون سبب معقول، مرة كل أسبوع طوال خمس سنوات على الأقل.. هذا إذا لم أقتل غيلة في أي لحظة.

وردد السيد ماريوس في نفسه: قد يحدث ذلك أيها البربري، وقد تموت بالفعل. لديك فراسة الكلاب أيها البربري!. ثم أضاف مخاطبًا أنير بهدوء وحكمة أصبحت ملازمة لطبعه:

- هذا جيد أيها الشاب.. لم أصدّق أنك حاولت سرقة بضاعة من خان سيتو!

- أعرف أنك أكثر فطنة من أن تُصدّق فرية سخيفة كهذه، ولكنني سأحدثك بالتفصيل عن كل الذي جرى.

سرد أنير على مسامع السيد ماريوس والفتاة، التي لم يلتفت إليها منذ دخوله، القصة كاملة.. بدءًا بالحلم الذي لم يفصح عن تفاصيله؛ الحلم الذي أيقظه من النوم، ثم اللحظة التي ألقى فيها الحرس به إلى السجن... صدّقه السيد ماريوس كما هو متوقع، واقتنع تمامًا بصحة الرواية. لكن أنير أراد أن يبرئ ذمته عند السيد سيتو.. لا يجب أن يُوصم بتهمة سرقة لم يُنَوِّ

اقتراها قط. ولذلك، طمأنه السيد ماريوس إلى أنه سيرافقه بعد قليل إلى خان سيتو لشرح الموقف، وتسوية الوضع. وبعد ذلك، التفت السيد ماريوس باسمًا إلى الفتاة، وخاطب أنير بلهجة مُحَمَّلة بمكر خفي:

- هذه الشابة اللطيفة هي التي نبهتنا إلى وجودك في السجن، ومن دونها لم يكن من السهل تكهُّن مكان وجودك، إلا بعد استجواب كل حراس الليل الذين سيكونون ربع يقظين؛ وبالتالي سنأخذ منهم، في أحسن الأحوال، ربع معلومة. التفت أنير لأول مرة إلى الفتاة، وشعر بوخز حالم يدغدغ حواسه الداخلية.. إنها تيرينا!! ياه! كم اشتاق إليها.. كم تمنى أن يراها في وقت سكنه اعتقاد رهيب بأنه لن يراها مرة أخرى أبداً، ولكنه- في المقابل- تمنى لو رآها في ظرْفٍ أفضل. وجدها مختلفة تماماً عن الفتاة التي عرفها في منزل بيكاو؛ فهي الآن ترتدي حُلّة حريرية باذخة، وتزين بأساور ذهبية ثمينة، وتغرز في شعرها المعقوص وردة حمراء لا بد أنها تفتحت صباح هذا اليوم. شعرت تيرينا، من جهتها، بإحساس غريب، وهي تغرس عينيها في عيني أنير. بدا لها شخصاً قوياً وصامداً، وبروح مليئة بالطموح والعنفوان. تنبّه السيد ماريوس إلى الموقف المشوب بعاطفة خفية تسود بين الاثنين. خاطبها قائلاً بلباقة يُجيدها براعة:

- لدى شغل بسيط.. سأنجزه، وبعد ذلك نذهب جميعاً إلى خان

سيتو .

وبينما كان السيد ماريوس يهَمُّ بالمغادرة، استدرك، والتفت فجأة إلى الوراء ليقول شيئاً، غير أنه رأى ثوب أنير ملطخاً بدم أحمر طازج في مؤخرته، فقال بهلع مصطنع:

- مَنْ فعل بك هذا؟! هل تعرضت إلى اعتداء جماعي من قِبَل نزلآء السجن؟! يا للفظاعة!!

ابتسم أنير، وردَّ بهدوء:

- لا، يا سيد ماريوس.. لم يصل الأمر إلى هذا الحد. لقد تعرضت أمس للكزة جارحة في مؤخري من رُمح أحد حُرَّاسك، ولقد انفتح الجرح هذا الصباح، بينما كنت أُجْرَجَرُ إليك كبهيمة! ردَّ السيد ماريوس باستنكار مصطنع:

- هل يكون حرس المدينة بهذه الوحشية؟!

فأجاب أنير بنوع من الدُّعابة الساخرة:

- يجب أن تكون فخورًا يا سيد ماريوس.. لقد أحسنت تدريب حُرَّاسك.

قالت تيرينا بحس الأثني الرقيق الذي يسكنها بتدفق لا ينتهي:

- سأنظف جرح أنير إذا توفرت لي بعض الزيوت والأعشاب النباتية.

فتح السيد ماريوس صندوقًا صغيرًا أخرج منه عبوة صغيرة خضراء، ومنديلًا نظيفًا، ووعاء ماء. ثم وضع كل الأغراض في مُتناوَل يد تيرينا قائلاً:

- لدينا مرهم خاص بالجروح، ومناديل نظيفة أيضاً.. تصرّفي.

- شكراً.

قالت تيرينا، وهي تشيع السيد ماريوس بنظرة غامضة.

جرح لذيذ

عاودت النظر إلى أنير. بدت أكثر تعطشاً إلى النظر إليه، وشعرت بأن في نظراته اشتياقاً مائلاً، وأسئلة حائرة معلقة على لسانه.

خاطبته على نحو بدا لأنير مفاجئاً:

- اكشفْ جرحك.

تردد أنير في البداية، ولكنه أذعن - في الأخير - لأمر تيرينا، وكان الجرح في ردفه الأيسر ينزّ، وتحيط به هالة داكنة من دم متجلط. مسحت تيرينا الجرح بالماء، ثم أخذت تغطيه بالمرهم الذي زودها به السيد ماريوس، وشمّت فيه الكثير من الأعشاب التي كان يستعملها والدها بيكاو في علاج الجروح الأدمية، وجروح الماشية.

- أنير، لعلك قد بحثت عني في حيّ الأمازيغ، حين اختفيت عنك فجأة في ذلك اليوم الذي وصلنا فيه إلى أعلى الجبل، وأنا أقدر المجهود الذي لا بد أنك قمت به لأجلي. لم تجدني! وعليّ الآن أن أشرح لك السبب.

- آه!. أرجوك تيرينا، المرهم يلهب جرحي.

لم تتفاعل تيرينا مع رجاء أنير، وأضافت:

- لعلك تذكر بأنني قررت أن أتخلى عن غريزة الأنثى في أحاسيسي، وكنت أتصور بأنني استطعت مقاومة أي اندفاع جنسي قد يدهمني، ولكن حصل شبه انقلاب في حياتي حين غسلت جسدك العاري في منزلنا.

- مؤلم.. مؤلم جدًا ما أشعر به.

واصلت تيرينا غير مبالية:

- وكنت مريضًا آنذاك، ومع ذلك استُفِزَّتْ غرائزي الجنسية على نحو مبهم، وكادت تتفجر تلك الغرائز حين جئني وأنا عارية قرب النهر الصغير، وحين لمستني، وجثوت على ركبتك لتنظر إلى أسفلي.

- أرجوك تيرينا.. الجرح يؤلمني!

لم تبال تيرينا! وواصلت كلامها:

- وحين كنا نصعد الجبل، لمحتُ شخصًا أمازيغيًا يستحم عاريًا في الزقاق، فذكرني بجسدك حين حممتك.

- ارحمني يا تيرينا.. إنني أتألم.

تجاهلت تيرينا كلام أنير؛ فأردفت قائلة:

- لم أتحمّل الموقف؛ فوجدتني مرعوبة من المشهد.. هربت بكل قواي، ودخلت إلى أزقة ضيقة ووعرة، وأنا أنزل حي جبل

الأمازيغ، قبل أن أجد نفسي وسط مدينة أرتو. واصلت الجري إلى أن دخلت، دون وعي، منزل زوجة أبي السابقة كيسيا، وهي المرأة التي رأيتني معها في وسط المدينة، وهي امرأة رومانية صعبة المراس، وقد اختلقت قصة غريبة، وقلت لها إن والدي أوصى بي قافلة كانت متوجهة إلى أرتو، وإنه كان مريضاً جداً، ومن المفترض أن يكون قد فارق الحياة بمجرد ابتعاد القافلة، واختفائها وسط غبش الغروب. أعذرني! لم أكن أودّ أن تسير الأمور على هذا النحو!.

أنزل أنير ثوبه، وغطى مؤخرته، وقال وكأنه يلفظ آخر جهده:

- يا لها من قصة! ولكن - الحمد لله - أنتِ الآن بخير.

ردت تيرينا بصوت فيه غصة أسي لا ينتهي:

- لا.. لا يا أنير، أنا لست بخير!.

- أراكِ في أحسن حال، وترتدين ثياب الأميرات.

- زوجة أبي السابقة ثرية جداً، وهي امرأة عاقر.. ورثت من زوجها الروماني الذي تزوجته بعد انفصالها عن أبي؛ زوجها الذي توفي إثر رفسة من حصانه كسرت عنقه في الإسطنبول، أموالاً طائلة، وضيعاتٍ كبيرة جداً. ولكنها تحتجزني في المنزل.. لا تريدني أن أتجول في المدينة، وإن حدث نادراً، فبرُفقتها. وهي تخاف أن تقع عليّ عين شاب من أبناء الأمناء وأعضاء مجلس المدينة؛ فيطلبني زوجاً له، وفي تلك الحالة لن تستطيع الرفض طبعاً. وأنا كما تعلم تربيت حرة في تصرفاتي، وفي التعبير عن رغباتي، ولا أجد حرجاً في قول أو فعل

أي شيء لا يضير أحدًا، على حين تريدني هي خادمة، ومسليّة لها في منزلها.. مجرد بربرية لا تنفع إلا لذلك.

- كيف يمكنني أن أخرجك من المأزق الذي تعيشين فيه يا تيرينا؟! لقد أنقذت حياتي، وفعلت أشياء كثيرة لأجلي في عدة مناسبات، وأشعر الآن بأنني مدين لك.

- الأشخاص الذين يحبون بعضهم بعضًا لا يتعاملون مع الواجب بهذا المنطق.

- رغم ذلك، أرغب في مساعدتك؛ وبذلك سأحرر نفسي أيضًا.. هي معادلة مفيدة لكلينا.. سيكون تحت تصرفي، بعد يومين، منزل من طابقين، وهو منزل جميل جدًا، ومؤثث بأحدث الأثاث.. إذا شئت اتخذت لنفسك طابقًا مستقلًا. أنا الآن أشغل مصمّم حدادة، وهذا الشغل سيُدرّ عليّ مالًا وفيرًا، وأطمح إلى ما هو أكثر في المستقبل القريب.

- لكنني لا أحب أن أكون عالة على أحد.

- إذا، لنعمل معًا.. ستكونين خير مساعد لي، وأنا أعلم المهارات التي تمتلكينها.

استأذن، في تلك اللحظة، السيد ماريوس، ودخل بخطواته الواثقة. شم من الفور رائحة توأدد جميل تتناثر في أجواء القاعة، ووجد مشاعر متوهجة تفيض لتكتسح كل شيء. أحس من ناحيته بغيره مبطنّة لم تعلن عن نفسها بالقوة المُفترضة، ولكنها غيرة كانت تخنفي في جزء ما من أعماقه البعيدة:

- لنذهب إلى خان سيتو.. فلنسوّ وضعك في أسرع وقت. لا تنس يا أنير.. ينتظرك عمل كثير في ورشة الحدادة.

- تيرينا ماهرة في التلوين، وتحسن مزج الصباغة على نحو مدهش؛ ولذا ستكون خير من سئساعدني في شغلي بورشة كاجي.

ابتسم السيد ماريوس، وقال بدهاء:

- حسنًا! هذا جيد.. يمكنها أن تشتغل في ظروف أفضل.. هنا مثلاً في قاعة مريحة. ويمكنك مواكبة عملها من حين لآخر من خلال زيارات يومية متكررة.

رد أنير بهدوء، قاطعاً أي محاولة من تيرينا للاعتراض:

- اطمئن يا سيد ماريوس.. الأنسة تيرينا تحتاج فقط إلى الألوان وأدوات الصباغة والتصميمات المصوّرة على الورق، ولها من المهارة والصبر ما يُغنيها عني وعن سواي.

ردد السيد ماريوس في نفسه بانتشاء عبارة أنير: «الآنسة تيرينا». لأك العبارة في نفسه، كما لو أنه يلوك فاكهة تين مجفّف، فيتسرب مذاقها الحلو إلى نفسه المتحفزة: «إذا هي ليست زوجّاله ولا لغيره!». هذا جيد.. هذا جيد.. أرغب في هذه البربرية.. أريدها في قصري».

نادي السيد ماريوس أحد حراسه المُخلصين، وهمس له بعيداً عن سمع أنير وتيرينا:

- هل ترى ذلك الشاب البربري الذي يقف جنب تلك الفتاة

الحسنة؟. أودّ أن أسمع عنه أخباراً طيبة في القريب، ولا أريد أن
أشم أثرًا رائحة جثته في المدينة أو في الجوار... لم أقل لك شيئاً
أيها الحارس المخلص، ولم تسمع شيئاً مني.. هل تفهمني؟ أعرف
مهارتك في إزهاق الأرواح. لن يُكشف سرُّك! وفي كل الأحوال،
سأعرف كيف أجعلك في أمان.

إنها تحب الحقول الخصبة،

لكنها ليست فلاحاً وقلبها ليس غائباً عن دروب الغرام.

أفولاي والأسرة الرومانية

نزل السيد أفولاي من فوق التل، فرأى قرية تناثرت أكوأخها بين مزارع ملونة صغيرة، وشعر بإجهاد رحلة مضنية، وتدفق عرق يابس من جبينه امتزج بالغبار، وتحول وجهه إلى شيء مبهم غير واضح المعالم. وضع كيسه على الأرض، ثم جلس فوق صخرة، وأخذ يسترجع أنفاسه بوتيرة سريعة. تأمل الغبار الرمادي الخفيف الذي يغطي سماء القرية، ورأى أشجاراً صغيرة تنبت في أرض صفراء، وبعض البهائم ترعى متفرقة بين الأكوأخ الطينية الصغيرة.

أخرج أيقونة ثفوشت من كيسه الجلدي، وصادف أن كان رأس الأيقونة يتوجه نحو كوخ على أطراف القرية، فقرر السيد أفولاي التوجه نحو ذلك الكوخ البسيط. كانت شمس المساء قد أخذت تفقد شيئاً فشيئاً حرارة بداية الصيف الدافئة. ورأى طيوراً

همراء تحلق في السماء، وسمع حفيف نباتات جافة وأزيز نحل
 وثغاء أغنام يأتي من بعيد. نهض بخمول مثقل بالتعب من فوق
 الصخرة، ووضع الكيس فوق كتفه، وأخذ يمشي مشية عرجاء
 متهالكة باتجاه الكوخ المنعزل قليلاً عن القرية. لم ير إلا قلة قليلة
 من الناس، وكانوا بعيدين، وبداله أنهم إما ذاهبون إلى أشغالهم،
 وإما أنهم أشغالهم. ورأى أطفالاً يرعون ماعزًا وغنماً. ولم يفهم لماذا
 يتوجه نحو ذلك الكوخ بالذات! غير أن رغبة قوية كانت تدفعه
 دفعًا إليه، من غير شعور بالتوجس أو محاولة جادة لاستشراق
 ماذا سيصادف في الكوخ، وأي نوعية من الناس سيلتقي هناك.
 ظل، منذ أن دفن مساعده ورفيقه الدائم أسافو في وادي كيل، واثقًا
 بحدسه. أخرج شيئًا من الملح فشتمّه، وشتمّ معه روح أسافو المفعمة
 بأريج حياة تندفع من مكان عميق جدًا، لكنه مكان شعربه
 السيد أفولاي قريبًا، وكأنه ينبعث من داخله تمامًا. تذكّر إخلاص
 الشاب، وتفانيه في المهام التي أوكلت إليه دائماً، وموته المفجع،
 وقبر الملح الذي دفن فيه. اقترب السيد أفولاي من الكوخ؛ فهرع
 بعض الدجاج هربًا، وأطلق كلب هزيل نباحًا متكاسلاً، قبل أن
 ينكمش من جديد متكورًا تحت شجرة خرّوب نصف ميتة. لم تعد
 خطوات الكهل المجهد أفولاي تُسعفه.. أصبح يجرّ رجليه جرًا،
 حتى إنه حفر بخفيه السميكين خطًا متواصلًا على الأرض طيلة
 المسافة التي قطعها، بين الصخرة والكوخ، قبل أن يجد نفسه، من
 دون وعي، أمام باب خشبي عتيق. لم يطرق الباب.. دفعه، وأدخل
 جسمه المنهك إلى الكوخ، فرأى باب حجرة على اليمين، وآخر

على اليسار بأبه مفتوح، وتشئتت من أمامه كتاكت صغيرة، وفرّ
قطّ إلى زاوية الكوخ متسلقاً بمهارة الجدار الواطئ ليختفي فوق
السطح، وطار حمام من كل جهة، وشاهد قطع لحم يابسة معلقة
على خيط من قنب. اقتحم السيد أفولاي الحجرية التي كان بابها
مفتوحاً؛ فرأى، كما لو أنه في حلم عميق، رجلاً كهلاً نحيفاً،
وامرأة في متوسط العمر، وفتاة يافعة، يجلسون حول مائدة فوقها
أكل متواضع. أخذ السيد أفولاي جرّة الماء من فوق المائدة، وعبّ
منها طويلاً من دون توقف، قبل أن يُحطّها من جديد فوق المائدة
الخشبية الرديئة المصنوعة من خشب زان غير مصقول. وتدفتت
قطرات ماء من أطراف فمه؛ فسالت على وجهه وعنقه، ولطّخت
بعض ملابس صدره. نظر حوله بعيون مُوغلة في اللامبالاة. رأى
فراشاً قريباً مُعدّاً للجلوس. وضع كيسه الجلدي على الأرض؛
فتوسده برأسه، وأحكم قبضة يده عليه، وما لبث أن جرفه النوم،
وتصاعد من الفور شخير هادئ، انساب بسلاسة، جازاً تعب أيام
طويلة، قضاها في سير منهك، وسط غابات موحشة وصحار خالية
وتضاريس وعرة. حلم السيد أفولاي بالطفل أسافو، وهو مُكبّب
بجدية وعزم على نسخ مخطوطات، ورآه يجري وراء فراشات بيضاء،
اختفت مع الغروب، وواصل أسافو الجري في الظلام؛ ظلام حالك
ومهيّب، إلى أن غاب - في النهاية - عن أنظار السيد أفولاي؛ ف شعر
بأسى، وسالت دموعه على وجهه المتهدل، ثم لمح ساريل يضحك
ساخراً مسنداً ظهره إلى شجرة يابسة، وفي يده جرّة خمر، وخلفه
عشرة بغال محمّلة بأكياس ملح بلدة دريو. تشنجت عضلات

وجتني وجه أفولاي، وأصدر أنيبًا خافتًا. وظل أفراد الأسرة الرومانية، الذين يسكنون الكوخ، ينظرون إليه بحيرةٍ واستغراب. لفّت الفتاة درايمًا المراهقة دهشة ممزوجة بخوف وفرح خفيين، وتوجّس الأب روساب، ولكنه سرعان ما قرأ في وجه الرجل البربري الغريب، الذي اقتحم عليهم الكوخ، علامات خير تبّع من أعماق بعيدة تتوهج كالنور من نفحات روحه، وشعر بأن هذا الرجل لن يكون عاديًا. على حين التصقت السيدة صيكان بزوجها، ودخلها روع، ورأت أشياء عجيبة تتراقص على وجهه. حاولت أن تفهم تلك الإشارات الغامضة، إلا أنها استعصى عليها - في الأخير - تحديد شعورها حيال الرجل؛ فهو من ناحية يبدو فقيرًا ومنهكًا، ومن ناحية أخرى يشعّ منه وهج عجيب لم تستطع تفسيره!

انتظر أفراد الأسرة استيقاظ السيد أفولاي طوال المساء، وحتى إلى ساعة متأخرة من الليل، لكنه لم يستيقظ من النوم! وضع عليه روساب ربّ الأسرة غطاءً بسيطًا، ثم سد الباب برفق، وانضمّ إلى زوجته وابنته ليناما في الحُجرة الثانية. ولم يستطع روساب النوم؛ فما فتى يتتبعه لأي حركة أو صوت يحدث في الكوخ أو خارجه. وشعر برهبة حيال الرجل، ولم تكن تلك الرهبة دليل خوف من السيد أفولاي بقدر ما كانت تمثل روعًا من شخصه المهيب، الذي تجلّى في شكل قوة داخلية عجيبة أحسّها تنبعث من أعماق الكهل. ولم تنم الفتاة درايمًا أيضًا؛ فقد ظلت مشدودة إلى السيد أفولاي، ورأت في أعماقه البعيدة صورة شابّ متحفز وهبيّ، وتصورته مزيجًا من ملامح وخصال كل من أنير وأسافو. وواصلت بقية الليل في

حلم يقظة دافئ وطويل، قادها إلى شاب مستحيل، ولكنه باهر أشبع فيها الرغبة واللذة في ليلة استثنائية، نقلتها فجأةً من فتاة على خط المراهقة إلى فتاة ناضجة وواعية بخصائص أنوثتها الناشئة، وإلى ذكورة تتخيلها ولم تحتكّ بها بعد. جرف النوم سريعاً زوجة روساب؛ السيدة صيكان، تاركة مصيرها في يد إلهة فينوس، ونامت بهدوء دون أن تشغل بالها، كالمعتاد، بأي شيء.

استيقظ السيد أفولاي في وقت متأخر من صباح الغد. فرك عينيه، وشعر فجأةً بغرابة المكان الذي يوجد فيه، إلا أنه سرعان ما استعاد أحداث أمس. استغرب عدم وجود أشخاص إلى جنبه في الحجرة، ولكنه رأى ضوء النهار يتسرب من الكوة، ومن الباب الموارب.. رأى صحن طعام مغطى بقماش، وضع على المائدة التي أصبحت قريبة منه، ومنشفة، وجرة ماء. غسل رجليه ويديه ووجهه، ثم جفف نفسه من الماء، وجلس صامتاً أمام المائدة. جلس طويلاً من دون أن يأتي بأي حركة، وكان يصغي فقط إلى أعماقه البعيدة، وتذكر أشياء كثيرة، وسمع حركة خافتة في الكوخ، وأدرك أن سكان الكوخ موجودون، لكن ذلك لم يغيّر في طبيعة نفسه شيئاً. وسرعان ما رفع الغطاء عن الصحن، فوجد حليياً وخبزاً وعسلًا. أكل بشهية، استلذ الطعام. وفي النهاية، غسل يديه، وسوى رداءه، وتفقد كيسه والحاجيات التي كانت بداخله. وتحسّس أيقونة الشمس نفوشت؛ فوجدها دافئة، وعلم من ذلك أن اليوم سيكون معتدل الحرارة.

خرج السيد أفولاي من الحجرة محتضناً كيسه، فقابلته شمس ضحى فاجأت بصره، ورأى من خلف أشعة الشمس الأب روساب، والأم صيكان، والفتاة درايمًا يقفون جنبًا إلى جنب، يحتويهم صمت بارد مشوب بحيرة واستغراب. كان ظل الجدار يغطيهم.. لقد بدوا كُنُصِبِ آلهة من حجر. لم ينظر إليهم السيد أفولاي طويلًا. توجه إلى خيط القنب، وتأمل اللحم المجفف، وعرف أنه لحم ماعز، وشم رائحة الملح، وتبين له أن اللحم المجفف مُلِحَ بملح قليل الجودة. ثم نظر إلى جدران الكوخ؛ فأيقن أن البناء غير متقن، وأن التبن الذي تم عجنه مع الطين كان قليلًا، ورأى تشققات، وخمن أن المطر يخرّب سطح الكوخ تدريجيًا، وأن الماء - لاشك - سيجد ثغراً ينفذ منه إلى داخل الحجرات. وتصور أن رب الأسرة، بمساعدة زوجته وابنته، ربما يجدون تغطية السطح بالطين المخلوط بالتبن مع بداية كل فصل شتاء.

وقف عند الباب الخارجي. وقبل أن يهّم بالمغادرة، نظر إلى أفراد الأسرة.. حينذاك سارع روساب إلى فتح الباب. خرج السيد أفولاي، ورأى حمارًا مربوطًا إلى جذع شجرة الخروب نصف الميتة. خطا بضع خطوات في ساحة الكوخ. خرجت الأم صيكان، وتبعتها البنت درايمًا. وقف السيد أفولاي من جديد، ونظر إلى أفراد الأسرة الصامتين؛ فأخرج من كيسه قليلًا من الملح نشره على عتبة باب الكوخ، ووضع يده على رأس درايمًا، وقال في نفسه من دون أن يصدر صوتًا، لكن شفثيه كانتا تتحركان:

- لتباركك الإلهة فينوس، أيتها الفتاة الرومانية الخيرة.

سارع رب الأسرة روساب، ووضع كيسًا به خبز وماء وفواكه جافة، على الحمار، ثم قدم الحمار إلى السيد أفولاي. تسلّم السيد أفولاي الحمار من روساب، وأخرج قطعتي نقد ذهبيتين، ومنحهما لروساب. أراد روساب أن يرفض القطعتين اللتين تعادل قيمتهما أكثر من عشرين حمارًا، لكنه، حين اصطدم بنظرات حانية وعميقة من السيد أفولاي، لم يستطع التفوه بكلمة، بل لم يستطع تحريك يده. تجمّدت أصابعه على القطعتين الذهبيتين، واجتاحته رهبة، وقرأ شيئًا غامضًا في نفس الكهل الأعرج الذي يشعّ منه نور عجيب. ودّعهم السيد أفولاي بنظرة امتنان صادق، شعر بأنه قد وصل فورًا إلى أفراد الأسرة الذين تهللت وجوههم، وارتسمت ابتسامات بهيجة على ملامح وجه السيدة صيكان المنكمش، الذي بدأت تهاجمه التجاعيد بشرهة مخيفة. ورأى وجه روساب يشعّ بفرح تقافز من أخايد مرسومة بعمق في وجهه القديم، ولاحظ حيرة وشوقًا عجيبًا إلى شيء مبهم يشرق من وجه الفتاة درايماء، التي بدت وكأنها اخترقت جدار الزمان والمكان، وطارت إلى آفاق بعيدة جدًا.

امتطى السيد أفولاي الحمار، وتأمل المحيط من حوله؛ فرأى المشاهد نفسها التي رآها أمس، ولكنها بدت له اليوم مغسولة بأشعة شمس ضحى دافئة، ومكفّنة بهدوء غريب غير متوقع. سار الحمار تلقائيًا، وأخذ مسارًا بالية عجيبة، وفي الأخير ولج مسلكًا بدا أنه مسلك يعرف حركة سير دؤوبة. أخرج السيد أفولاي أيقونة نفوشت، ولاحظ - مرة أخرى - أن رأسها يتجه إلى الواجهة التي

يسير نحوها الحمار. ولاحظ، خلال الطريق المستقيم الطويل، بغالاً تقبل من الجهة الأخرى، وبغالاً تأتي من الخلف وتتجاوزه بسرعة، ومشاة يصادفهم محملين ببعض الحاجيات، وعربات تنقل بضائع في اتجاهٍ لم يكن يعرفه، وليست لديه أدنى فكرة عنه، ولكن إحساساً ما كان يجعله يدرك أنه في الطريق الصحيح.

استرعى انتباه السيد أفولاي، وهو ينزل من أحد المنحدرات على حماره، عاملٌ أمازيغي في حوالي الأربعين من عمره، كان شديد النحافة، تظهر على وجهه الكالْح علامات بؤس دائم.. رآه ينقل أحجاراً ثقيلة على ظهره المقوّس، ويوصلها إلى بناء كان منمكاً في تشييد بناية ليست بعيدة على طرف الطريق. أوقف السيد أفولاي حماره، وظلّ يتأمل الرجل الذي كان ينقل الحجر بمشقة واضحة. ولما أصبح العامل قريباً من السيد أفولاي، أشار إليه بالاقتراب؛ فاقترب العامل تتلاحق أنفأسه، وينزّ من جبينه وعنقه عرق بدا- للوهلة الأولى- وكأنه زيت ممزوج بغبار؛ فخاطبه باللغة الأمازيغية:

- مرحباً بك أيها العامل الطيب.

- مرحبا سيدي، هل أضعت الطريق؟

- لا.. استرعت انتباهي هذه البناية الجميلة، ورأيتك تحمل حجارة ثقيلة جداً على ظهرك.. لا بد أن مثل هذا الشغل متعبٌ جداً.

- هو كذلك يا سيدي، ولكنني لا أملك مصدراً بديلاً للرزق.

- كيف؟! -

- منذ زمن طويل، وأنا أشتغل مع هذا البناء الروماني مقابل
الغذاء.. وهو غذاء لا يكاد يملأ معدتي!.

- ألا يدفع لك أجرُك كاملاً؟

- لا.. لا يدفع لي غير غذائي.

- لماذا لا تبحث عن عمل آخر؟

- لا أعتقد أن بمقدوري أن أجد عملاً أفضل من هذا! إنني،
على الأقل، مع هذا البناء، أضمن بعض قوت يومي.

- سأروي لك قصة أيها العامل المجتهد، وأرجو أن تفعل
بها شيئاً ينفعك.. يُحكى أن حلزونة، أو ما يشبهها، كانت تعيش
على غصن دُفلى، ومع أن ما كانت تتغذى به كان مُشبَّعاً بمرارة
تكاد لا تحتمل، فإنها صبرت على وضعها خوفاً من أن تفقد
قوت يومها، وتصبح - في الأخير - تائهة في الخلاء بلا عشب
تتغذى به؛ فتموت جوعاً. لكن - لحسن حظها - جاءت ريح
عاصفة، اقتلعتها من فوق شجرة الدفلى؛ لتجد نفسها مرمية
وسط جنة من المروج الخضراء اليبانة.. ولأول مرة تذوّقت
غذاءً جيداً، وأحست بطعم الحياة الحقيقية. أنت، أيها العامل،
لست في حاجة إلى عاصفة ريح قوية لتمنعك من العمل
مع هذا البناء الروماني غير النزيه.. يمكنك دائماً أن تتخذ
القرار الحاسم، الذي سيغيّر مجرى حياتك جذرياً.

- نظر العامل مذهولاً إلى السيد أفولاي، وارتسمت على وجهه
المجهد علامات اكتشاف شيء جديد. التفت إلى البناء، ثم إلى السيد
أفولاي، وقال بصوت حمل نبرة مُفعمة بالعزم:

- أنت، يا سيدي، تلك الريح العاصفة التي ستلقي بي في المروج
اليانعة الخضراء.. أنت يا سيدي!

لكز السيد أفولاي حماره، وواصل سيره في الطريق الطويل. نظر
إلى الخلف بفضول غامض، ورأى، من بعيد، العامل يضع رداءه على
كتفه ويتجه مفارقاً البناء.

في أرض اللوتس الساكنة،

كن صالحًا؛ فالإله قريب.

رَدِّ ما استعرتَه،

وأكرم ناموس الفضيلة،

واحذر من الخداع،

ولا تلوِّث يديك بالدم.

قاتل في مخدع أنير

استقر أنير في منزله الفخم الجديد، غير البعيد عن بناية الرئيس، وتسلم من السيد ماريوس جوادًا رشيقيًا من أفضل الجياد الأمازيغية التي تعود ملكيتها إلى رئاسة المدينة. شغل أنير الطابق الثاني من البناية، على حين فضلت تيرينا الطابق الأول المزود بمطبخ، وفرن من الخزف، ومخزن من الفحم الخشبي، وعدة حجرات للنوم، وحمّام. أحست تيرينا في البداية بالغرابة والضياع في منزل كبير وفاخر ومزود بكل أسباب الراحة، وانتابها وخز ضمير لمفارقة زوجة والدها السابقة؛ السيدة كيسيا، التي اكتفت في وداعها بأن طالبتها بإعادة كل الألبسة الفاخرة والحلي الذهبية التي كانت تترين بها تيرينا. لكن أنير حين تلقى أول دفعة من أجره، أنفقها كلها تقريبًا لشراء ألبسة تليق بتيرينا، والباقي أنفقته في شراء مؤونة

الطعام ومستلزمات الطبخ والتوابل التي تفضلها تيرينا. ولم ينس التوجه إلى خياط من أشهر الخياطين في مدينة أرتو ليخيط له، على المقاس، ثوبًا أنيقًا.

كانت الأشغال في عملية صنع الشبايك تسير بوتيرة جيدة، وبرهنت تيرينا على قدرات بارعة في التلوين؛ قدرات أذهلت السيد ماريوس الذي لم يكف عن زيارتها، والاطمئنان عليها في محل شغلها، وما فتئ يطالبها بأخذ كل الوقت والراحة التي تحتاج إليها. أعجب تيرينا اهتمام السيد ماريوس، ورأت في شخصه شابًا مهذبًا، وأحبت وجهه الأبيض المشرب بحمرة خفيفة، وشعره المجعد القريب من الشقرة، وظلت باطراد تسمع، حين تكون بحضرته، دقات قلبها، وهي تنبض بوتيرة غير عادية؛ فتلفها حالة من التوتر والانفعال غير المؤلفين في طبعها. وشعر السيد ماريوس -من ناحيته- على الدوام بحاجة ملحة تدفعه إلى رؤية تيرينا، ولو مرة واحدة في كل نصف يوم! وتكرّس في نفسه اعتقاد صادق بأن قلبه بدأ ينبض على إيقاع صوت الفتاة الجميلة ومشيتها ووجهها؛ هذه الفتاة، التي اقتحمت عليه حياته خلسة؛ فلقد وجد نفسه غير ما مرة يقطع شغلًا مهمًا من أجل العودة سريعًا إلى بناية الرئيس؛ لا لشيء إلا لكي يرى تيرينا، وهي منهمة في عملها بكل جدية، وكانت تقابله بابتسامة مخلصه يشعر بها تخرج من تلافيف قلبها البعيدة. كما أنه قطع ذات مرة اجتماعًا مهمًا لأمناء وأعضاء مجلس المدينة؛ بسبب هاجس غريب عنّ له فجأة، ودعاه إلى زيارة تيرينا، وكانت صورة أنير لا تغادر ذهنه كلما فكر في الفتاة التي بدأت

تستحوذ على مشاعره كلها. وحين وجدها منشغلة في تلوين الشباك، ألقى عليها تحية منسرحة، وتلقى من الفتاة الأمازيغية الحسنة تحية مرحية وجاذبة كذلك. لم يجد كلامًا يقوله لها؛ فقفل إلى الاجتماع، وكان في تلك اللحظة قد تشبّع مؤقتًا بأريج تيرينا، التي يصبو إلى الارتواء بروحها في كل حين ووقت.

يرقة حُب

انهمك أنير في إعطاء تعليقات مهمة لعاملية، وشرح لهم بحماسة وبدقة شديدة كل التفاصيل الصغيرة، وحثهم على إنجازها بالمهارة التي لا ينبغي التهاون فيها، وشعر فجأة بحرارة تتسرب إلى جسمه.. في البداية، اعتقد أنها حرارة- لا شك- تنبع من الموقع الملتهب الذي يَصْهَرُ فيه الحديد، ولكن تلك الحرارة بدت صاحبة ودافئة ومزوجة برائحة عسل تغلغل في كيانه على نحو مدهش. فجأة غمر بظل وارف غطى مجال الرؤية أمام ناظره، وحين رفع بصره اصطدم بوجه سماوي فاتن.. قطعة من الفردوس.. معزوفة إلهية هزّت كل جارحة من جوارحه.. نجمة ساطعة أعمت بصره للحظة، وجعلته يكاد يُغمى عليه. وجد نفسه يشدّ على عضد أحد العاملين، ويقول مداريًا الموقف:

- أشعر بحرارة.. وب.. وبدوار!

كانت الأميرة سانيس قد اخترقت جدار المغناطيس الذي يجذبها إلى أنير، ووقفت أمامه كشجرة رند يانعة وفواحة برائحة عسل

وردي فاتح. وضعت يدها على جبينه، ثم قالت له بعفوية أذابت كل جيوب المقاومة في أعصابه:

- إنك لا تعاني حرارة.. أنت في أفضل حال.

نظرت إليه عن قرب. اصطدمت بحقيقة مرة.. الأحلام لا يمكنها أبداً أن تشبه الواقع.. لقد رأته قبل سنوات، في بداية مراهقتها، بعين أنوثتها الناشئة، التي كانت على وشك التفتح، ولكنها الآن، وهي في هذا العمر، أضحت تملك رؤية ناضجة لفارس أحلامها، الذي ارتبط في ذاكرتها دائماً بشخص يشبه هذا الشاب البربري البعيد عما كانت تراه في السابق. لكنها- في الوقت نفسه- تراه أقرب بكثير من أي شخص آخر من مشاعرها.. للحظة شعرت بحيرة، ولم تستطع للممة أفكارها، لكنها- في الأخير- وجدت أن أنير، الواقف أمامها مشدوها بسحرها وفتنتها الخارقة، قد يمثل- من جهة أخرى- نموذج الشاب الوسيم الأنيق؛ الشاب الذي يفرض هيبة وحضوراً قوياً لا يمكن تجاهله، وقرأت في نفسه قوة خارقة، وتصميماً عجيباً أدهشها.

العجوز كاجي، الذي كان يتابع المشهد بعين مجرب ماكر، ظل يراقب الموقف بانبهار كبير! قالت الأميرة سانيس، مخاطبةً الشاب اليافع الذي يفيض بالحياة:

- ما اسمك؟

أجاب بارتباك بدا واضحاً تماماً؛ ارتباك غير متوقع في شخصيته:

- أنير... وأنتِ؟

ضحك العجوز كاجي، وقال بتهكم لم يجده أنير ظريفًا قط في ذلك الموقف:

- هل في مدينة أرتو شخص يسأل مثل هذا السؤال الساذج؟

الفتت الأميرة سانيس إلى العجوز السيد كاجي، فسألته بعفوية:

- كيف حال زوجك؟. هل هي بخير؟ وهل هي في صحة جيدة؟

- عاهرة كما عرفتها دائماً، وفي صحة بقرة بليدة.

انتحت سانيس جانباً بأنير، وقالت له:

- اسمي سانيس... لقد سمعت من أبي أنهم يبحثون عن قِيم جديد لمكتبة بناية الرئيس. القِيم الحالي أصبح عاجزاً عن النظر، ولا يستطيع مواولة عمله على النحو المطلوب. بدأ تسجيل المتقدمين للامتحان اليوم. عليك أن تسجّل نفسك. التسجيل مفتوح للجميع، ولكن الأمناء وأعضاء مجلس المدينة حرصوا على إبقاء هذا الموضوع سرّاً بينهم.. إنهم لا يجنون دخول شخص من خارج دائرتهم إلى البناية، التي تنطوي على أسرار في غاية الخطورة.

- وما الفائدة التي سأجنيها- برأيك- من تسجيلي في مسابقة غير مضمونة النزاهة؟

- لا أريد الانتقاص من مقامك، ولكنني أراك مفيداً في المكتبة، وفي مجلس المدينة أكثر من أي مكان آخر.. هذا إذا أثبتت جدارتك.

- شكرًا جزيلًا.. سأقول لك شيئًا.. لقد رحلت عن دريو، وهي بلدة صغيرة، وبعيدة جدًا عن مدينة أرتو.. لعلك تذكرين لقاءنا القصير هناك، ولعلك تذكرين أنني أهديتك سلة من الكستناء المشوي، وفي المقابل وجهت لي أنتِ دعوة مفتوحة لزيارة أرتو، وظل حلم تحقيق هذه الزيارة يراودني. وأكثر من ذلك، قادتني مشاعري، التي التهمت بمجرد رؤيتك في سوق دريو، إلى الهجرة عن البلدة هجرة أبدية، مخلِّفًا ورائي كل شيء جميل، ولكنني كنت أتطلع إلى الشيء الأجل من ضمن كل الأشياء الجميلة التي صادفتني في الحياة. كنتِ آنذاك فتاة رائعة، يا سانيس، كما أنت الآن.. شقراء، تفاحية الوجه، بقوام رشيق بديع، رومانية أصيلة من أجمل نساء الدنيا اللواتي رأيتهن.. جسدك المثير منحوت كإلهة! لقد تبعت بصبر - لا يكل - حلمًا غامضًا للبحث عن نجمة فينوس؛ نجمة مجسدة في فتاة بألق خاص، ولم تكن تلك النجمة إلا أنتِ، يا سانيس، ولن يكون هذا الأمر صدفة طبعًا!.

صمت أنير قليلاً مسترجعًا اندفاعه الذي كبته سنوات، ثم قال فجأة:

- كم أحببت هذا العسل الذي يغمرك! أريد هذا العسل بجانبني دائمًا.. لو كان الأمر بيدي!

اندهشت الأميرة سانيس لكلام أنير. تلبستها حالة غريبة من الحيرة. وبقدر ما أحببت الاقتراب من هذا الشاب البربري الوسيم، رغبت في الابتعاد عنه بأكبر مسافة ممكنة!. فكرت قليلاً وسألته مستغربة:

- لماذا تريد هذا العسل بالذات؟

- إنه عسل يبدو فريداً واستثنائياً!

- حسناً! ربما يوجد قريباً منك، في المنزل الذي تسكنه، أريج يشبه رائحة العسل الذي تتحدث عنه! وفي كل الأحوال، سأدلك على التاجر الذي يبيع مثل هذا العسل.. أليست تسكن معك فتاة جميلة، تفرز عسلاً بطعم خاص؟!

- بلى! ولكنها فتاة من نوع مختلف؛ فهي ذات تصور عجيب جداً للحياة! وأنا أحترم هذا التصور. طبعاً، فالمصادفة وحدها جمعتنا معاً حتى هذه اللحظة. لدى حلمي الخاص يا سانيس.. ربما يجب أن أقول إنه متعلق بك.

- ربما كان لكل منا حلمه الخاص.. ولكنني لن أجازف لأقول إنه مرتبط بك!!

انصرفت الأميرة سانيس تاركة رائحة عسل طغت على كل الروائح، وشعرَ أنير بإجهاد نفسي وجسدي، وتكاسلت عضلاته على غير العادة، ولم يستطع مواصلة العمل. وفجأةً شعر بخيبة وإحباط، ورأى حلمه، الذي عاش من أجله سنوات طويلة، يكاد يتحطم نهائياً أمام واقعية هذه الفاتنة الرومانية. ركل سنداناً برجله، وقال بانفلات أعصاب لم يتحكم فيه:

- اللعنة.. اللعنة...

قال السيد كاجي متهكماً:

- لعلك كنت تُمني النفس بزواجك منها أيها البربري الوضيع!

اعتذر أنير للسيد كاجي وللعاملين عن تصرفه الأرعن، ولكنه، قبل أن يغادر، أعطى تعليمات دقيقة ومفصلة لما يجب أن يُنجز خلال ما تبقى من ذلك اليوم. كان الوقت وقت عصر، والطقس طافحاً برائحة مُنكَرَة لروث متخمّر في إسطبلات الخانات المنتشرة بكثرة في أرتو، ورائحة بقايا حضرات تعفنت بفعل الأمطار، التي جرفتها من السوق إلى وسط المدينة.

فكّر أنير، قبل أن يتوجه إلى المنزل، في أن يُبلغ تيرينا بأنه متعب قليلاً، وبأنه يريد أن يسألها عما إذا كانت في حاجة إلى شيء من السوق. وحين ولج المكان الذي تشتغل فيه، في بناية الرئيس، وجدها منهمكة في تلوين أحد الشبايك، ووجد على مقربةٍ منها السيد ماريوس، وكانا يضحكان بمودةٍ لطيفة. استغرب أنير من الموقف في البداية، ولكنه سرعان ما أقنع نفسه بأن الأمر عادي. قال السيد ماريوس بحنكةٍ مَنْ تدرّب في محيط سياسي:

- أهلاً أنير.. أفضل مصمّم في المدينة، هل جئت لتراقب عمل تيرينا؟ إنها تقوم بمهمتها على نحو مذهل!

ضحك أنير شاردًا.. كان يفكر في سانيس، وكان يشم رائحتها التي ظلت لصيقة بحواسه الداخلية. أجاب بعد لحظات تفكير أطول من اللازم؛ لحظات انشغل خلالها بتفحص بعض الشبايك الملونة من دون أن يكون مهتماً بها بالفعل:

- أعلم بأن تيرينا تعمل على نحو مذهل لا يدخله الريب،

ولكنني متعب قليلاً، وقد جئت لأسألها عما إذا كان يلزمها شيء من السوق لأحضره لها قبل أن ينصرف الباعة.

نظرت إليه تيرينا بانتباه، وسألته بصفاء نابع من شغاف قلبها الرقيق:

- هل أنت متعب يا أنير؟! ماذا حصل لك؟

أجاب بعفوية غير مألوفة في طبعه:

- لا شيء! زارتنا اليوم فتاة في ورشة السيد كاجي، وبعد ذهابها شعرت بحالة غريبة، وأحسستُ بأنني في حاجة إلى الراحة.

بعد صمت، أطبق على الجميع، انفرد أنير بهاريوس، بعيداً قليلاً عن تيرينا، وقال له:

- السيد ماريوس، أريد التسجيل في مسابقة منصب قِيم المكتبة.

دهش السيد ماريوس لهذا الطلب الذي لم يتوقعه! كيف سيتعامل مع الموقف؟ وبماذا يجيب؟

بعد تفكير قصير قال:

- إنها مسابقة تخص أشخاصاً متخصصين في علم اللاهوت والمخطوطات وفهرسة الكتب القديمة النادرة. السيد فينك العجوز لم يعد قادراً على مزاولة نشاطه بعد سنين طويلة قضاها في الخدمة.. لقد ضعُفَ بصره. ولا أظنك ستجاري أصحاب الاختصاص، وهم كثر.. الأفضل أن تنأى بنفسك عن هذا الأمر.

- لا بأس في أن أجرب. أقر بأنني لا أمتلك قدرات تؤهّلني
لأتقدم لهذا الإمتحان، ولكنني-مع ذلك- أحب خوض هذه
التجربة.

فكر السيد ماريوس في هذا الطلب الغريب، وأيقن أن شكوكه
حول هذا الشاب البربري لن تكون إلا صحيحة، ولكنه حافظ
على هدوء نابع من طبعه:

- حسنًا! سأضع اسمك ضمن قائمة المشاركين.. لن أرفض
لك طلبًا بسيطًا كهذا.

انشغل بال السيد ماريوس بمن سرّب هذه المعلومة الخطيرة إلى
أنير. وبعد تفكير عميق، استقر تفكيره الذكي على الفتاة، التي
زارت ورشة حدادة العجوز كاجي، ولكن من تكون تلك الفتاة؟
لن تكون إلا إحدى المُعجبات بأنير، وهي- بلا شك- ابنة أمين أو
عضو في مجلس المدينة. قرر السيد ماريوس أن يتحرّى الأمر بنفسه،
وقرر أيضًا أن يطرد العضو أو الأمين؛ والد البنت التي يُحتمل
أنها قد سرّبت هذا الخبر الخطير، وتساءل باستنكار: كيف يمكن
لبربري أن يتولى منصب قيم المكتبة؟! توجه فورًا إلى ورشة الحدادة،
وسأل العجوز كاجي عن الفتاة التي زارت الورشة، والتقت أنير.
وجد العجوز كاجي نفسه ملزمًا بإبلاغ السيد ماريوس بأن تلك
الفتاة لم تكن إلا الأميرة سانيس. ألمت بذهن السيد ماريوس دوخة
بعثرت أفكاره للحظة. لم يصدق في البداية، ولكنه استغرب كيف
تعرفت الأميرة سانيس إلى أنير، وكيف حصل ذلك بهذه السرعة؟!!

حينذاك شعر بخطورة أنير الحقيقية؛ لقد بدأ هذا الشاب البربري يتغلغل في مجتمع أرتو الروماني الراقي، ولن يكتفي بذلك فقط؛ كما يمكن أن يتوقع أي شخص بعيد النظر، أو قصيره، بل إن طموحه سيمتد ليصير خطراً على كثير من الجهات. طبعاً، فالسيد ماريوس لن يستطيع فعل شيء أمام هذا الواقع.. لن يستطيع الوقوف أمام طموح شاب استثنائي في كل شيء. ومن جهة أخرى، لن يستطيع فعل شيء للأميرة سانيس؛ فإلى جانب كونها بنت الحاكم أورليوس سيبو، فهي -في المقام الأول- فتاة مرعبة اسمها سانيس، لا يمكنه مواجهتها بأي حال من الأحوال.. ولكن ما يستطيع فعله هو القضاء على هذا البربري، قبل أن يصبح أكبر من أن يستطيع القضاء عليه.

الامتحان

حل - بعد أسبوع - موعد الامتحان الخاص بمنصب قيّم مكتبة بناية الرئيس، ولقد حضر في تلك الليلة، وفي سرية مطلقة، جمع غفير فاق المائة من الشباب، وكان من ضمن هؤلاء أنير، الذي ظل محلّ سخرية وتهكم أبناء أعضاء وأمناء مجلس المدينة؛ فراحوا يتساءلون بينهم باستعلاء وعجرفة:

- من جاء بهذا البربري الغريب إلى هنا؟ وكيف سوّلت له نفسه خوض امتحان خطير، وهو مجرد حدّاد لا يزال الصدأ ورائحته ملتصقتين بلحمه؟

من جهته، كان أنير يراقب الجميع، مثلهم بما دعا به لحيته الخفيفة، التي تعمّد عدم حلّقها لكي يعطي لشكله غرابة ومهابة غير متوفرة لدى المُمتَحِنِينَ. حاول استحضار مجادلاته مع المعلم ماسين صانع الأحذية، وتاجر الملح الحكيم أفولاي. وحاول أيضاً استحضار ما حفظه من الكتب القديمة الكثيرة التي قرأها في دريو. تلك الكتب والمخطوطات والأشياء الكثيرة، التي تعلمها من حكماء وعلماء ببلدته البعيدة، هي سلاحه هذه الليلة؛ ففيها اطلع على الكثير من العلوم، واستطاع من خلالها تكوين دائرة معرفية متنوعة سكنت فكره، وساعدته بقوة على تصميم تلك الأشكال البديعة التي أنجزها للشبابيك. ويرجو أن تُعينه تلك الكتب وتلك المعارف في هذه الليلة المشهودة أيضاً. لا يجب أن يخيب ظن سانيس. لقد أرادته أن يكون قيماً على المكتبة، وسيقدم لها برهان جدارته بحُجُبها عبر نجاحه في هذا الامتحان، رغم ما يتسرب إلى نفسه من شكوك حول نزاهة نتائجه.

بدأ الامتحان في منتصف الليل بالضبط. جلس المُمتَحِنُونَ أمام لجنة التحكيم. وكانت صيغة الامتحان تتمثل في إلقاء رئيس اللجنة سؤالاً، وعلى مَنْ يجد في نفسه القدرة على الإجابة التقدم نحو اللجنة، وكتابة الجواب، وتوقيعه باسمه. وبعد نظر اللجنة، والمداولة، تقرّر صحة الجواب من عدمه، وقد يحدث أن يعرف الجواب الصحيح سبعون مترشحاً؛ فيُرشحون إلى الدور التالي، وهكذا تستمر صيغة الامتحان... وبعد عدة أسئلة، فاقت العشرين، بقي أنير وحده مع شابّ بدا نابغاً متمكناً. وتواصلت

الأسئلة المتنوعة في علم اللاهوت، وعلم الفلك، والفلسفة، وعلم الأعشاب، والطب، وغير ذلك مما لا يخاطر على بال. وفي النهاية، اتَّخذ قراراً بتحديد الفائز من خلال فوزه بثلاث مرات متتالية أكثر من خصمه، ولقد اُفتعلَ هذا البند في المسابقة، حين لاحظ الأبناء والحكام شدة أنير وقوّته في إحاطته بجميع العلوم، وكان الهدف من هذا الشرط هو تعجيزه، بل أعلنوا، حين بدأت خيوط الفجر الأولى تنتشر في المدينة، أن الامتحان سيتوقف بمجرد بزوغ قرص الشمس. شمَّ أنير رائحة عسل وردي فاتح تنفذ إلى روحه، ورأى فتاة باهرة الجمال، ورأى نفسه يطير في السماء ليعانق فينوس التي تجسدت له دائماً على هيئة سانيس، واستحضر الرومانية الجميلة جوليا، والمراهقة الدافئة زهرة الجمر، وتاجر الملح الحكيم أفولاي، والمعلم العجوز السيد ماسين... ورأى شعب الأمازيغ كلهم يصفقون له. انطلق السؤال الأخير، وكادت الشمس تبزغ، وأعلن خصم أنير عجزه عن الجواب مُرجئاً التنافس إلى الليلة المقبلة. ووجهت لجنة التحكيم انتباهها إلى أنير بفضول جارف.. لقد كان في حوزته جوابان صحيحان. خَطَّؤه المتوقع الآن في الإجابة عن السؤال الأخير سيعني ضياع مكاسبه كلها مع خصمه العنيد، وسيحتتم عليه البداية من الصفر ليلة الغد. لكن جوابه كان صحيحاً إلى درجةٍ أذهلت لجنة التحكيم.

تم في النهاية تقديم مفتاح المكتبة إلى أنير بفتور وغضب بين. وبعد رسميات ضرورية وسريعة، انصرف الحضور دون إقامة الحفل الذي أعلن عنه سابقاً، ولم يجر تناول الطعام كما كان مقرراً،

وظهر الاستياء على لجنة التحكيم وأعضاء مجلس المدينة وأمنائها. ولم يتقدم لمصافحة أنير إلا السيد ماريوس، مُبديًا لباقة وتهذيبيًا يُجيدهما تمامًا.

وقف السيد ماريوس مشدوهمًا يراقب الشاب البربري الذي غادر البناية بخطوات واثقة. لقد سجل أول انتصار كبير في المدينة، وهذا الانتصار سيمهد له الطريق لكسب انتصارات متتالية، وهذا الأمر بالخصوص هو ما كان يقضّ مضجع السيد ماريوس، الذي نادي حارسه وكاتم أسراره حاثًا إيّاه على تنفيذ تصفية أنير في أسرع وقت ممكن:

- لا أريده أن يدخل مكتبة بناية الرئيس مرة أخرى.. يجب أن تنهش جثته الغربان والجوارح في الخلاء قبل أن يحقق هذا الهدف.

عسل

عاد أنير إلى المنزل في الصباح، وتمدد فورًا على سريريه من شدة التعب، في انتظار أن تحضر له تيرينا الفطور المتأخر من الطابق السفلي، وشعر بنوم جارف بعد ليلة مجهدة، ولم يكن قد أخبر تيرينا بشيء حول امتحان منصب قيّم المكتبة.. اكتفى بأن قال لها بنبرة جادة، وهي تفتح له الباب متسائلة بجزع عن حالته المزرية:

- لقد خضت الليلة معركة ضارية.

فتساءلت بالجزع نفسه:

- ضدَّ مَنْ؟

فأجاب بلا مبالاة:

- ضد مجرمين في المدينة.

فصدّفته تيرينا بعفوية عجيبة، ولكنها اطمأنت عليه؛ لأنه لم يكن مصاباً بجروح، وإن بدا عليه الكثير من التعب. وفجأة شم أنير، وهو مُستلقٍ على سريره، رائحة عسل وردي فاتح، وقال في نفسه باستغراب:

- كيف تفكر تيرينا في إعداد وجبة فطور بالعسل، وهي تعلم أنني لم أعد أتناوله؟!!

غير أنه سرعان ما أحس بذلك العسل الاستثنائي يتسرب إلى أوصاله، وشعر بدوخة حاملة داعبت مشاعره؛ فأسَلَمَ نفسه لغيوبة خفيفة جداً. وفجأة غُمِرَ بشلال من الروائح الطيبة، وتخيّل نفسه يغطس في حمام من أريج عسل فريد. وحين فتح عينيه من شدة وهج ذكّره بوهج نجمة فينوس، وجد أمامه وجه سانيس المنشرح، وهي تنظر إليه بعيون واسعة وباسمة:

- «جئتك بتاجر العسل».. قالت، والفرح يتفافز من تقاطيع وجهها مثل فراشات مزوّقة؛ فردَّ أنير كالحالم:

- أريد أن أشمّ بضاعته.

- اغمض عينيك.

أغمض أنير عينيه؛ فشعر برائحة عسل مستحيلة تكاد تطوح

بعقله، وسمع حركة متواصلة، قبل أن يصل إلى أذنه صوت رخيم
كشدو عصفور بديع:

- افتح عينيك.

فتح عينيه، ولكنه فتحهما على قطعة من جمال مؤلم؛ جمال
جسد منحوت يشبه جسد إلهة خرافية البهاء.. بياض حليبي
مُشرب بحمرة خوخ، وكأن ستاراً من ظل فردوسي يغطي
جسدها الفاتن! وقفت سانيس أمامه عارية تماماً؛ فقال لها
بانبهار وبنبرة جادة:

- هذا هو تاجر العسل؟!

- نعم، ولك الحق في تذوق بعض بضاعته، للحظة قصيرة فقط،
وبمقدار بسيط أيضاً.

قدم لها مفتاح مكتبة رئاسة المدينة الكبير؛ لكي تتأمله:

- انظري.. ها هو المفتاح!

داعب شعرها وخدّها بلطف، وأصابه ترتعش، ثم خاطبها
بنبرة مشحونة بعاطفة نبعت من أعماقه السحيقة:

- لقد احترقت ليلة أمس لأجلب هذا المفتاح، وكنت أدرك أنني
سأستعمله لأجلك.

- هل تعلم؟.. لم أتم الليلة كلها، وانتظرت عودة أبي أوريلوس
سيبيو، الذي حضر الامتحان، بوصفه حاكماً للمدينة، وكان مندهشاً؛
فقال إن شاباً بوبرياً رائعاً، لم يره قط في مدينة أرتو، استطاع، ببراعة

لا تُصَدِّق، الإجابة عن كل الأسئلة شبه التعجيزية. ولقد أُعْجِبَ بك.. وحينذاك أدركت بأنني وجدت المفتاح.

- قلت: أوريلوس سيبو! لقد كان قائدا للجيش عندما التقينا في بلدة دريو.

- بعد عودته من المعارك التي خاضها ضد مملكة ماسيسيليا، استقر رأي عليّة القوم في أرتو على تعيينه حاكماً لها؛ لأن أحوال المدينة آنذاك كانت متدهورة جداً، وكانت تحتاج إلى قائد حازم يضبط النظام فيها.

- حسناً! أنا إذاً إزاء أميرة... لست أدري.. هل أعتبر الأمر امتيازاً أم العكس؟

ردت سانيس بتلقائيتها المعهودة:

- لا أتصور أن هناك شيئاً يدعوك إلى التفكير في هذا الأمر بمثل هذا المنطق؛ فأنا لم أحدد بعدُ كيف أجدك في مساحة نفسي، فهذا اللقاء يجسد فقط ذكرى جميلة تعود إلى سنوات غابرة. لقد أعجبت بك حين رأيتك في سوق بلدتك الصغيرة، وظلت صورتك في ذهني، ولم تفارقني أبداً، ولكن أشياء كثيرة غيرت منذ ذلك الزمن؛ فأنت لم تعد ذلك الفتى الذي رأيته منذ سنوات خلت.. أنت الآن شاب آخر، وعليّ أن أتأكد جيداً من مشاعري نحوك.. لن أوهمك بحقيقة غير موجودة في نفسي. وإذا كان يجب أن أكون واقعية أكثر، ينبغي أن أنصحك بمواصلة حياتك من دون أن تضعني في حساباتك.. فأنا أيضاً لم أعد تلك الفتاة التي رأيته في بلدتك.

لم يشعر أنير بالاطمئنان لكلام الأميرة سانيس.. لقد أدخلته في متاهة غامضة. سفره الطويل، وحلمه الدائم الذي تبعه بإصرار، يبدو وكأن مصيره سيكون الانهيار. انصرفت سانيس بعد أن أخبرته بأن هدية تاجر العسل التي قدمتها له ما هي - في الواقع - إلا شكر وامتنان، واعتراف أيضا بقدراته، وبإمكانية تحقيقه تغييراً تأملُهُ في المكتبة، التي تحتزن أسراراً خطيرة تتعلق بمداحيل أمناء وأعضاء مجلس المدينة، والخروقات الفادحة التي يرتكبونها.

كانت تيرينا قد تركت وجبة الفطور في المطبخ.. لم ترغب في إزعاج خلوة سانيس وأنير، وقد شعرت ببعض الغيرة المبررة؛ فهي - في آخر الأمر - متعلقة بأنير، ثم إنها اكتشفت برعب أن نزعة الأنثى في نفسها لم تنته، ولكن هذه النزعة - في المقابل - لم تعلن بَعْد عن نفسها بوضوح كامل. توجهت إلى محلّ عملها في بناية الرئيس، وكانت على وشك إتمام تلوين كل الشبائيك، ولم يرغب أنير في مساعدتها؛ لأن براعتها في التلوين تفوق براعته بكثير. وحين وصلت إلى المحل، وجدت السيد ماريوس ينتظرها بفرح استثنائي، وبدا واضحاً أنه يرغب في مفاحتها في أمر مهمّ:

- كيف حالك يا تيرينا؟

- بخير، وأنت يا سيد ماريوس؟

- يمكنني أن أكون أفضل حالاً.

- ماذا تقصد يا سيد ماريوس؟

- أعلن حبي لك، وأريد أن أتقدم بطلب يدك.

صمتت تيرينا.. فاجأها كلام السيد ماريوس، مع أنها كانت تشعر بإعجابه المتواصل بها، ولكنها لم تتوقع أن يطرح طلب يدها بهذه السرعة. وبعد تفكير طويل وغير مستقر، قالت:

- لقد فاجأتني بهذا الطلب يا سيد ماريوس؛ فأنا إلى الآن غير متأكدة من مشاعري نحوك.. هناك أيضاً أنير. طبعاً، أعرف أنه أكثر اهتماماً بسانيس، ولكن - مع ذلك - هو في قلبي.. كما أنت.

- ماذا يعني هذا؟

ردت تيرينا بجواب أدخل الكثير من الريب إلى نفس السيد ماريوس:

- أقصد.. ينبغي ألا يوجد أحدهما في الحياة؛ لأرتبط بالآخر الباقي!

- ولكن، افترض أن أنير ارتبط بسانيس، وهو أمر أعتقد أنه ممكن جداً.

- لا يهم! سيبقى في قلبي، ولن أستطيع نزعته من مشاعري! والشيء نفسه بالنسبة إليك.. أنت أيضاً تسكن الحيز نفسه الذي يسكنه أنير في مشاعري، وبالتالي لن أستطيع الارتباط بأنير لو أتاحت لي الفرصة! في الواقع، أنا في وضع غير مريح تماماً، أتصور وكأنني أحبكما معاً بعنف، وبالقدر نفسه أيضاً.

قالت ذلك تيرينا، وصمتت لحظة قبل أن تتساءل ببراءة:

- هل يمكن أن يجتمع عشقان عنيفان في قلب واحد، يا سيد ماريوس؟!

- ربما! لم أسمع بهذا من قبل، ولكنك تتحدثين بجديّة.

غادر السيد ماريوس، ومزاجه معكّر جداً.. لم يفهم كيف أن الفارس لم يُجهز على أنير حتى هذه اللحظة، وفكّر بأن ينفذ المهمة بنفسه إذا اقتضى الأمر!. هناك تحدّ حقيقي يفرض نفسه عليه.. لقد قالت له تيرينا:

- ينبغي ألا يوجد أحدكما في الحياة؛ لأرتبط بالآخر الباقي!

طبعاً، لا يجب أن يأخذ كلام تيرينا على سبيل الدعابة.. أنير شخص خَطِر، وقد يلجأ إلى كلّ الأساليب ليحقق الأهداف المجهولة التي يتغيها. ولهذا الأسباب كلها، وجب قتله في أسرع وقت.. هكذا فكر السيد ماريوس، وهو يتأمل أشجار الرند، والنهار الشاحب، والوقت الذي يمر مرتبكاً على غير العادة. امتطى جواده، وبحث عن الفارس، وهو يردد في نفسه:

- ينبغي لجثة أنير أن تكون في البحر هذه الليلة، أو بعيداً في الخلاء. ومن الغباء ترك الشاب البربري طليقاً مساءً آخر أو يوماً آخر.

انتشر الخبر فجأة بين نخبة الجيش المقرّب من السيد ماريوس، وهم قلة، وكان فيهم واحد تعود أصول والدته إلى الأمازيغ، وكان مُعجَباً بشخصية أنير؛ فاله المصير الذي ينتظره. أخبر أحد أصدقائه

الحراس، وطلب إليه بدوره أن يخبر الأميرة سانيس إذا كان يرغب في إسداء خدمة جلييلة لها. توجه الحارس إلى قصر الحاكم أورليوس سيبو، وطلب الحديث إلى الأميرة. وبعد انتظارٍ لم يطل كثيراً، خرجت سانيس بلباس منزلي مثير، غير عابئة بنظرات الحارس الذي ارتبك، وكاد ينسى وصية الجندي، ولكنه أخيراً تغلب على الموقف:

- سيدتي الأميرة سانيس، أحمل إليك خبراً، لعله مهمّ بالنسبة إليك.. هناك مؤامرة لقتل أنير.

صمتت سانيس قليلاً، ثم رفعت عينيها إلى الحارس متسائلة:

- ومن يقف وراء هذه المؤامرة؟!

- إنه السيد ماريوس، يا سيدتي الأميرة.

- شكراً لك، ولكن..

بدت سانيس حائرة، ولا تعرف ماذا تقول:

- ماذا عساي أفعل! أقصد ليوواجه مصيره. إنها صراعات

سياسية أو شخصية لا تعنيني، كما لا يعنيني لا السيد ماريوس ولا البربري أنير.

قال الفارس معتذراً:

حسنا سيدتي! ظننت مُحطّاً أن الأمر يعنّيك. أقدم لك اعتذاري

سيدتي.

- لا بأس أيها الفارس المخلص. هذا يؤكد وفاءك لحاكم المدينة، وهو نبل يُحسب لك. ولكن أنصحك بعدم نشر هذا الخبر.. اكتمه لتحفظ حياتك.

انسحب الفارس، ودخلت الأميرة سائيس جناحها في القصر شاردة الذهن. استبدت بها مخاوف انشغلت بها طوال المساء.. فكرت في أشياء ستحدث، وتوقعت أن هذه الأحداث ستكون مقلقة ومؤثرة جدا!.

يا للعار! من أجل السلامة،

اجتنب أولئك الذين تثق بهم.

احترس من الإخوة والأقرباء والرفقاء الأعزاء..

إن هؤلاء يعطون الدافع الأصدق للخوف.

ليلة بالأبيض والأسود

أصبحت تيرينا تشتغل كاتبة في مكتب الضرائب في مقر يبعد بنحو ميل عن بناية الرئيس، وتم تلقين أنير كل شيء يتعلق بمنصبه الجديد قيماً على المكتبة، ولكن أكثر المعلومات وأهمها تلقاها من تيرينا، التي كان والدها بيكاو يشتغل نائباً للسيد العجوز فينك المتقاعد، وقد أثار أنير استغراب معلميه، الذين كانوا يتصورون أنه بحاجة إلى تعلم كل شيء، ولكنهم وجدوا أنه في يوم واحد قد استوعب كل التعليمات على أكمل وجه. إلا أنه إضافة إلى المعلومات الدقيقة والحاسمة التي عَلمها من تيرينا، أبدع فهرسة مُبسَّطة للكُتب والمخطوطات، وكان يسهل على موظفي بناية الرئيس الحصول على معلومات أي تاجر، أو صاحب حرفة، أو فلاح، بسهولة مطلقة، وبدون تيه في بحر من البحث الطويل، كما كان الشأن في السابق.

ومع ذلك كانت هناك كتب حُرِّم على أنير الاقتراب منها؛ لأنها، بحسب رأي الأمناء وأعضاء مجلس المدينة، مُحَرَّمَة على العامة، ولأنها كتب إلهية، وأي محاولة لقراءة هذه الكتب ستودي بحياة صاحبها، وستغرقه في لعنات أبدية لا فكاك له منها.

حان وقت الغروب، وانصرف الجميع من بناية الرئيس، ولكن أنير استغرق مذهولاً ينهل من الكتب والمخطوطات المتوفرة في المكتبة. وبعد منتصف الليل عثر على ملفات سرية غاية في الأهمية، واطلع على معلومات خطيرة تتعلق بعمل أمناء وأعضاء بناية الرئيس، وعلى أملاكهم التي لا يمكن أن يكونوا قد تحصلوا عليها فقط من خلال روايتهم أو الأعمال التجارية أو الزراعة القليلة التي يمتلكونها، وأهم من ذلك اكتشف أنهم لا يدفعون الضرائب، بل يختلسون من الخزينة بطرق ملتوية ومكشوفة، ولكنهم يتغاضون عن بعضهم بعضاً بتشجيع من أحد أكبر الأمناء الذي بدا لأنير أنه على درجة كبيرة من النفوذ، وأنه يفوق السيد ماريوس في كل شيء. لقد اكتشف بغرابة أن السيد ماريوس مجرد قائد للحرس والجند، ونائب شرفي للحاكم، ومثل هذه المناصب كلها شكلية، وأنه في الواقع لا يمتلك صلاحيات حقيقية؛ فقد أوكلت له المهام الجسيمة في خدمة المدينة، بينما كان الجميع يتقاسم خيرات المدينة بينهم بجشع، بخلاف السيد ماريوس الذي كان ملفه نظيفاً ولا تشوبه شبّهات؛ فهو يدفع الضرائب مع أول كل سنة، وحساباته واضحة ومبيّنة على وجه لا يدخله الريب.

خرج أنير من بناية الرئيس مع الفجر. وفي تلك الأثناء كان شخص قد استنفد صبره في الانتظار داخل ممر مجاور لحجرة مبيت أنير، وكان قبل ذلك قد دخل الحجرة، وعبث بالأغراض الموجودة فيها، ولم يعثر على شيء ذي بال. انصرف ذلك الشخص قبل انبلاج ضوء الفجر، واختفى في العتمة والضباب الكثيف الذي نزل على أرتو في فجر ذلك اليوم.

دخل أنير مجهداً إلى المنزل، ووجد هدوءاً طاغياً يكتنف المكان. عبر ردهة الطابق الأول بهدوء، ثم صعد الدرج إلى الطابق الثاني، محاذراً ألا يجعل تيرينا تستيقظ من النوم. وعندما دخل حجراته، وأغلق بابها بهدوء، وكان ضوء الصباح قد انتشر في الحجرة، تنبه فجأة إلى تغير ما حصل في أشياءه، التي كان يعرف كيف وضع كل شيء في مكانه المناسب. استغرب لهذا العبث البسيط الذي طرأ على تنظيم أغراضه وملابسه، ولكنه سرعان ما فكر في تيرينا، وتذكر أن لدى بعض النساء فضولاً زائداً لمعرفة عالم الرجال، أو ربما دخلت تيرينا حجراته على أساس خلق مناخ حميمي بينه وبينها ولم تجده في الداخل، فأرسلت له هذه الإشارة علّه يلتقط مغزاها. واستقر رأيه في الأخير على أن الأمر لن يعدو فضولاً أو اهتماماً من تيرينا، وفي كل الأحوال وجب عليه أن يفهم هذه الإشارة، وأن يوليها الاهتمام اللازم. وبعد أن استغرق في النوم لبعض الوقت، استيقظ مدعوراً على صوت فاتر ورخيم؛ صوت سقط في نفسه كحلْم جميل. اصطدم ذلك الصوت الدافئ بحالة النوم التي تعتريه، وحرره فجأة من تلك الحالة الثقيلة، فاستعاد يقظته دفعة واحدة:

- انهض أيها الكسول.. الوقت متأخر جداً! كم أنا مجنونة..
تصور.. لقد اعتقدت أنك فارقت الحياة، وكان يجب أن أطمئن
عليك. استحم، وسيكون الفطور جاهزاً. دعني أقترح عليك هذه
الفكرة.. لماذا لا نفطر معا هذه المرة؟!

عندما قالت تيرينا ذلك، أيقن أنير أنها هي من دخل
حجرته ليلاً، وأنها كانت ترغب في أكثر من زيارة عادية.
وعاد بذاكرته إلى موقف بعيد عندما كان في منزل بيكاو في
الخلاء، وعندما تبعها إلى النهر، ورآها تنزع ملابسها قبل أن
يظهر جسدها الجحيمي ناضجا مكتمل الأنوثة؛ تلك النوعية
من الأنوثة المشتعلة بالرغبة والإثارة. وتذكر أنه لمسها، وشعر
أنه ما زال يعتربه ذلك الإحساس الفريد الذي شعر به في ذلك
الوقت، وظل يشعر به إلى الأبد. تساءل أنير بجديّة مطلقة:
هل عليه أن ينسى الأميرة سانيس التي دعتّه إلى زيارة أرتو
عندما كانت صغيرة، ويوجه اتهامه كله إلى تيرينا التي لا تقل
جمالاً عن الأميرة؟! لا.. شيء ما أبقى كلام المعلم ماسين طاغيا
في ذاكرته:

- نحتاج إلى أمازيغي في مدينة أرتو.

الفشل

وبّخ السيد ماريوس بشدة الفارس الذي كلفه بقتل أنير بسبب
فشله في المهمة، ولكن الفارس شرح للسيد ماريوس الموقف، وأقنعه

بأنه لم يفشل، ولكنّ ظروفًا غريبة لم تسعفه، وشرح له كيف فتح المنزل بالمفتاح الذي سلمه إياه السيد ماريوس، وتتبع التعليمات بدقة متناهية، ودخل بحذر شديد، وأيقن أن تيرينا مستغرقة في نوم عميق. وعلى سبيل التأكيد، فقد أطل من بابها، تبعًا لتوجيهات ماريوس، ليتأكد من أنّ أنير لا ينام معها في الحجرة نفسها، ومن أنّهما لا يتقاسمان الفراش كما توجس السيد ماريوس، لكن الفارس رأى تيرينا وحيدة في فراشها، مستغرقة في نوم هادئ، وفتش الغرف السفلى جميعها. وبعدها تأكد من عدم وجود أنير في الطابق الأسفل، صعد شاهراً سيفه إلى الطابق الثاني، وظل مواظباً على حذر شديد مخافة مفاجأة من أنير. وتمكن من الوصول إلى الطابق الثاني، وكان السيد ماريوس قد رسم له خريطة توضيحية لحجرات المنزل. فتح كل الحجّر ليتأكد من خلوها من أنير، ثم توجه إلى حجرة النوم المفترّض أن يوجد بداخلها أنير، وظل يسترق السمع من خلف الباب لعله يسمع حركة، أو شخيراً، أو أي شيء يدل على وجود طريدته داخل الحجرة، لكن الفارس احتار عندما لم يسمع أي شيء! وتشجّع وهو يشهر سيفه الحاد، وفتح الباب بهدوء على أمل أن يتمكن من طعن أنير قبل أن يستيقظ. ودخل الحجرة بالهدوء نفسه، لكن الفارس دهش عندما لم يجد أنير في فراشه. تخنّن أن يكون في الحمام الملحق بحجرة النوم، فانتظر في زاوية مظلمة لعله يخرج من الحمام، لكن لم يحدث هذا الأمر. تسلل الفارس في الأخير إلى الحمام على أمل ضئيل في العثور على أنير هناك، ولكنه لم يجده في الحمام. انتابه القلق، لاسيّما وأن الوقت يمضي، وفكر في

رد فعل السيد ماريوس إذا ما عاد إليه خائبًا من دون إنجاز المهمة التي كلفه بها. أبعاد البحث في جميع الغرف، ولكن من دون جدوى. وخطر بباله في الأخير أن يتتظر في مدخل الطابق الثاني لعل أنير يعود من مكان يُحتمل أنه قضى به بعضًا من ليله. ولكن الفارس في الواقع، وهذا لم يقله للسيد ماريوس، كان قد تفتق ذهنه عن فكرة بدت له ملهمة.. قال في نفسه: ربما يتوفر أنير على أوراق سرية، أو أشياء تدينه قانونيًا؛ فيتم إلقاء القبض عليه، بدل طريقة القتل التي لم يفهم دواعيها، وتتمنى أن لا يكون هو منفذها، خصوصًا وأنه رأى دائمًا في أنير شخصًا طيبًا، ويمثل طموحًا جميلًا، ونفسية محببة. فتش في أغراضه وبين ملابسه لعله يعثر على دليل دامغ، لكنه وجد كل شيء عاديًا، ولا شيء يثير الشكوك. ظل الفارس مرابطًا في مدخل الطابق الثاني في زاوية شبه مغلقة، منتظرًا عودة أنير لكي يجهز عليه حالما يمرّ من أمامه، ولكن أنير لم يظهر. تعب الفارس. ورغم ذلك، استمر مرابطًا في مكانه إلى أن باغته الفجر؛ فانسل بهدوء مغادرًا المنزل، وحيرة عظيمة تكتسحه.

تلقى السيد ماريوس تفاصيل القصة باستغراب. لم يدخله أي ريب في كل ما رواه الفارس.. أولاً لأن الفارس لم يسبق أن كذب عليه، وثانيًا لأن ماريوس متأكد من أن الشاب أنير يتوفر على قدرات خارقة. تعاطمت في ذهنه المخاوف، وتبين له أنه يحارب شبحًا مخيفًا، وأن هذا البربري الغريب، الذي وفد إلى مدينة أرتو لإنجاز مهمة غامضة، لا يمكنه إلا أن يكون شخصًا بطاقاتٍ لا تتوفر لباقي البشر. شعر بالخطر، وندم على أنه قرر دخول هذه

المغامرة، ولكن الأمر أصبح واقعًا ملموسًا، والمواجهة أصبحت مفتوحة بينه وبين هذا الشاب الأمازيغي.

قرر السيد ماريوس زيارة أنير في مقرّ عمله. وقبل ذلك، كان قد أوفد من أيقظ كل الحراس الليليين ليسألهم واحدًا واحدًا عما إذا كانوا قد رأوا أنير، لكنّ جميعهم نفوا رؤيتهم الشابّ البربري، وأكدوا له بيقين، لا ينفذ إليه الشك، أنه حتى رائحته لم تكن تعبق تلك الليلة في شوارع أرتو وأزقتها وحاناتها. توجه السيد ماريوس متوجسًا فوق جواده إلى مكتبة بناية الرئيس، ورأى من الفور أنير غامرًا وجهه في الملفات، ينسّقها ويعيد تنظيمها على نحوٍ أدهشه:

- لا يمكن! كيف لشخص بربري أن يتقن عمل الأرشيف والمكتبة؟! شيء لا يصدقه عقل.

حيّا السيد ماريوس أنير بتحية مرحة، ورد عليه أنير التحية بأفضل تحية يمكن الرد بها. لقد كان مرهقًا من الداخل، ولكن شغفه الشديد لمعرفة واكتشاف خبايا المكتبة جعله يخرج كل طاقاته الباطنية، ويتغلب على النوم والإرهاق:

- يبدو أنك خبرت عمل المكتبات قبل مجيئك إلى مدينة أرتو؟

ابتسم أنير ابتسامة هادئة، وقال:

- أنت بهذا تنقص من أهلية المعلمين الذين كلفتهم بتعليمي..

إنهم مهرة!

- حسنا! يبدو أنك سريع التعلم.

- لن أنكر هذا، يا سيد ماريوس، ويشرفني أنني أتعلم منك أشياء كثيرة كل يوم.

هذه العبارة العفوية من أنير أدخلت الريب إلى نفس السيد ماريوس:

- مثل ماذا أيها الشاب البربري؟

استفزت تسمية «البربري» أنير، وقال ليستر جمع كرامته:

- يمكنني أن أتعلم من مقتحم لطيف لأرضي وأرض أجدادي الكثير، بما في ذلك مقاومتكم إذا اقتضى الحال؛ مثلما فعلتم أنتم مع إمبراطوريات رغبت في احتلال أراضيكم.

- أنير، نحن لا نتحدث في السياسة. ثم يجب أن تدرك بأننا أصبحنا نشعر، بعد مرور هذه الأجيال، بعدم وجود فوارق تُذكر بيننا وبينكم.

- ولكن هل تستطيع أن تشرح لي لماذا هناك حي للأمازيغ في أسوأ موقع في مدينة أرتو؟.. ثم لماذا يفرض على الفلاحين الأمازيغ الصغار دفع ضرائب ضخمة تجعلهم - في النهاية - يكفون عن زراعة الأرض، عكس الفلاحين الرومان؟

- على كل حال، لست أنا من سنّ هذه القوانين، وأعتقد شخصياً بأن هذا الأمر يجب أن يتغير.

- أنا مقتنع بأن نيتك صالحة يا سيد ماريوس، وبأنك شخص خيّر.

- أشكرك.. كلام طيب ينشرح له القلب.

وبعد صمت قصير، أضاف السيد ماريوس مُغيراً مجرى الحديث:

- لم أكن أعلم أنك سكير.

- نعم، لقد جبت كل حانات المدينة، وشربت منها جميعها، وكان يجب أن أخرج بخلاصة في النهاية.

صمت أنير، وظل السيد ماريوس ينتظر إكمال الكلام. وبعد لحظات واصل أنير:

- لقد اكتشفت شيئاً ربما كان مهماً.. هذه المدينة تبدو هادئة، تعمّها السكينة ظاهرياً، ولكنها- في الواقع- تعجّ بالمتناقضات.

استغرب السيد ماريوس من كلام أنير، وأيقن أنه يلمّح إلى شيء ما، وقال مستوضحاً:

- لست أدري بأي منهجية بنيت هذا المعطى لتخرج بهذه النتيجة؟

- ستعرف كل شيء يا سيد ماريوس.. وقریباً جداً.

دارت في رأس السيد ماريوس عبارة «وقریباً جداً». تأملها، وقلبها على أوجه عدة، وتذكر أنه طلب إلى الفارس قتل هذا البربري الخطر «قریباً جداً»، ولكنه فشل. غير أن الفشل غير مقبول في المرة المقبلة. هكذا ردّد في نفسه، ثم انصرف دون أن يودع أنير. وبينما كان السيد ماريوس يهّم بامتطاء جواده، رأى الأميرة سانيس تدخل

المكتبة.. حينذاك أدرك خطورة الموقف، وتيقن أن الأمور ستسير نحو الأسوأ إذا لم يتخذ الإجراء الذي قرره في حق أنير في أقرب وقت. وعزم هذه المرة على أن يشرف بنفسه على عملية الاغتيال. نعم، لم يعد مهتماً كثيراً بالأميرة سانيس؛ فمبوله كلها تتجه نحو تيرينا التي تقاسمته قلبها مع أنير. ولهذا الأسباب وغيرها، يجب أن ينتهي هذا البربري من الوجود؛ لتصير تيرينا له وحده، ولئيبعد شبح هذا البربري المخيف عن المدينة.

دخلت الأميرة سانيس بخطوات واثقة عبر الردهة، ثم اقتحمت المكتبة على أنير. وجدته منهماكاً في ترتيب المخطوطات القديمة. فوجئ بأريج مدوّخ لرائحة عسل وردي تنتشر حوله. رفع رأسه وراها. كانت تقف أمامه شامخة كوردة في أوج تفتُّحها:

- يبدو أنك خطوات الخطوة الأولى في اتجاه الوصول إلى هدفك، ولكن هناك خطوات أخطر بكثير يجب أن تتخطاها.. يجب أن تكون حذراً جداً.

لم يفهم أنير شيئاً من كلام الأميرة سانيس، فسألها:

- قد أتحملي، في بعض الأحيان، بغباء بسيط أستطيع التغلب عليه، ولكن، في هذه الحالة، وأنا في حضرتك، يبدو أنني أفقد كامل فطنتي!.

- «ستفهم كل شيء في الوقت المناسب».. قالت ذلك، ثم انسحبت تاركةً أنير مغموراً بحيرة لم يعرف كيف يخرج منها سريعاً. سانيس بدورها كانت تعيش حالة قلق عجيبة، لم تعرف القرار المناسب

الذي ينبغي أن تتخذه!. لقد أبلغت من قبل حارس أن أنير في خطر، وأن هناك مخططاً، من إعداد السيد ماريوس، لقتله. لم تهتم!. اعتبرت الأمر امتحاناً حقيقياً ينبغي لأنير أن يتعرض له؛ فإذا نجح، فسيكون- ولا شك- جديراً بحبها؛ فهي لن تقبل بشخص تدافع عنه قبل أن يخوض تجربة الدفاع عن حياته بنفسه.. مثل هذا الرجل لن تجده الرجل المناسب لها ولأحلامها.

استغرق أنير اليوم كله، وهو يدقق في المخطوطات، ويعيد قراءتها، ويتأكد من الحسابات الواردة فيها.. لم تكن المهمة سهلة؛ فقد انطوى الأمر على كشف دقيق لمنهجية مُخادعة قد لا يتيسر فهمها لأي خبير عادي في عمل المكاتب. ولكن أنير تعلم أشياء كثيرة من تيرينا، التي أخبرته عن أمور غاية في الخطورة، ولكنها لم تكن تدرك أبعاد تلك الأمور؛ بسبب تعوُّدها على حياة بسيطة، وبعيدة عن التعقيدات. ولكن أنير شيء آخر.. إنه يحلم بتحقيق كلام سمعه من المعلم ماسين قبل سنوات.. «نحتاج شاباً أمازيغياً نبياً، وعلى قدر كبير من الحكمة، ليقوم بمهمة في غاية النبيل.. يجب على الأمازيغ السيطرة سلمياً على مدينة كبيرة؛ مثل أرتو.. لن نحتاج إلى خوض حرب لطرد الرومان! لقد أصبحوا واقعاً في حياتنا، كما لا نحب أن تسيل الدماء، ولكن ينبغي أن تسود العدالة الكاملة بين جميع الشعوب التي تعيش على أرض الأمازيغ». تُرى مَنْ يكون هذا الشاب يا أنير؟! لم يجب أنير عن سؤال معلمه ماسين، ولكنه تأكد من أنه المقصود بهذا الخطاب الواضح، ووجد في كلام معلمه ثقة يجب أن لا يخيبه فيها. وجاءت دعوة سانيس له لزيارة أرتو

في الوقت المناسب؛ حينذاك أدرك أنه يجب أن يجتهد لتحقيق هذا الأمل.. أحب زهرة الجمر، وكان يمكنه أن يدوس بأقدامه على كلام المعلم ماسين ليرتبط بالمرأهقة الفاتنة، ولكنه لم يفعل.. لقد شعر بأنه يحمل آمال الأمازيغ جميعهم على عاتقه، وأدرك بحسّ ملهم أن هناك أشياء عظيمة تتعلق بحياة الشعوب والمجتمعات تفوق في أهميتها حياة فرد، أو مشاعر فرد واحد. الشعب الأمازيغي تحمّل بمضاضة المئز الذي يمارسه الرومان، وقنع بالتعايش السلبي معهم في أحسن الأحوال، وسكن الجبال وهوامش المدن... الشعب الأمازيغي شعب مُسلم لا يحمل السلاح إلا مضطراً. وحين يشتد الظلم عليه، فإن هذا الشعب ينفجر كالبركان، ويتحول مقاتلوه إلى مقاتلين أسطوريين لا أحد يستطيع الوقوف في وجوههم. لقد سمع أنير عن البلاء الحسن الذي أبلاه سكان جبل الأمازيغ في معركة الذئاب، ولكن قلبه يوجعه؛ لأن حاكم المدينة وأمناء وأعضاء بناية الرئيس لم يكافئوا هؤلاء المقاتلين الأصلاء بأي شيء!. لقد تركوهم في الجبل، يعيشون حياة فيها الكثير من الذل والمهانة.

أريد حبًا وحشياً، ليحطم نومي الخفيف الكسول،
إن ثقلي ليس الوحيد الذي تحمله أغطية السرير.
ثم استعد للقتال ودع حبيتي تدمرني،
إذا كانت واحدة قادرة على ذلك، وإلا سأخذ اثنتين.

زيارة سيفا والأخيرة

وقفت السيدة جيزيا في فناء كوخ انتصب في أعلى نقطة من قمة جبل الأمازيغ. كانت تسرح في ذلك الكوخ بعض السلاحف البرية الصغيرة، وبضع قطط، وثعابين غير سامة تتلوى على شجرة منخورة وميتة. كان فناء الكوخ يطل من جهة على الشروق، ومن جهة أخرى على الغروب؛ من خلال كوّتين فُتحتا في اتجاهين معاكسين. وكانت لحظات الشروق والغروب هي اللحظات التي تؤدي فيها السيدة جيزيا طقوسها اليومية الغربية؛ فترى من خلال الغروب الأخبار السيئة المقبلة، وترى من خلال الشروق الأخبار التي تحمل البشر والخير. وكانت السيدة جيزيا تشرد في تأملات وصلوات مغرقة في العمق لإلهة ثفوشت. تقودها أحياناً تلك الصلوات إلى نوع من الصرع الصاخب لا تستيقظ منه إلا مع

الصباح، وقد لطح جسدها العرق، أو تجدد نفسها في غمرة هدوء
يجمدها طوال الليل؛ فيببس جسدها العاري المتصق بجدار الكوخ
المبني بالقصب والعيوان، ورأسها يملأ الكوة، ولا تستفيق من موتها
المؤقت إلا عندما تشعر بدفء الشمس يلفحها ويعيدها إلى وعيها،
أو عندما تشعر بأنوار الشمس المشرقة خلف الغمام تلامس أعماقها
بوداعة كاملة الصفاء.

ثبتت السيدة جيزيا مرأتين؛ الأولى جهة الشروق، والثانية جهة
الغروب.. وعرت جسدها كاملاً؛ كما تفعل دائماً عند كل لحظة
غروب أو شروق، وظهert ملامح جسدها المتحفزة مخفية تحت
ظلال الغروب الكثيفة، والظلام الأول لليل بدأ ينزل بطيئاً نائراً
ثقله بهدوء. كانت قد أشعلت قناديل قبل لحظات ستظل مضيئة
مع استمرار غروب الشمس، ومع ظل وظلام الفناء، الذي
يصبح- في الأخير- فضاء غريباً يجمع كل المتناقضات في الآن نفسه.
كان شعر السيدة جيزيا الطويل، الملقى على رديها المدورين،
والملون بألوان نباتية، تتكون أساساً من ماء شقائق نعمان مركز
وقشور رمان، مما يجعله يكتسي لوناً عجيباً ومهيّباً. ويبدو جسدها،
الذي تختفي ملامحه تحت ظلال داكنة، منتصباً وشاخاً أمام المرأة،
بهيئة امرأة منبعثة من زمن عتيق لا يحد.

تتماهى السيدة جيزيا مع محيطها وقت استغراقها في صلاتها
العجيبية، وتتوحد مع الكائنات والأشجار والتراب والحجارة
القريبة منها؛ فتصبح شيئاً يجمع في نفسه كل العناصر الموجودة على

الأرض، وتتعايش مع مختلف المخلوقات التي تعيش فوق هذه البسيطة، وحشرات متنوعة تملأ الكوخ في الصيف، وتحط الطيور على السطح، وترعى بضعة كائنات في الباحة الضيقة؛ بحيث كانت تلتف في تلك الأمسية بالذات ثلاث أفاعٍ على ساقها، وتلتوي على فخذيها، وتحيط بخصر السيدة جيزيا كحزام مبرقع يطلق لمعانا يشبه حراشف سمك، وتتوزع عناكب وعقارب - صغيرة وكبيرة - على ساعدها وعنقها. على حين تظل الققط والسلاحف تتجول في فناء الكوخ بحيوية غير معهودة.

استمر وهج الشموع يتراقص، مغطياً جسد السيدة جيزيا بلون أحمر وكأن النار تكاد تشب فيه.. وبدت عدة صور مضطربة تتحرك داخل المرأة التي كانت تقف أمامها السيدة جيزيا؛ صور تنقل الضوء والظلام المنعكس من كل شيء في الفناء.

رددت السيدة جيزيا كلاماً مبهماً؛ كلاماً يختزل كل لغات الدنيا في حروف قليلة مصحوبة بعويل عجيب، وكانت تخاطب بكلامها أرواحا بعيدة، وترى بواسطته أشياء في الحاضر والمستقبل. لقد بدا لها، وسط غبار أحمر كثيب، رجل أعرج، أمازيغي نبيل، يقبل من مكان بعيد، وكان مجهداً وحزيناً، ولكنه - في الوقت نفسه - كان يحمل في دواخله أملاً لا يُجحد. أشفقت عليه السيدة جيزيا.. بدا لها تعيساً جداً، ويتبع وهما لن يظفر به مطلقاً.. هكذا تقول النبوءة التي تمت السيدة جيزيا أن تحيب هذه المرة.

صرخت صرخة مدوية؛ فتشقت المرأة، وراقبت بقايا أشعة

الشمس الهاربة نحو الغروب التام. وبعد وقت، ألفت نفسها وسط ظلام لا يكسر حدته إلا القناديل التي تشتت نوراً قليلاً هنا وهناك. شعرت السيدة جيزيا بحزن، وانتابها قلق مهول.. ورأت أشياء مروعة في الأفق، ولم تستطع تحديد شكل هذه الأشياء المخيفة، ولكنها أيقنت أن الأمور لن تسير كما يجب بعد اليوم، وأنه سيأتي وقت تتغير فيه أشياء كثيرة، وفي لحظة لم تستطع التقاطها بأي شكل من الوضوح الممكن.. رأت فقط لوناً أسوداً يحوم أو يحتوي فضاء حي جبل الأمازيغ.

انزوت السيدة جيزيا في ركن الكوخ، وتلفعت بكتل الظلام الكثيف الذي سقط مبكراً في تلك الليلة الشتوية الباردة. لقد أصبحت بعيدة عن القناديل التي كانت تنير التشققات في المرآة؛ تلك التشققات التي كانت، باستمرار، تعكس صوراً متباينة وغير واضحة. استبدت بالسيدة جيزيا هيجان لم تستطع التحكم فيه. لم تقاوم تلك الرغبة الجامحة في معرفة أكثر مما رأتها في المرآة حول مستقبل أرتو.. لقد تبينت فقط رجلاً أمازيغياً نبيلاً يُقبل من بعيد، ولكن النبوءة توقعته له الخيبة في نهاية الأمر.

صرخت مرة أخرى صرخة مدوية. سحبت الثعبان الملتف على عنقها، وقطعته نصفين بيديها، فسال دمه على أصابعها، وأخذت تلعق ذلك الدم بنهم عجيب. فرّت الققط من فوق السور، واختفت السلاحف ببطء، وتسَلَّت الثعابين الأخرى مختفية في جحورها. نهضت السيدة جيزيا، والتقطت سلحفاة كانت تبتعد

عنها هاربة. قطعت رأس السلحفاة بخفة ماهرة، ثم مضغته، وسمعت العظام تتهشم في فمها، وكسرت بأصابع يديها القويتين قوقعة السلحفاة، وأخذت بطقوسية عجيبة تمصّ دمها ولحمها بلهفة وكأن بها جوع أيام طويلة.

خيم ظلام كثيف، وأشعلت السيدة جيزيا ناراً وسط فناء كوخها، وبدا جسدها المجعد -الذي لم يفقد من أنوثته شيئاً رغم تقدمها في السن- مثيراً، ويفرز رغبة لا تقاوم. جلست، وانتصبت حلمتها جرّاء رغبة جنسية اجتاحتها، واشتعلت في جسدها كحريق بارد. ورمتُ بها تلك الرغبة إلى زمن غابر مضى عندما تزوجت في عمر صغير، وعندما علّمها زوجها سيفاؤ، الطاعن في السن آنذاك، فنون قراءة الطالع، وفنون صناعة الجنس.. لقد كان فحلاً يضاجعها خمس مرات في الليلة الواحدة على الأقل، رغم أنه كان في آخر أيام عمره.

تعلمت السيدة جيزيا من زوجها الوحيد في الحياة، الذي مات بعد خمسة أشهر فقط من زواجهما، كيف تستطيع إشباع رغباتها الجنسية بأنجع الطرق، التي لا يمكن لرجل أن يمنحها إياها. لقد كانت تستعيد ليالي زواجهما الماتعة، والزواج المبهر الذي باركته الإلهة ثفوشت، ذات ضحى ربيعي مغمور بدفء شمس ساطعة وسط سماء زرقاء خالية من الغيوم والطيور والرياح، جنب بحيرة يتصاعد بخارها الأحمر الحار؛ فيغمر الجسدين العاريين بمزيد من الحرارة والرغبة؛ لتتحول غرائزهما

إلى بركان هادر يفجر جسديهما، ويغمرهما بمتعة وكأن لا نهاية لها.

أبلغها سيفاو، وهو يلهث، بإيحاء عميق ارتجت له أوصالها الداخلية عندما وصلت إلى ذروة اللذة التي هزتها هزاً عنيفاً، بأنها لن تستطيع بعد أن تمارس الجنس، ولن تشعر بغريزته أبداً، ولكنها- في المقابل- لن تعيش عمراً للتفكير في الجنس ومتعه، وستركز كامل اهتماماتها في الأحداث التي ستجري بالقرب منها، ولكنها لن تستطيع فعل أي شيء لتغيير تلك الأحداث، كما أنها- خلال هذه الفترة- ستحافظ على أنوثتها المشهية، ولن تفقد جاذبيتها، ولن تستطيع التنبؤ بشيء؛ لسبب بدا معقولاً. لقد قرر سيفاو أن يموت.. موته الأول كان مجرد موت تجريبي مارسه في واقع وفي بُعد آخر، ورافق فيه أرواحا تشبه روحه الهائمة الباحثة عن حقيقة مستحيلة؛ حقيقة تتمثل في خلود سرمدى، ولكنه فشل، وتبين له أن الخلود يتجسد في الفناء النهائي؛ لأن البقاء، بكل صيغه المختلفة، يلغي الخلود كقيمة وكجوهر في الحياة.

نامت السيدة جيزيا تلك الليلة مقرفة في الركن الذي كانت تجلس فيه عارية. وفي الصباح أفاقت، فوجدت جسدها ملطخاً بذرق العصافير، وبالندى الصباحي الرطب، وبوريقات أزهار شجر سرو مبللة بالندى رماها الليل من أمكنة بعيدة.

أنشد أغنية النصر،

وردد الغناء من جديد؛

فالطريدة التي بحثت عنها طويلاً وقعت في الشراك.

الطريدة والصيد الماهر

تناول أنير وجبة العشاء مع تيرينا، وظل منتبهًا لعله يلتقط أي إشارة تدل على رغبة الفتاة الجميلة في التقرب إليه، لكنه وجدها عادية كما كانت دائماً.. لم يزد اهتمامها به، ولكن ذلك الاهتمام أيضاً لم ينقص. مع ذلك، بدا واضحاً أنها تحبب في أعماقها مشاعر حب ملتبسة نحوه، ولكن لم ترق تلك المشاعر لتتحول إلى ما تصوره ليلة أمس من كونها تحاول الاقتراب منه حميمياً. الأمر الذي دعاه ليعيد التساؤل عما حدث في غرفته أثناء وجوده في المكتبة بالليل. حاول أن يفكر في جميع الاحتمالات، واستقر اقتناعه - في النهاية - على كون تيرينا دفعها فضول غريب لمعرفة عالمه الذي بدا لها متميزاً، أو ربما يحتوي على أسرار ما.

ودّع تيرينا، ثم صعد إلى الطابق الثاني. كان مرهقاً بعدما كان قد

اشتغل اشتغالاً شاقاً يومين من دون أن ينام إلا نزرًا يسيرًا. بدّل ملبسه، وارتمى على السرير. وبعد أن فكّر في أشياء كثيرة، وبعد أن وجد نفسه - في الأخير - لا يفكر في أي شيء محدد، جرفه النوم بسرعة. في الخارج، كان هناك أربعة رجال يُربطون حول المنزل، يترأسهم عن بُعد السيد ماريوس، الذي أعدّ خطة مُحكمة لاغتيال أنير.. خطة لا يمكن للشاب أن يفلت منها في كل الأحوال هذه المرة.. هكذا خاطب السيد ماريوس الفرسان الثلاثة، وهو يشرح لهم الخطة:

- سيدخل أولاً الفارس ميركو.. إنه يعرف خريطة المنزل جيدًا.. لقد دخلها ليلة أمس، وقضى فيها الليل كله تقريبًا. سيحاول بمفرده إنجاز مهمة قتل أنير، وإذا فشل في ذلك سيتبعه كيليو وتوباو. أعتقد أن شابًا بربريًا، يتميز بالذكاء والخبرة في علوم الحياة والطب والفلسفة، لن يكون أيضًا مقاتلاً من الطراز الذي يمكنه من مجابهة ثلاثة فرسان متمرسين، من أشرس جند أرتو، وأكثرهم تدريبًا.

كان السيد ماريوس قد بثّ عيونًا كثيرة تعقبت خطوات أنير طوال اليوم، فأكدت له أنه موجود داخل منزله، ولم يغادره. وكان موقنًا أن الموقف أصبح على النحو الذي تمنّاه، وأن لا شيء سيقف في وجه القضاء على أنير. أشار السيد ماريوس إلى ميركو بفتح الباب الخارجي. فتح ميركو باب المنزل بهدوء، ودخل بخطوات حذرة كما المرة السابقة. صعد الدّرج شاهراً سيفه. بدأ أنير في تلك

اللحظة يتململ في رقدته، وشمّ، وهو نائم، رائحة موت تقترب. اضطرب على نحو مرتبك، ورأى كما لو أنه في حلم حقيقة المعلم ماسين يقول له:

- لن يقتلك أحد إلا إذا كنت أنت من سيساعده على ذلك.

انتفض فزعاً من النوم، ورأى في تلك اللحظة بالذات باب الحجره يفتح، ثم رأى طيف شخص يدخل، ففكر لأول وهلة في تيرينا، ولكنه سرعان ما تبين ضخامة الطيف. ارتج من الداخل، ورسم عدة تخيّلات، وبدا أن الخيارات أمامه ضيقة جداً، وحتى سيفه لم يكن في المتناول! ولكنه مكث هامداً في مكانه، من دون أن يحيد ببصره عن الطيف الذي أصبح أقرب إليه. وفي اللحظة الحاسمة، أدرك أنير أن عليه أن يستخرج طاقة جسمه الكاملة، وفكر أن بمقدوره أن يكون أسرع في رد الفعل من الطيف الذي يبدو أنه سيهاجمه بكل ما يملك من قوة. ظلت عين أنير تراقب الطيف، وظل الطيف يقترب بحذر شديد شاهراً سيفاً. وعندما أصبح طيف الفارس المجهول قريباً جداً من جسد أنير، رفع الفارس السيف عاليًا، ثم هوى به بكل قوة؛ فغار السيف بنحو نصف ذراع أو أكثر في السرير. وفي تلك اللحظة بالذات، شعر الفارس بأنه يُرمى فجأة على الأرض، وشعر بذراع قوية تطوّق خاصرته، وتشلّ حركته شللاً تاماً، قبل أن يجد نفسه قد قيّد من يديه ورجليه، وكوم في الأخير بملاءة من ملاءات الفراش.

رفع أنير في يده سيف الفارس، واستشعر خطراً متزايداً يحوم

حول المنزل. أطل بهدوء من وراء ستار نافذة الحجر، لكنه لم يلاحظ شيئاً غير عادي. واستمرت رائحة الموت تتعاضم من حوله. وفجأة اقتحم الحجر شخصان غريبان. كان الوقت أضيق من أن يستطيع التفكير في كيفية رد الهجوم، الذي يبدو أنه سيكون كاسحاً. ظل واقفاً وسط الحجر، والسيف في يده. تحرك شخص وأخذ الميمنة، وذهب الثاني إلى الميسرة، وأصبح أنير عملياً بين حدّي سيفي الفارسين.

في لحظة متزامنة انهالت على أنير ضربات السيّفين من الجهتين، ولكن أنير كان من السرعة بحيث رمى جسمه بعيداً. وفي اللحظة التي سقط السيّفان في الخواء، استطاع أنير، الذي أصبح يملأ الباب، أن يطيح سيّفاً من يد الفارس الذي كان على يمينه. وحين حاول هذا الفارس التقاط السيّف، أسرع أنير، ووضع سيفه على رقبة الفارس، وأمره أن يتعد عن السيّف. حاول الفارس الآخر أن يناور من الجهة اليسرى، لكن أنير خاطبه بصوت هادئ:

- لا تكن أحمق.. أرُم من يدك السيّف، وإلا ستكون نهايتك حتمية.

فزع الفارس، ولكنه حاول المقاومة، وعندما حرك سيفه باتجاه أنير، استطاع هذا الأخير أن يرمي به بعيداً، من خلال حركة بارعة من سيفه. وفي تلك اللحظة، تبين أنير أن الرجال المُعتدين ينتمون إلى فرسان أرتو؛ فقال مخاطباً الفارس المثلث:

- كبّل رفيقك بإحكام. لا يجب أن تخاف. لن أقتلكم على أيّ

حال.. سأردكم ثلاثكم إلى مَنْ بعثكم آمين، بشرط أن تعلنوا لي
عن الذي أمركم باغتيالي، وما السبب الذي دعاه إلى ذلك؟

سارع الفارس المثلث، فكبل رفيقه المستسلم تمامًا. ولما انتهى
طلب إليه أنير أن يسلمه ملاءة من الملاءات الزائدة الموضوعه فوق
الرف، ولما فعل، كبله أنير، وأحكم تكبيله. وكذلك فعل بصاحبه
إلى درجةٍ لم يعد بمقدورهم سوى التنفس... تقريبًا.

- والآن ليقبل أحدكم من بعث بكم لاغتيالي؟

أجاب أحد الفرسان:

- إنه السيد ماريوس.

- السيد ماريوس! السيد ماريوس يريد قتلي!. لماذا يريد قتلي
يا تُرى؟

- صدقني يا سيدي.. لا أعرف!

- فليعترف أحدكم، وإلا قتلتكم جميعًا.

صاحوا برعب:

- لا نعرف يا سيدنا.. قال لنا فقط: اقتلوه، ولم يكن من حقنا
أن نسأل لماذا.

فهم أنير أن الفرسان المثلثين لا يستطيعون معرفة لماذا يريد السيد
ماريوس اغتياله؛ فمثل هذا السر الخطير لا يمكن إفشاؤه لفرسان
عاديين. بل أكثر من ذلك احتار أنير لماذا يريد السيد ماريوس

اغتياله! ولكنه-في الأخير- لم يجد كثير استغراب في الأمر؛ فهو أمازيغي، والسيد ماريوس روماني.

المواجهة

كان الفجر يقترب. لم يكمل أنير نومه. ظل مشغول الذهن بهذه المؤامرة الخطيرة، ودار بخاطره ما قالت له سانيس يوماً:
- ستفهم كل شيء في الوقت المناسب.

لم يكن متأكدًا من أنها كانت تقصد مثل هذا الأمر، واستغرب كيف لم تحذره إذا كانت على علم. ولكن استغرابه سرعان ما خفت بشبه إحباط حين تبين له أن الأميرة سانيس لا توليه- في الواقع- أي اهتمام يذكر. شعر بيأس، وساءل نفسه بتأنيب: ماذا يفعل هنا، وسط قوم ليسوا هم قومه، ولن يقبلوا به وسطهم أبدًا، بل أكثر من ذلك لن يقبلوا وجوده في مكان هو حكر على الرومان وحدهم؟! مكانه الطبيعي، في نظر هؤلاء الوافدين من وراء البحر، هو جبل حي الأمازيغ.

عندما سطعت الشمس، وعندما تبين لأنير أن السيد ماريوس سيكون في مكتبه، وبعد أن تناول الفطور مع تيرينا، التي غادرت بعد ذلك، أمر بحصانين، ثم وضع فوقهما الفرسان المكبلين. أخذ في يده زمام الحصانين، وتوجه بخطوات هادئة إلى بناية الرئيس. وخلال الطريق التي قطعها، لم يستطع أن يتجاهل نظرات

الاستغراب التي كانت تتطور أحياناً إلى نظرات استنكار من المارة، بل هناك من قال ضاحكاً:

- هل هم للبيع؟. كم ثمنهم جُملة؟ أمنحك خادمة حسناء.. بربرية.

ثم قال آخر مستغرباً:

- بربري يقود، بمثل هذا الإذلال، فرسان أرتو، الذين أنقذوها من خراب محقق في معركة الذئاب!!

ولكن أنير لم يبال، بل استمر يجرّ الحصانين، وفوقهما الفرسان الثلاثة مكبلين. وصل بناية الرئيس، ولاحظ دهشة حارسها. لم يستأذن، ولم يلق التحية. ودخل البناية، ووقع حوافر الحصانين يدقّ الأرضية الرخامية، ويتردد صداها قوياً في كل جزء من البناية. توجه إلى مكتب السيد ماريوس، ووقف عند بابه، ولكن السيد ماريوس، الذي غادر ميدان المؤامرة مبكراً، كان قد خرج يستطلع الأمر حين سمع الجلبة والحركة وسط البناية. استبدت بالسيد ماريوس دهشة غامرة. كانت عيناه حمراوين؛ بسبب التوتر الشديد الذي عاناه ليلة أمس، وبسبب أنه لم ينم الليلة كاملة، مع أنه كان مرهقاً. نظر إليه أنير، وحينذاك أدرك صدق الفرسان؛ فكل شيء في السيد ماريوس كان يشهد أنه هو الذي كان وراء المؤامرة. خاطبه أنير بمزحة وقعت مُرّة في نفس السيد ماريوس:

- في المرة المقبلة، إذا أفلحت في اغتياي، سأعرف - على الأقل - أنك، أنت يا سيد ماريوس، من ارتكب الجرم.

انتزع السيد ماريوس من بين شفثيه ابتسامه ميتة، وقال بصوت مرتجّ:

- ما هذا المشهد الذي تراه عيناى؟ هل ارتكب هؤلاء ما يستحق سجنهم؟ هل يكونون قد سرقوا شيئا؟

ضحك أنير بخبث، وقال وهو يتكئ على الجدار، وزماما الحصانين في يده:

- يجدر بك أن تسألهم عما فعلوه ليلة أمس. لقد أحضرتهم لتنظر في أمرهم.

قال ذلك، ونزع من على وجوههم الأقمشة التي كانوا يتلثمون بها:

- هيا قولوا للسيد ماريوس ماذا جئتم تفعلون في حُجرتي؟

قال السيد ماريوس بمراوغة ماهرة:

- هل وصلت بهم الوقاحة إلى اقتحام حجرتك يا أنير؟. أين كنت؟ ومن ألقى عليهم القبض؟. يجب أن أكافئ الحراس الذين ضبطوا هؤلاء الأوغاد في حجرتك.

ضحك أنير، ثم قال وهو يعبث بلجام أحد الحصانين:

- لا تستهن بقدراتي يا سيد ماريوس؛ فأنا أيضا فارس أمازيغي تدرّبت على القتال بمهارة لا تضاهى.. صحيح نحن الأمازيغ لا نستعمل السيوف إلا نادرا، ونجد في الرماح وسيلة أنجع للقتال، ولكنني - رغم ذلك - استطعت تعلّم أشياء كثيرة في القتال، ومنها المبارزة بالسيف، من معلم أمازيغي بارع اسمه ماسين.

- هذا جيد يا أنير! أعرف ذكائك ومهاراتك، ولكنني لم أقف على قدراتك القتالية إلا الآن كما تروي.

- ولقد لمستها بنفسك يا سيد ماريوس؛ فأنت من أرسل الفرسان لا غتيال!

- أتمنى ألا يذهب بك الخيال بعيداً! لا صلة لي بالموضوع، ويمكنك أن تسألهم.

- لن أفعل يا سيد ماريوس، فأنا متأكد من أنك أنت من أمرهم بقتلي!

- هراء يا أنير! أنت أكثر حكمة من أن تفكر على هذا النحو. لقد كنت دائماً شاباً نبيهاً، تعرف كيف ترى الحقيقة خلف الأشياء المظلمة. وبالتأكيد، فإنني أتوقع بأنك لن تصدق هؤلاء الأوغاد.. سأعرف كيف أوذبهم!

- إنهم مجرد فرسان أبرياء.. لم يفعلوا شيئاً يستحقون عليه العقاب.. تلقوا أمراً باعتبار أنهم جنود، وكان عليهم أن ينفذوه. إنني أفهمهم.. أفهمهم جيداً يا سيد ماريوس.

ردد السيد ماريوس في نفسه: «ستقتل يوماً أيها البربري القذر، ولن تعرف من أي جهة أو وسيلة سيأتيك الموت، سأمنحك فرصة صغيرة لتطمئن».

غادر أنير بعد أن أنزل الفارس المكبل من فوق حصانه، ثم امتطاه، وخرج إلى فضاء المدينة، وتسربت إلى نفسه روائح بعيدة

بدت وكأنها تأتي من بلدته دريو، وتغيرت في عيونه ألوان مدينة
أرتو، فبدت قائمة، وتصور أشباحاً هائمة تحوم فيها من دون وجهة
محددة، وبدت له الأميرة سانيس مضمخة بعسل أسود، ورأى
نفسه يلحق ذلك العسل من على جسدها العاري، وكان طعم ذلك
العسل مُراً وغير مستساغ.

أنا سأرشدك،

فشق طريقك بالطيران ورائي؛

عليك أن تتبعني،

وأنا سأقودك في الطريق الصحيح.

لأننا إذا سعدنا عبر أثر السماء نحو الشمس،

فتحت أشعتها سيدوب الشمع،

وإذا اندفعت أجنحتنا قريباً جداً من البحر فالريش الهوائي سيتل في العباب.

تيرينا والبحر

دخلتُ من النافذة نسائم شتاء وديع، في صباح لا يشبه صباحات شتاء أرتو؛ فقد أشرقت الشمس، وجفت البرك المائية في الشوارع، ونظف العمال كل القذارة التي لطخت ساحة السوق، وأغرقت وسط المدينة بأوساخ وروائح ننته ظلت منتشرة في فضاء المدينة أياماً. وتمطت الأميرة سانيس في مرقدها بهدوء بعدما نامت نوماً مستقرًا، لم تتخلله أي أحلام كالتي كانت تعرض لها في السابق. فهي الآن تعيد المشهد في ذهنها بنشوة عجيبة، ولكنها لم تفهم سبباً لتلك النشوة؛ فقد طلبها أمس فارس عند باب قصر والدها الحاكم أورليوس سيبيو، وأخبرها خبراً رأى أنه ربما يعني شيئاً للأميرة سانيس:

- سيدتي الأميرة، هناك خبر سري للغاية يتداول بين نخبة من

الفرسان.

قالت سانيس مستغربة:

- خبر سري يتداوله نخبة من الفرسان! وما شأنى أنا بالخبر.. لا أهتم بالفرسان ولا بأسرارهم!؟

بدا بعض التوتر على الفارس. وبعد أن جاهد موجة من التردد أضاف:

- الأمر يتعلق بأنير.

قالت سانيس بهلع واندفاع تلقائي:

- هل قتلوه؟

- لا يا سيدتي الأميرة.. حاولوا، لكنهم فشلوا.. كانوا ثلاثة فرسان أشداء، اقتحموا عليه المنزل ليلاً وهو نائم، ولكنه استطاع أن يحملهم في النهاية على ظهور الأحصنة إلى مكتب السيد ماريوس، وأودعهم لديه، ثم انصرف.

- ولكن لماذا أخذهم إلى مكتب السيد ماريوس!؟

- لأن السيد ماريوس هو الذي أمر بقتل أنير البربري.

- حسناً!. يبدو هذا الشاب مقاتلاً متمرساً.

- بالفعل سيدتي الأميرة.. لقد واجه ثلاثة من أشرس فرسان أرتو، واستطاع أن يتغلب عليهم جميعاً، بل أسرهم على نحو مثير للدهشة.. كان بإمكانه قتلهم، ولكنه لم يفعل.

بعد انصراف الفارس الذي جاء بالخبر، اكتملت الدائرة في نفس

سانيس.. أنير هو الشخص الذي يمكن الاعتماد عليه، وهو الشاب الذي انتظرته طويلاً.. لم يخب ظنّها، بل كان حدس قلبها صادقاً، قبل سنوات في بلدة دريو، حينما شاهدته وسط دخان الفحم وروائح ثمر الكستناء.. فتى يافعاً، جميل الهيئة، يشع منه بهاء مختلف وجذاب. هي الآن تشعر بنبضات قلبها تتسارع.. وجدت أنير في روحها يرفرف مثل تلك الفراشة الجميلة التي أحست بها ذات يوم بعيد، وعلمت أنها تحب، ولم تعرف الشخص الذي تحبه، وظل هذا الشخص مجرد طيف غامق، وصورة متذبذبة وجميلة.. طيف رائق يقتحم أحلام منامها ويقظتها. ولكنه الآن أصبح واقعاً، وأصبح شخصاً بطلاً، تتوفر فيه كل الأجزاء المكوّنة لدائرة أحلامها حول الشخص الذي يمكن أن تتعلق به. والآن، وفي هذه اللحظة بالذات، فإن أنير يسكن روحها ومشاعرها، ويستحوذ على إعجابها الكامل.. إنه حبهما الدائم، ولن تفرط فيه.

استمر شدة طائر دوري يشقشق في الحديقة، وسمعت الأميرة سانيس وقع مكنسة الحلفاء الضخمة، وهي تجر بقايا الأوراق التي أسقطتها رياح أمس العاصفة من أشجار المشمش والخوخ والرمان من الضيعة، ورمتها إلى الحديقة، وتعالّت في الأجواء، بنبرات عذبة، تلك الأغنية الفريدة التي ترنم بها الخادمة بيرينة، حين تكون منهمكة في إنجاز شغل ما. وشعرت سانيس بيوم جميل، وتسربت إلى روحها رغبة حياة جديدة لم تتعوّدها.

أعدت الخادمة بيرينة الحمام بمجرد رؤيتها لنافذة حجرة

نوم الأميرة سانيس تفتح. دخلت سانيس حوض الماء،
ومسدت جسدها بالصابون الصلصالي الأحمر؛ فتكونت حولها
رغوة كثيفة، ونبتت على جسدها البديع تباعاً فقاعات كبيرة
وجميلة، وتصورت للحظة وكأن تلك الفقاعات هي عيون أنير،
تنظر إليها وإلى جسدها العاري؛ فشعرت بخجل، وابتسمت
بدلال وخفر لم يكنا من طبع سانيس إطلاقاً، واكتشفت في
نفسها رغبة إلى شيء عجيب لم تكتشفه من قبل، ورغبت في هذا
الشيء العجيب، وتذكرت المفتاح الذي قدّمه لها أنير لتراه، والآن
تدرك، بحسّ غريزي غامض، معنى ذلك المفتاح ودلالته بالنسبة
إلى جسد عار وصريح كما هو الأمر، وهي في هذه الحالة؛ حالة
العُري الكاملة. إنها تحتاج إلى مفتاح أنير.. هناك قفل لا ينبغي
أن يبقى مسدوداً أبداً.

خرجت الأميرة سانيس، بعدما ارتدت ملابسها، لتتجول قليلاً
بجنب النبع ومجرى الماء الرقراق. تأملت أشجار السرو الطويلة.
نفذت إلى نفسها رائحة أريجها العطر، فوجدت أنها سعيدة،
وانتهت بحسّ غامض إلى أن كل شيء يبتسم، حتى الماء كان يسري
بعذوبة في المجرى فوق الأحجار الصغيرة الملونة، وتراب الأرض
يطلق أريج فاكهة لذيذة، ورأت الطيور ترقص شادية على نحو
مثير للفرح. لكن الأميرة سانيس فجأة رأت شخصين في وضعيّة
رجّت لها أعماقها رجّاً عنيفاً.. لقد رأت تيرينا وأنير يجلسان بقرب
بعضهما البعض، ويضحكان بمودة.

أفاقت تيرينا من النوم ذلك اليوم في وقت مبكر، وكانت قد حلمت حلمًا غريبًا، شاهدت فيه والدها السيد بيكاو يروي لها تفاصيل موته: «انتهى كل شيء يا ابنتي تيرينا.. لم أصمد للعنات الكثيرة التي طاردتني. قرأت تلك الكتب التي ما كان ينبغي لي أن أقرأها! ولقد دفعت الثمن غاليًا؛ لأنني أمازيغي يا بنيتي.. لأنني أمازيغي.. متُّ لأنني أردت أن أموت، ولقد استجابت إلهتنا لرغبتني. كوني سعيدة في ما بقي من حياتك.. أنير شخص طيب. اعتني جيدًا بنفسك. نلتقي بعد قليل».. هكذا قال والدها، وهو على هيئته التي رآته عليها في آخر مرة مرتديًا زيَّ الفلاح المثابر النشيط، ثم تلاشى وانتهى في الظلام.

قررت تيرينا أن تخبر أنير بما رآته في حلمها، فبحثت عنه في مكتبة بناية الرئيس، لكنه كان قد تأخر عن المجيء إلى العمل على غير عادته؛ فذهبت للبحث عنه في ورشة العجوز كاجي، وفي الوقت نفسه كان أنير في مكتب الضرائب، وسأل عن تيرينا هناك، لكنه لم يجد جوابًا شافيًا، وتبع أثرها في الأماكن التي يُحتمل أن توجد فيها، وزار السيد ماريوس؛ الذي رغب في أن يبدو ودودًا، فتبرع بمعلومة اعتبرها أنير مهمة؛ فقد قال له إنها توجهت إلى ورشة العجوز كاجي، وكان السيد ماريوس قد أطلق عينونه لترصد تيرينا بعد أن انتابه قلق شديد حيالها. وأخيرًا وصف أحد الحراس لأنير المكان الذي فيه تيرينا.

وجدها قرب منزل الحاكم أورليوس سيبو.. لقد ظنت تيرينا أن أنير ربما يكون مع سانيس. وقبل أن تقترب من باب القصر، رآته قادمًا من بعيد. وحين وصل إليها، قالت له من الفور إن لديها شيئًا مهمًا تريد أن تخبره به، فقال لها إنه بدوره يريد أن يخبرها بشيء. وتوصلا، بعد قليل من التفكير، إلى أنهما يحملان الأخبار نفسًا؛ فقال لها أنير:

- مات والدك يا تيرينا، وتلك كانت رغبته.. لا ينبغي أن تحزني.

توجَّهنا نحو الضفة الأخرى من جدول الماء، وجلسا بالقرب من غابة السرو الياضعة على الدوام؛ فتحدث أنير لتيرينا عن حلمه، وكيف أن السيد بيكاو زاره في المنام، وكيف طلب إليه أن يعتني بتيرينا كثيرًا قبل أن تلتحق به في العالم الآخر، وقال إنه ينتظرها على أحرّ من الجمر، وقال له إن أمها حزينة؛ لأنها تريد أن ترى تيرينا قريبًا. ضحكت تيرينا، وقالت بانتشاء:

- أشياء رائعة تحدث! لقد اكتشفت أن جمال الحياة ليس هو دائمًا ما نعيشه في الواقع فقط.. قد تكون الحياة أجمل في الموت.. أو في الأحلام.. أو في النوم أيضًا!

سمعا فجأة صرخة دوتّ بالقرب منهما؛ صرخة تشبه صرخة عصفور مجروح. هُرعا إلى مصدر الصرخة؛ فوجدا الأميرة سانيس منهارة، وقد فقدت وعيها. انخلع قلب أنير. خاف أن تكون قد لدغتها أفعى أو عقرب. سارع وأخذها بين ذراعيه، وركض بها لكي يوصلها إلى قصرها القريب، واستنفر الحراس لجلب أطباء

لمُعَايَنَة حالتها. في لحظة مباغتة كالبرق، فتحت سانيس عينيها، ونظرت بدفء إلى أنير، وقالت له بصوت هادئ، كما لو أنها في حلم:

- أشعر - رغم كل شيء - بالسعادة، وأنا بين ذراعيك!

جلس أنير عند عتبة باب قصر الحاكم أوريلوس سيبو حزينا جداً، على حين انصرفت تيرينا لإتمام أشغالها في مكتب الضرائب. أُعْلِنَتْ حالة طوارئ في قصر الحاكم، وتمّ جلب عدة أطباء مشهود لهم بالكفاءة في مدينة أرتو، لكن الأميرة سانيس طردتهم جميعاً، وأخبرت والدتها أنها بخير، ولا تشكو شيئاً استدعي حضور أطباء. ولقد اقتنعت والدتها؛ لأنها وجدت ابتها في صحة جيدة. على حين تساءلت سانيس باستغراب:

- كيف اعتقدَ ذلك اللعوب، وهو يرتكب تلك حماقة، أن انهياره كان بسبب لدغ أفعى أو عقرب؟. ألم يفهم أن تصرفه الجارح لكرامتي هو الذي ألمني؟. ياله من شخص لا يقدر المشاعر! ولكنها - من جهة أخرى - بدت ممتنة لأنير، الذي ارتاع حين رآها منهارة. وقدّرت مجهوده حين حملها بين ذراعيه القويتين، ثم أوصلها إلى المنزل، واستنفر الحراس لجلب الأطباء.

- لا يمكن أن يفعل هذا إلا بطل، ولكن ليس بالضرورة أن يكون هذا البطل عاشقاً صادقاً دائماً.

رددت في نفسها بأسى عميق، وبكثير من الشك.

وحين رأى أنير الأطباء يخرجون تباعاً من قصر الحاكم أورليوس سيبيو، سأل أحدهم عن حال الأميرة سانيس:

- إنها بخير.. إنها بخير.. لقد ألمّ بها دُوار بسيط.. هذا كل ما في الأمر.

ولادة جديدة

توجه السيد ماريوس إلى مكتب الضرائب بحجة إعطاء بعض التعليمات لتيرينا، غير أنه - في الواقع - كان يحمل شوقاً حارقاً لرؤية الفتاة التي استحوذت على قلبه، ولم يفهم كيف استُدْرِجَ، بطريقة لم ينتبه إليها، لتتحول إلى موظفة في مكتب الضرائب. وجد تيرينا منهمكة في مراجعة الحسابات، وتدقيقها بالجدية المطلوبة. أحسّت بوجوده، وسرّها أن تراه؛ لأنها تحمل له بدورها حباً كبيراً وخالصاً؛ حباً توزعه بمعادلة غريبة بينه وبين أنير:

- عَمّتِ صباحاً تيرينا، كيف حالك؟

- في أحسن حال.. في أحسن حال! وأنت يا سيد ماريوس؟

- سأكون سعيداً جداً حين أسمع جواباً يُرضيني.

- حسناً! أنا موافقة على إعطائك جواباً حاسماً، ولكن ليس

هنا، بل على شاطئ البحر.

- هل أنت جادة يا تيرينا...؟!

- نعم، أنا جادة يا سيد ماريوس.

- تعرفين أن البحر بعيد من هنا، ولكي نصل إليه نحتاج إلى ركوب جوادين، ولن نتمكن من الوصول إلى الشاطئ إلا مع منتصف النهار.

- مُر جنودك يجهزوا لي جواداً؛ فأنا ماهرة في ركوب الخيل.

لم يتردد السيد ماريوس في تلبية رغبة تيرينا، التي بدت له رغبة غريبة وغير مفهومة، لكن تيرينا كانت تفكر على نحو مختلف؛ فلقد استحضرت الحلم الذي زارها فيه والدها بيكاو، واستحضرت قصة ولادتها في البحر. وبدا أن كل شيء يحدد مصيره بالنسبة إليها في البحر؛ وهكذا انقادت نحو هذه الرغبة بطمأنينة، وبسكينة قلب لم تعرف لها مثيلاً منذ قدومها إلى مدينة أرتو، وبعد غيابها الطويل عنها.

أخذ جوادا تيرينا والسيد ماريوس يخبان في اتجاه البحر. ولقد غادرا المدينة من البوابة الجنوبية للمدينة، واستغرب حراس البوابة لرؤية السيد ماريوس وهو يتوجه بصحبة فتاة أمازيغية حسناء غير معروفة كثيراً، وهدهما بطريق لا يمكنه إلا أن يكون باتجاه البحر. سارا في جو جميل، ولم تكن هناك إلا سُحْب قليلة تعبر السماء بين الفينة والأخرى لتغطي الشمس قليلاً، ثم تعود إلى الظهور من جديد ناشرة الدفء والنور على التراب الأحمر، والأعشاب التي بدأت تنمو بعد سقوط المطر في الأسابيع الماضية. واستمرت البقايا الأخيرة للطيور المهاجرة تعبر مجال السماء بأسراب طويلة. شعرت

تيرينا بنشوة غامرة، ولم تنتبه إلى كلام السيد ماريوس، الذي توقف عن توجيه أي حديث إليها، مُحْتَرِّمًا رغبتها غير الواعية في الصمت. لكن السيد ماريوس ما فتئ يلتفت - بين الحين والآخر - إلى تيرينا، مُسْتَطْلِعًا حالتها العجيبة؛ فقد كانت تزداد انشراحًا كلما اندفعت نحوهما نسائم البحر، وكلما شَمَّ رائحة الزبد المشبع بالملح وأسماك الصيادين. ولاحظ السيد ماريوس باستغراب التوهج الجميل، الذي انفرجت عليه أسارير تيرينا؛ فقد تحول وجهها المدور المليح إلى شبه فاكهة خوخ مُشربة بألوان قرمزية مدهشة. وتطايير شعرها الأسود المنسدل على ظهرها مع الريح راسمًا حولها لوحة بديعة، لم يستطع السيد ماريوس أن يتمالك إعجابه الشديد بألقها وجاذبيتها التي لا تقاوم.

بعد سير صامت طويل، لم يكن يُسمع فيه إلا خَبَب الجياد، بدأ البحر يظهر من بعيد؛ بحر أزرق صاخب، واندفعت موجة من الريح محمّلة برائحة الطحالب البحرية، دافِعَةً ثياب تيرينا البيضاء إلى الخلف؛ فضغطت على ثديها المدورين، ورسمت خاصرتها بسحر جارف. وغرق السيد ماريوس في غلالة أحلام غيَّبه عن كل شيء، ولم يستيقظ من غفوته العجيبة إلا حين شعر بحوافر جواده تغوص في رمال الشاطئ. نظرت تيرينا إلى البحر، الذي هدا فجأة، بعيون مبهورة، وكأنها ترى البحر لأول مرة، ودارت في فمها كلمات كادت تخرج مبعثرة ومن دون معنى، ولكنها استطاعت لجمها بقوة جَبَّارة. تَرَجَّلت مِنْ عَلَى الجواد، ثم سلَّمت زمامه للسيد ماريوس، وقالت له بصوت حالم:

- السيد ماريوس، سيبدأ كل شيء هنا، وسيتتهي كل شيء هنا، سأدخل البحر لكي أؤدي طقسًا كان يجب أن أؤديه منذ مدة طويلة.

استجاب السيد ماريوس لطلب تيرينا، فتسلم زمام جوادها من دون أن يترجل عن جواده، ونزعت تيرينا حذاءها، ثم بدأت تسير فوق الرمال وفوق ماء البحر بقدمين حافيتين. استمرت تمشي بهدوء مكسرة سطح البحر الساكن برفق، وكان الماء قد وصل إلى ركبتيها، وواصلت المشي إلى أن غيَّب الماء نصفها.. حينذاك أصبحت بعيدة عن السيد ماريوس، لكن السيد ماريوس ظل هادئًا، وهو ينظر بذهول إلى هذا الطقس العجيب، وما سيفضي إليه. وفي النهاية، كان ماء البحر قد غيَّب كتفي تيرينا، ورفع شعرها الذي أصبح يسبح خلفها، وما لبثت- في الأخير- أن اختفت تمامًا في البحر، ولم يتبق إلا شعرها يتماوج مع الماء قبل أن يغيب بدوره. تابع السيد ماريوس المشهد بروح، وأحس بذنب فاجأه على حين غرة.. سيكون مسؤولاً عن مصير تيرينا بشكل أو آخر، ولن يستطيع إراحة ضميره أبدًا. واصل السيد ماريوس تتبُّع أثر الماء المتموج الذي كانت تسير تحته تيرينا كسمكة تسبح بهدوء في خط مستقيم، لا يظهر منها أي جزء إلا لون غامق طويل يشبه الظل كان طاقيًا كحلْم كئيب فوق الماء. وبدأ- في الأخير- الأثر المتموج لسير تيرينا تحت الماء يختفي شيئًا فشيئًا إلى أن انتهى تمامًا. راقب السيد ماريوس البحر لعل تيرينا تظهر فيه من جديد، ولكن البحر كان في تلك اللحظة أكثر هدوءًا من أي وقت مضى،

وحتى النوارس هدأت، ولم يعد يُسْمَعُ لها شِدْو، واستقر البحر تماماً وكأنه صفحة من سماء صافية متجمدة.

استفاق السيد ماريوس مذعوراً من ذهوله. لم يعرف كيف يتصرف حيال الموقف! لقد مر وقت طويل من دخول تيرينا إلى البحر، ولن تكون على قيد الحياة إلا بمعجزة، ومع ذلك ظل ينتظر بصبر حدوث تلك المعجزة، ولكن طال انتظار السيد ماريوس دون جدوى. ربط - في الأخير - زمام جواد تيرينا على صخرة بحرية، وتركه هناك لكي تستطيع العودة على متنه إلى أرتو في حال خروجها المعجز من البحر، وردد في نفسه:

- كأنها الإلهة فينوس⁽¹⁾ تولد من جديد في البحر، وقد تظهر وسط محارة على شواطئ قبرص، رغم أن تيرينا مجرد حسانا بربرية.

عاد السيد ماريوس مسرعاً بجواده نحو أرتو. شعر بهواء بارد يدخل نفسه العميقة، ورعشة تسري في عظامه المترخية، وكان نورس يصدر شِدْوً حزيناً يرفرف فوقه، ولم يفارق رحلته المتعبة من البحر إلى مدينة أرتو، التي وصلها قبل غروب الشمس بزمن قليل. توجه فوراً إلى مكتبة بناية الرئيس. كان ينز بعرق من ملح، وكأنه استحم في زبد البحر، وكان شعره، الذي لم يَبْدُ قط أشعث أو فوضوياً، قد استيقظ وتطاير كعش لقلق، بينما شحب وجهه، وذاب زيت الزينة الذي كان يدهن به بشرته.

- «أرجو أن تكون بخير يا سيد ماريوس».. قال أنير، وهو

(1) فينوس: إلهة ولدت في البحر، وجاءت إلى شواطئ قبرص؛ بحسب الاعتقاد الروماني.

يضع أحد المخطوطات القديمة في الدرج؛ فأجاب السيد ماريوس، وهو يجلس على الكرسي، والإجهاد ينهكه، ومسحة من الحزن العميق تغلف سحته التي شحبت، ولم تعد متوهجة بالفتوة وروح التحدي وعنفوان الحياة التي كانت تغمره دائماً:

- تيرينا غابت في البحر!

بعد لحظة تفكير حاول فيها أنير استيعاب كلام السيد ماريوس، أجاب من غير أن يبدو عليه أي تأثير يذكر:

- كنت متأكدًا من أنها ستعود إلى البحر يوماً ما، لكنني لم أتوقع أن يحدث ذلك بهذه السرعة!

ردد السيد ماريوس مفاجئاً، وكأنه يُخرج أحشائه من روحه:

- إذا كنت تعلم بأن تيرينا ستغرق نفسها في البحر!

- ليس تماماً، ولكنني كنت أتوقع حدوث هذا الأمر.. تيرينا جاءت من البحر، وكان لا بد لها من أن تعود إليه.

لم يستطع السيد ماريوس فهم هذا الكلام المبهم، رغم أنه كلام جعله يرتاح من ناحية الضمير على الأقل.. لكنه كلام حزين جداً، والحزن يقطر من كل شيء فيه. وفي تلك اللحظة، ولج المكتبة نورس صغير حَامٍ قليلاً، ثم غادر من النافذة بصمت، تاركاً صدى غريباً داخل المكان. نظر أنير مذهولاً إلى السيد ماريوس.. لقد بدأ يشعر بفقدان تيرينا، التي أحبها على نحو غريب.. لم يكن حباً عادياً، ولكنه كان حباً سماوياً يشبه حب الآلهة، ويشبه حب

الطبيعة والأشياء باهرة الجمال، ولم يفكر إطلاقاً في الزواج منها. ردد أنير بصوت خافت، ولكنه كان مسموعاً:

- ليس من السهل أن تجد الحياة فجأة خالية من تيرينا!

ولم يعرف السيد ماريوس ما إذا كان أنير يخاطب نفسه، أم إنه يوجه كلامه إليه! صمت السيد ماريوس، وغرق في موجة من تفكير كثيب قاده إلى أشياء كثيرة، ورأى أن كل أحلامه الجميلة تنهار فجأة، وأنه لا يحقق في هذه الحياة إلا مكاسب لا معنى لها، ولا تضيف إلى شخصه الكثير. صحيح أنه يستمتع بالتجار في السجاد الأنيق، وصحيح أنه يتباهى بالمناصب التي يشغلها في المدينة، ولكن كل هذا لا يمثل أي شيء بعد أن خرجت الأميرة سانيس من حياته نهائياً، وتركت في نفسه فراغاً لحب محبط وكثيب.. والموت الاختياري الغريب الذي فرضته عليه تيرينا بطريقة مروعة ومغرقة في الحزن؛ هذا الموت الذي يجعله يعيد النظر جذرياً في فهمه للحياة. وقف بثقل. نظر شاردًا إلى أنير. ولما أصبح قريباً جداً منه، أخرج سيفه من غمده، ولوّح به أمام وجه أنير:

- سأقتلك أيها البربري.. سأقتلك، وسألوث سيفي بدمك التتن.

كان أنير ينظر ساهماً في أحد المخطوطات في يده، لم يعر حركة السيد ماريوس وكلامه أي انتباه. استمر السيد ماريوس يلوّح بسيفه أمام وجه أنير:

- أيها البربري الجبان، أعرف أنك لن تستطيع مقارعة فارس

روماني متمرس على المبارزة.

ظل أنير محافظًا على هدوئه، وكانت تغمره سكينه عجيبه،
وأضاق السيد ماريوس:

- لن تستطيع مقارعة فارس روماني قاد أرتو إلى نصر عظيم في
معركة الذئاب.. هيا.. كُن شجاعًا، واشهر سيفك، فلتكن مبارزة
بين رجل روماني ورجل بربري.

لم يكثر أنير لتهديدات وكلام السيد ماريوس الذي ابتعد
بخطوات يائسة، وقال بصوتٍ خرج مصحوبا بزفرة مجروحة:
- لقد انتصرت عليّ مرة أخرى أيها الوغد.. لقد تمنيت أن أقتل
بحدّ سيف شخص بطل.. لا أريد لنفسي هزيمة نكراء؛ هزيمة في
حياة جبانة.

رفع أنير رأسه، ونظر عميقًا إلى السيد ماريوس؛ فلاحظ أنه
شخص أصبح يتداعى ببطء.. كل شيء فيه كان يبكي.. كل شيء فيه
كان يصدر عويلًا عجيبًا يشبه عويل ذئب جريح.. لقد قتلته تيرينا
برحيلها المفجع.. لقد كانت حبه الكبير!

قال السيد ماريوس مخاطبًا أنير، وهو ينظر من خلال شباك
النافذة إلى الخارج:

- لماذا لم ترفع سيفك في وجهي؟. لماذا هزمتني من دون أن
تحوض المعركة؟!

- لأنني لم أشم رائحة الموت، ولأنك لم تكن تنوي قتلي.. بل
كنت تريد أن تتحرر بطريقة تيرينا، وهو الأمر الذي لا أرضاه لك..

إنك شاب طموح، وأمامك أشياء كثيرة يمكنك إنجازها من أجل هذه المدينة.. أعلم أنك الشخص الوحيد التزبه بين أمناء وأعضاء بناية الرئيس، ولكنني لم أفهم، إلى حدّ الساعة، لماذا حاولت قتلي في أكثر من مرة!

- اسمع يا أنير.. نحن الرومان لا نحب البربر بالفطرة، وكان سيكون هذا الأمر كافيًا ليجعلني أقطع رأسك في أول مناسبة، لقد كنتَ مختلفًا عن كل البربر الذين عرفتهم؛ ولهذا السبب وحده سخرت كل جهدي لقتلك، لاسيما عندما تبين لي أن تيرينا توزع عواطفها على نحو غريب بيني وبينك.. حينئذٍ لم يعد لي خيار غير إبعادك من هذه الحياة! لم أفلح طبعًا، وكنت سأحاول مرة أخرى، ولكن تيرينا دفعت نفسها قربانا لتتقذك من موت محقق؛ كما فعلت عندما أنقذتك من سجن ربما كنتَ ستمكث فيه حتى اللحظة، أو كنتَ متّ فيه لولا تدخلها في الوقت المناسب.

بعد لحظة صمت متوترة، أضاف السيد ماريوس:

- ثم إنني خفتُ منك، أو الأخرى خفت أن تشكل خطرًا على المدينة؛ لأنني لاحظت تعلق الأميرة سانيس بك، ولم أكن متأكدًا من نيّاتك.

- نيّاتي واضحة يا سيد ماريوس.. أريد الازدهار لأرتو، وأريد لشعب الأمازيغ أن يعيش كريماً.

التفت السيد ماريوس إلى أنير، وقال بصوت مضطرب:

- لقد علّمتني تيرينا، بموتها اليوم، درُسا لن أنساه.. الآن فقط
أفهم بأن البربر هم أناس مثلنا، بل وقد يكونون أفضل منا!
نظر إليه أنير باهتمام، ولاحظ الصدق في كلام السيد ماريوس
الذي أضاف:

_ تصور، يا أنير، أن البلادة كادت تقودني إلى قتلك لمجرد أنك
بربري، ولمجرد أنك تحمل حلماً! طبعاً، فنحن الرومان نفسراً أحلام
البربر دائماً على أنها قصص رعب تشكل خطراً علينا.

ألسيني..

آن أن يكون حمامك حارًا،

ولا تخافي أن يصاب الحجر بأي أذى.

جسدان وبخار حمام

توجه أنير إلى سانيس. كانت الشمس، وهي تذوي ببطء في الغروب، تطلخ بنايات أرتو بأشعة متكاسلة؛ أشعة حمراء وبرتقالية. لقد شعر بأن المدينة تبكي لأجل تيرينا، وبأن أشجار الرند تُسْقِطُ أوراقها الخضراء اليانعة؛ حزنًا على فتاة طاهرة وبريئة. حتى حرس المدينة بدوا لأنير واجمين، ومُتهادين في سيرهم على جيادهم بكآبة، تختفي كالظلال الشفافة تحت ملامحهم.. ها هو أنير يجد نفسه بعيدًا، وإلى الأبد، عن تيرينا، التي أرسلتها إليه الآلهة؛ لتعتني به في كوخ بيكاو، ولتخرجه من السجن بعدما أتهمَ بمحاولة سرقة بضاعة من خان سيتو.. تيرينا التي بذلت جهدًا جبارًا لأجل إنجاز تلوين مُعجز للشبابيك المُعلَّقة الآن في بناية الرئيس؛ تلك الشبابيك التي تفوح

برائحة فتاة باهرة في جمالها؛ فتاة تحمل ألوان الشعب المرجانية
في كل ثناياها.

- ماذا تريد؟

خاطبه أحد الحرس حين اقترب من بوابة قصر الحاكم أورليوس
سيبيو. أفاق أنير مذعورًا من هواجسه، وقال بتلعثم:

- أريد مقابلة الأميرة سانيس.

- يجب أن تنتظر أيها الشاب... ما اسمك؟

- أنير.

ازدادت رائحة العسل كثافة، وأصبحت روحه - أكثر فأكثر -
مُشَبَّعةً بذلك الأريج المدوّخ المحيط به. نظر إلى الخديقة الغنّاء، وإلى
أشجار الورد الجميل والمزهريات البديعة المزوقة بمنمنمات بديعة.
غمره موج هادر من عسل وردي فاتح، ورأى فجأة سانيس تقف
أمامه. لم تقل شيئًا، ولكنها أشارت إليه بالدخول. تبعها صامتًا،
ووقع قدميه يرتطم بأرضية رخامية فاخرة. دخلت سانيس إلى
حجرة الجلوس في جناح سُكناها في القصر. رأى أنير قاعة مفروشة
بسجاد مبهج؛ سجاد اقتناه السيد الحاكم أورليوس سيبيو من السيد
ماريوس، وعبقت القاعة برائحة عسل، وفاح من الحامّ أريج
مُسْكِر، كاد يُذهب وعي أنير من الفور، ولكنه تماسك بصعوبة.

جلست أمامه الأميرة سانيس مرتدية لباسًا منزليًا لا يخفي إلا
القليل من مفاتن جسدها المدهش، واحتفظت بصمت أقلق باله؛

صمت مَشُوب بغضب هادئ لم يفهم دواعيه. وبعد لحظات،
خاطبها أنير:

- ماتت تيرينا!

- تصورت أنك جئت لتطمئن على صحتي؟

- سألت عنك، وعرفت أنك بخير.

تساءلت سانيس بعفوية بالغة:

- قلت إن تيرينا ماتت.. أيكون فتى من فتية حي جبل البربر

قد قتلها؟

- لا...

وبعد لحظة صمت قصيرة، أضاف:

- لقد عادت إلى البحر.. اختفت فيه إلى الأبد.

- ألا تُحسِن السباحة؟

- بلى، ولكنها استجابت لنداء والدها ووالدتها، واختارت أن

تدفن نفسها في البحر لتلتحق بهما إلى السماء.

وتساءلت سانيس مرة أخرى بالعفوية البريئة نفسها:

- هل اختارت الموت في البحر كسمكة؟

- ربما! لطالما راودني إحساسٌ بأنها مزيج من سمكة وفتاة!.

كيف أشرح لك الأمر؟. لست أدري؟ فأنا أيضاً لم أفهم نفسية تيرينا

إطلاقاً!

- هل أنت حزين لأجلها؟

- نعم، لقد أنقذت حياتي في كثير من الأحيان، ثم إنها كانت تجبني بالقدر نفسه الذي كانت تحب به السيد ماريوس.

- رأيتكما هذا الصباح معاً، وكنتما تضحكان.

- لأننا حلمنا الحلم نفسه حول والدها، ولأننا كنا نعرف بأننا سنودّع بعضنا البعض قريباً، ولكنني لم أتصور أنها ستتجّمل الرحيل بهذه السرعة!

- لقد كانت فتاة جميلة جداً.. أعترف، وأعترف بأنني شعرت بغيرة حين رأيتكما تجلسان متقاربين، وتضحكان.

- كان ضحكاً بريئاً.

- لقد فهمت ذلك متأخرة. هل تعرف لماذا سقطت مغشياً عليّ في ذلك اليوم؟. لأنني غرتُ.. والغيرة إحساس لا نستطيع التحكم فيه، كما أنها قد تدفعنا لنقوم بأعمال لن تكون دائماً جيدة.

كما لو أنه حلم فقط

فكر أنير في السيد ماريوس، وحببه المجنون لتيرينا، والدوافع التي جعلته ينوي تسخير ثلاثة من أحسن فرسانه من أجل اغتياله.. عندما كانت تدور تلك الأفكار في رأس أنير، باغتته سانيس بسؤال:

- هل سبق أن تحممت بالصابون الأحمر؟. إنه صابون نادر يجلبه أحد التجار لأبي من بحيرة صغيرة تقع جنوب بحيرة رودس.. صابون يفرز فقائيع مدهشة.

- لا.. أنا لست أميراً، ولا ثرياً كما تعرفين.

- دعني أجعلك أميراً، ولو لبعض الوقت.

ابتسم أنير، وقال مازحاً:

- لماذا لا تجعليني أميراً دائماً؟!

- لا أحب لك أن تقضي حياتك كلها في حمام تحت رغوة الصابون.. لن تكون حياة جميلة كما أتصور!

- سبب مقنع.. يجعلني أنا أيضاً أتخلى عن مثل هذا الحلم.

- إذا سأغادر أنا الحجره. انزع ثيابك هنا في مكان جلوسك على مهل. وعندما تنهي استحمامك، وارتداء ملابسك، اطرق الباب من الداخل، وسألتحق بك.

- حسناً! فكرة ممتازة. لن تتاح لي فرصة أخرى لأستحم في حمام إمبراطوري.

خرجت سانيس. وجد أنير فكرة الاستحمام فكرة غريبة؛ فحاول فهم دوافعها، ولكنه - في الأخير - لم يتوصل إلا إلى أنها مبادرة جيدة وإيجابية. نزع عنه الملابس، ثم وضعها على طرف السرير، وتوجه ناحية الحمام، وكانت سانيس قد غادرت، وأغلقت باب الحجره. دخل الحمام، ودهش للمنمنمات التي تزيّن الجدران

والأرضية الرخامية البديعة، وتأمل المناشف التي تفوح منها روائح معطرة، والصابون الأحمر الذي ينثر في النفس انتعاشاً وحيوية كما لو أنه عشبَةٌ منشطَةٌ.

غطس في حوض الماء عارياً تماماً، وطفى جسده بالصابون الأحمر، ثم وجد نفسه وسط رغوة من الفقائيع العجيبة، التي كانت تدغدغ جسده دغدغةً لذيدة. انفعلت غرائزه، وتصور جسد سائيس الفاتن، وردفيها الجحيميتين. وفي ذلك الوقت بالذات، تحول استحمامه إلى عذاب محموم لا يطاق.. لقد استدرجته سائيس إلى محرقة لذة لا يمكنه الوصول إليها.. هكذا ردد في نفسه، وهو يعاين الجمال المتطاير كالرذاذ في كل جزء من الحمام، وشعر بأنفاس سائيس المعلقة في الأجواء كلها تلهبه.. لقد شعر، بحسّ ملهم، وكأنها في الحجر أو في الحمام.. لقد كانت تملأ نفسه بألقها، وحرارة جسدها اللاهبة. لم يصدّق - في الأخير - أنه أنهى الاستحمام وسط شرشرة الماء، ورغوة الصابون، والتخييلات الهلامية التي عرضت له. نشف جسده جيداً، وتصور أن المنشفة هي قطعة من لباس سائيس تلمس كل جزء من جسده، وانتابه إحساس أن جسده يلتصق بالفعل بجسد سائيس.

تأمل جسده العاري في مرآة الحمام الكبيرة؛ الحمام الغارق في موجة من البخار الأحمر، واكتشف مدى التغير الذي طاله منذ آخر مرة رأى فيها جسده في المرآة، وتصور أن الزوايا التي رأى بواسطتها جسده سابقاً في المرآة، وكأنها لا تعكس حقيقة ذلك الجسد البعيد

الذي يعرفه؛ ذلك الجسد الضامر الذي يتذكره في أحد حملات
كوخ في مكان خال؛ جسد حَمَمته فتاة رائعة اسْمُها تيرينا، والآن،
وهو في ذُرُوة شبابه ونضجه، فإن كل شيء فيه يتغير! يخرج من الحمام
الذي كان مغموراً ببخار يحجب عنه الصور قليلاً. وعندما أصبح
خارج الحمام، رفع رأسه، ورأى من الفور شيئاً طَوَّح بحواسه
جميعها.. شعر كما لو أن تلك الضربة الموحجة التي تلقاها، ذات
وقت بعيد، وهو يهيم بمغادرة غابة كثيفة، ترتطم بمؤخرة رأسه
من جديد، وتذهب بوعيه. شيء لا يصدق.. شيء جعله يكاد يؤمن
بوجود الآلهة، وهو الذي طالما أنكر وجودها، وطالما أشفق على من
يؤمن بوجودها.. شعر بركبتيه ترتعدان، وبرعشة باردة تهز روحه
من الأعماق، وتعلق بصره بذلك المشهد الحارق. وقف جامداً، ولم
يستطع التقدم ولو خطوة واحدة. انتابه الخوف، وهاجمته الهواجس،
وتصور أشياء مريعة ستحدث.

وبعد أن هدأت أنفاسه قليلاً، عاد فتأمل الجسد العاري الذي
يقف بجانب السرير. كان يرى ردفين مغرقين في إثارة جحيمية،
وشعراً أشقر يتدلى بفتنة باهرة على ظهر أبيض يبدو كزبدة
متخيلة، لا يمكن أن توجد على الأرض. ظل صامتا ينظر إلى ذلك
الجمال الأنثوي القاتل الذي وجد نفسه إزاءه، ولم يعرف ماذا
يصنع، ولكنه - في الأخير - خطا بعض الخطوات المترددة في اتجاه
الجسد العاري المثير، ثم أصبح قريباً بنحو ذراع من ردف الفاتنة،
التي بانَتْ أكثر جمالاً وإثارة، وهي بالقرب منه. وشعر بحرارة
تندفع من ذلك الجسد لتدخل روحه، وتقتحمه بالوهج والرغبة

المهادرة التي سيطرت عليه. كان صامتًا حينما اقتربت منه سانيس، ووضعت رديها على جسده العاري، فتحركت غرائزه بقوة أكثر، واستشعر لذة تناثرت في روحه، وغمرته فجأة كما لو أنه يتلقى عطرًا من الجنة.

فتح ذراعيه، وضم سانيس من خاصرتها، وأصبحت ملتصقة به على نحو كامل. دسّ وجهه في رقبتها. لثمها لثماً خفيفاً. وفي الأخير، أصبحت سانيس كلها وسط جسده ويديه. كانت أنفاسها تندفع، وكانت تُصدر تأوهات متقطعة تمزّق الصمت المهيب الذي خيم على الغرفة.

تطايرت فوق السرير فراشات ملونة، وشدّت عصفير بأصوات حانية، وغمرتها فقاقيع من صابون أحمر كثيفة تسربت من الحمام، وكانت تلك الفقاقيع تتفجر من فور ملامستها الجسدين العارين الملتحمين. لقد خاضا معركة شرسة، واكتشفا- في الأخير- ذاتيهما من الداخل، وبدا أن الرحلة المجهدة، التي خاضها أنير من دريو إلى أرتو، انتهت- في المآل- إلى هذه النتيجة الأولية التي أرضت أحلام أنير، في انتظار أن يواصل معاركه، شرط أن لا يخسر أيّ معركة. هناك بعض الحروب التي تمنحك فرصة خسارة معركة أو معركتين، على أن تكسب معارك أخرى كثيرة حاسمة في الأخير، ولكن هناك- في المقابل- حروب أخرى لا تقبل إلا النصر في جميع المعارك.. خسارة واحدة تقوض أي نصر سابق. هكذا فكر أنير، وهو منهمك في ارتداء ملابسه.

استأذنت الخادمة بيرينة، فدخلت محمّلة بالطعام.. عدة أطباق

شهية. كان أنير جائعًا ومتعبًا؛ فأكل من صحن السفرجل المشوي مع لحم ضأن، وخبزًا أسمر من قمح ممزوج بالشعير، وشرب نبيذًا أحمر جيدًا.

بعد أن أنهى الأكل والشرب، رفع رأسه، وخاطب سانيس، التي كانت تنظر إليه بوله غامض.. خاطبها كما لو أنه يكمل الحديث الذي دار بينهما قبل الاستحمام، وقبل التمرغ في الفراش:

- سانيس.. أنتِ الوحيدة في قلبي. لو كنتُ أرغب في تيرينا لتزوّجتها، وسكننا معًا في منزل والدها، ولكنني تبعت حلمي ونجمتي، ولم يخبّ ظني.

انتشر حياءٍ بهيِّ على وجه سانيس، وانتشت لكلام أنير، وأحست بصدق يتخلله.

- أنا أيضًا انتظرتك طويلًا.. طويلًا جدًّا، وكنت أمّل أن نلتقي في الأخير.

أخذ أنير يد سانيس، وقال لها:

- هل تسمحين...؟

سلّمته يدها، وشعر أنير وكأنه يحضن في يده عصفورًا بديعًا. داعب يدها، وقبّلها من الأعلى والأسفل:

- أنتِ لي، وأريدك زوجًا أبدية. لديّ التزامات في المكتبة، سأنهاها في الأيام القليلة المقبلة، وبعدها سأقدم لطلب يدك من والدك الحاكم.. هل تُراه يقبل؟

- الأجدى أن تسألني هل تُراني أقبَل؟!

- أَعترف.. تخونني البديهة أحياناً.. في مواقف مُربكة كهذه.

- ولكنك واجهت امتحاناً مرعباً؛ لانتزاع منصب قيّم مكتبة
بناية الرئيس.. ولم ترتبك!

- لا.. لم يكن امتحاناً صعباً بقدر صعوبة الامتحان الذي خُضته
سنواتٍ من أجلك.

- لكلِّ منا امتحانه.

- سانس، هل تقبلين بي زوجاً..؟

- بشرط.. أن تكون لطيفاً دائماً كما أنت الآن.

ضحك، وأجاب مداعباً شعرها الأشقر المنسدل بكثافة:

- لن أعدك.. قد أخضع لتحوّلات مستمرة في اليوم الواحد..
أنا إنسان في آخر الأمر!

- أحبك، وأحب أن أتزوجك، لكنّ هناك شيئاً يقول لي إن رحلتنا
للتلاقي، التي بدأناها منذ سنوات، ستستمر طويلاً.. وقد لا نلتقي
بالفعل إلا بعد مشاقّ ومتاعب لا تحصى.. وربما لن نلتقي.. أنا خائفة!

رماد لو طر وأوراق أنير

هناك تنتصب أجمة قديمة لم تُشذّب منذ أجيال لعل إلهما ما يقيم
فيها متنعماً.

فيها ينبوع قدسي، غار مسقوف بالصخر، وطيور تسكب ألحانها الشجية في كل اتجاه.

منذ أن رأى سكان حي جبل الأمازيغ سانيس، في ذلك اليوم المشهود، تدفن ألبيستها مع جثمان تواهي، وهي عارية تماماً، أصبحوا يكتنون لها تقديراً عظيماً، ورهبة استثنائية. جعلهم جسدها الباهر في جماله يتصورون أنها الإله فينوس نزلت من السماء. وللسبب نفسه لم يكن أحد ليجرؤ على الاعتداء عليها، أو محاولة المس بكرامتها.. لقد أيقنوا يقيناً- لا ريب فيه- أنها بنت السماء؛ ولذلك حين اقتربت من سفح الجبل، ووقفت مُسندة جسدها إلى جدار قديم في مدخل حي الأمازيغ، ظلوا ينظرون إليها بإجلال عظيم، وأطلّوا من الأسطح والكوّات، ومن بين زوايا الأزقة الضيقة، وسانيس منجذبة، على نحو مثير، إلى الموسيقى التي تنبعث من كوخ لوطر؛ موسيقى تكسر القلب، وتشر في الأرواح رذاذ عشق مستحيل، يحوم حولها، ويدس في مشاعرها سحراً غير مرئي؛ سحراً يسيل من أعلى الجبل إلى أسفله مُبعثراً على هيئة نبرات حاملة تطير كالإمام.. لقد أخذتها الموسيقى الكثيبة الممزوجة بغصّة حب غامض. بعد وقت طويل من الاستماع إلى الموسيقى، التي اخترقت روحها، وجدت سانيس نفسها مُجّهدة ومُجبرة على مغادرة المكان.

تواصل العزف العذب فوق سطح منزل لوطر؛ عزفٌ كَبَلَّ سكان حي الأمازيغ بحزن وأسى، سقط عليهم فجأة كغمام أزرق دافئ ليغرقهم في متاهة لا تنتهي. أوصى لوطر صديقه ورفيقة دربه أن

تهدي قيثارته إلى سانيس في حالة ما إذا أصابه مكروه. ولم تُول تيرارا اهتماماً كبيراً للكلام لوطر، ولكنها لاحظت عزفه المثير غير المعهود على القيثارة، وقدمت له الأكل؛ فتركه لوطر أمامه، ولم يلمسه؛ فقد كان مشغولاً بعزف معزوفة باهرة، وُلِدَتْ من أصابع قدميه منذ أن رأى الأميرة سانيس تنزع ملابسها عند قبر تواهي، وانتشرت تلك المعزوفة في جسده كشوك ورد حين شم إفراز رائحة عرق إبطي سانيس؛ ذلك العرق الذي يشبه رائحة عسل وردي فاتح. انقضى النهار. ومع غروب الشمس، واصل الموسيقى العزف بوتيرة متواصلة، وموغلة في الكآبة، وأسَرَّ بعض الأمازيغ لبعضهم البعض أنهم يشمّون في موسيقى لوطر رائحة عسل بأريج خاص؛ رائحة تنشر أريجاً فوّاحاً في الحي كله، وأنهم يرون طيف جسد سانيس الملائكي العاري يملأ الفضاء، منتشراً مع النبرات الساحرة، التي ترسلها تلك الموسيقى المذهلة. اقتربت بضع قطط من صحن طعام لوطر، الذي ظل في مكانه منذ الصباح. بدت تلك القطط كما لو أنها في حالة سُكْرٍ، وأكلت طعام لوطر متهاية على نحو عجيب مع عزف الموسيقى والنبرات التي تشتت مع أشعة شمس المغيب الحمراء الدموية، ولعقت الماء بجرعات كانت تناسب مع الموسيقى، وكأنها مُكَمِّلة لإيقاعها النائح. واستمر لوطر يعزف طوال الليل. وقال بعض الأمازيغ إن سكان الجبل ناموا نوماً هادئاً في تلك الليلة التي لم يتوقف فيها العزف، وإنهم شعروا بسكينة في نفوسهم غير معتادة. تبللت في الفجر ملابس لوطر بندى ربيعي بارد جعل جسمه يرتعش، وأصابعه ترسل نغماً تماهى تماماً مع

شدو عصفير الصباح الباكر والنسمات البحرية الرقيقة الممزوجة بمذاق ملح خاص. أفاق الأمازيغ بهدوء بعد ليلة ساكنة تخللتها أحلام مثيرة، ورأوا في منامهم بنت السماء سانيس توزع عليهم النجوم، وتغمرهم ببركاتهما، وكانوا فرحين ومغمورين بالسلام. وأفاقت تيرارا منسرحة، ورأت- في حلم غريب- لو طر يطير فوق البحر، تحمله أسراب نوارس، ثم تضعه على الغمام الشفاف، الذي أعاده إلى سماء حي الأمازيغ، وإلى سطح المنزل مواصلاً العزف الساحر. شعرت بحبّ نحو لو طر؛ حب لا يشبه أي حب آخر في هذا الوجود، وراودها إحساس غامض بأنها ستخسره، وتجسدت الخسارة في مفهومها على وجه إيجابي. أعدت وجبة الفطور التي يُورثها لو طر، ثم صعدت بها إلى السطح، ووضعتها في متناوله. وجدته يواصل عزف موسيقى مفعمة بعشق وأسى دفين، ولم ينتبه لتيرارا التي اكتفت بخطف نظرة سريعة إليه من دون أن تتأكد مما إذا كانت قد التقطت شيئاً من ملامحه. وظلت وجبة الفطور مُهملةً طوال النهار إلى أن التهمها النمل والحشرات.

تجمد سكان جبل الأمازيغ مدة ثلاثة أيام متواصلة، وسكنت فيه الحركة، وغمرت الموسيقى النفوس والأرواح؛ فأشاعت فيها حالة غير مسبوقة من اللوعة. واستحضر الأمازيغ سانيس بنت السماء، وجسدها الإلهي المستحيل. ومع آخر أشعة لغروب شمس اليوم الثالث، بدأت أصابع لو طر، الذي تحول إلى شبه تمثال خشبي منخور، تفقد السيطرة على ضبط الأنغام، وتحريك أوتار القيثارة. هُرِعَتْ إليه تيرارا؛ لأن الخلل المروع،

الذي أحدثه انهيار انسيابية التدفق في اللحن الموسيقي، أفرغ قلبها، وأنبأها، بغريزة غامضة، أن شيئاً مروّعاً سيحدث. حين وقفت تيرارا أمام لو طر، وجدته متماسكاً في داخله، على نحو عجيب، كما لو أنه تناول الطعام خلال تلك الأيام الثلاثة، وكما لو أنه تجرّع من ماء الجدول الرقراق الذي يمر بمحاذاة غابة السرو. ولكن التماسك، الذي لمستته تيرارا في لو طر، كان ينبع فقط من روحه العميقة المفعمة بحيوية لحظية عابرة، وكان جسمه منهياراً؛ فقد سقطت من يده القيثارة.

الرماد والنزول

أشار لو طر إلى تيرارا التقرب منه أكثر. لم يقدر على إصدار صوت مسموع. وضعت تيرارا أذنها على فم لو طر؛ فقال لها كلماته الهامسة الأخيرة في الحياة، وخرجت تلك الكلمات المتقطعة، وتبعثرت في روح تيرارا كرهاذ عطر داعب شغاف نفسها العميقة:

- لقد أحببتك كلَّ الوقت يا تيرارا، ولقد أخلصت لك؛
كما لم يفعل أمازيغي من قبلي، ولكن الأميرة سانيس دفنتني
حيًا يوم دفنت ملابسها الداخلية مع جثمان الفتى تواهي.
شعرت بولّه وحبّ لجسدها الإلهي، وأنصوّر أنك لن تلو ميني.
حاولت مجاهدة مشاعري، ولكنني لم أستطع. الآن أجدني مدفوعاً
إلى مصير تواهي، وسأرحل حتماً إلى السماء. اجعلي فتيّتي يحرّقون
جثتي، ويفرقون رمادي على قوافل الخانات في الأسفل، أملاً في

أن ينثروه في صحاري الدنيا وجبالها.. لا أرغب، بعد موتي، في شيء يدل عليّ. خذي القيثارة، وسلميها هدية إلى سانيس. أحب أن تحرقها، وتمزج رمادها بتراب تغرس فيه وردة في حديقته إكراماً لروحي. ودعيها تجدل لك عملاً ومبيتاً آمناً في الأسفل.. إنها فتاة خيرة، وكائنة من السماء. ولعلك تصادفين زوجاً جيداً.. لا أريدك أن تبقي هنا في حي الأمازيغ، ولا أن تعودي إليه أبداً بعد إحراق جثتي.. إنك شيء مني يا تيرارا.. لا أريدني هنا بعد مغادرة قومي وشعبي!

مات الموسيقار لوطر في ليلة حزينة. وفي الغد، اندلعت ضجة ظلت ساكنة، ونبحت الكلاب من جديد، وعاد صراخ الأطفال ونهيق الحمير وصياح الديكة إلى الأزقة الضيقة. وأُنجزت مهمة حرق جثة لوطر وسط بكاء كل سكان حي الأمازيغ؛ فقد كانت موسيقى قيثارته تجلب لهم الفرح والانشراح وسط حزنهم وكآبتهم الطويلة. ونزل بضعة من فتية لوطر إلى مدينة أرتو، وتوزعوا على الخانات، وسلموا كميات من رماد جثة لوطر إلى كل قافلة مسافرة، وتعهّد أصحاب تلك القوافل بأن ينثروا الرماد في أبعد مكان سوف يصلونه في رحلاتهم الطويلة بعيداً عن مدينة أرتو، في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب، وفي الصحاري والسهول، وفي الجبال والتلال، وفي مختلف التضاريس.. وهكذا سوف يصبح لوطر نبرة موسيقية تمتزج مع الريح والتراب، والماء والأشجار والحجارة، وكل العناصر الموجودة في الأرض؛ كما حلم دائماً أن يكون.

الأوراق السوداء

أعدّ أنير تقريراً مفصّلاً عن أملاك أعضاء مجلس المدينة وأمنائها، واكتشف، بالإضافة إلى أنهم لا يدفعون الضرائب، أن معظم تلك الأملاك تعود- في الواقع- إلى مجلس المدينة، وكان ينبغي، في نظره، صرف مداخيلها في بناء سجون نظيفة، ورصف كل الأزقة والشوارع بالحجارة، مع ترميم جذري للأسوار، التي بدأت تأكلها التعرية في غير ما مكان، وبالطبع إعفاء أصحاب المتاجر المتواضعة جداً والحرفيين والفلاحين الأمازيغ الصغار من دفع الضرائب لمجلس المدينة. وأدرك أنير حينذاك لماذا أرادته الأميرة سانيس أن يكون قيماً على المكتبة، ولكنه تساءل: هل يكون والدها الرئيس أورليوس سيبيو على علم بما يجري؟! ثم ماذا عن السيد ماريوس؟! صحيح أن أملاكه شخصية ونظيفة، ولكن كيف يصمت على مثل هذه الخروقات، وهو في هذا المنصب الرفيع؟!!

ذهب أنير، وطلب لقاء سانيس، وشمّ رائحة عسل وردي فاتر، وشعر بدوخة قبل أن يراها تفتح الباب بنفسها. بدت مدهشة في ألقها وجمالها، مع أنها كانت ترتدي ثياباً عادية جداً، وتركت شعرها الأشقر يتشتت على كتفيها، ويغطي جزءاً من وجهها الأبيض المفلوح بمسحة فاتنة من ظلّ هادئ، وجسدها الرشيق يتراقص بعذوبة أمام نظرات أنير المشدوّهة؛ بفعل مشية تشبه مشية حمامة بيضاء جميلة. كانت سانيس تمشي، وهي حافية القدمين. استعاد أنير في ذهنه يوم استحمامه

في مخدعها، وراودته رغبة لتكرار التجربة، ولكنه يعرف استحالة عودة حلم لا يتكرر وبالصيغة نفسها.

بعد كلام وُدِّي عذب، وبعد حديثٍ عن المستقبل والارتباط وشكوك أنير في موافقة والدها على تزويجها من شخص بربري غريب عن المدينة، وبعدها طمأنته الأميرة سانيس على أن لا شيء يقف في طريق زواجهما، فتح أنير معها ملف التلاعبات الخطيرة التي تحدث في أملاك مجلس المدينة، وكيف أن الأعضاء والأمناء يستحوذون على ثروات المدينة، ولا يدفعون الضرائب عن أموالهم الطائلة غير المشروعة، وسألها بعفوية إن كان والدها على علم بذلك! فأكدت له سانيس أن دور والدها يقتصر على الاطلاع على تقارير محصلي الضرائب، والتدقيق في الأرقام، وأنه الآن أصبح غير قادر على القيام بجولات ميدانية، كما كان يفعل في السنوات السابقة؛ بسبب معاناته من آلام المفاصل، ومرض البواسير المزمن. ومع ذلك، فإن والدها يفوض الكثير من اختصاصاته لبعض معاونيه، الذين ورثوا تلك الاختصاصات منذ سنوات لتصبح - في الأخير - من مهامهم الدائمة بحكم العادة، ولاسيما نائبه الثاني المدعو صولا. ولا شك في ضلوع الجميع في هذه التلاعبات. ولم يعد والدها فعلياً يتحكم في أي شيء. أخبر أنير - في الأخير - الأميرة سانيس بأنه سيفتح تحقيقاً علنياً في الموضوع، وبأنه يرغب في معرفة رأيها. لم تمنع، بل رحبت ترحيباً كبيراً بالفكرة.

غادر أنير، وروحه مشبعة برائحة عسل ورددي فاتح، وفكر

أيضاً في فتاة يغمرها نسيم بحري لطيف، وفكر في رجل أمازيغي اسمه بيكاو؛ رجل لم يستطع فهم أفكاره ونفسيته العجيبة؛ بيكاو الذي قال إنه قرأ كتباً ممنوعة على العامة في مكتبة بناية الرئيس، وبسبب ذلك انصبت عليه لعنة إلهية أبدية. إن الأمناء والأعضاء والحاكم أورليوس سيبو يقولون إنهم يحكمون بتفويض من الآلهة، وإن أحكامهم وتصرفاتهم في الشؤون العامة لمدينة أرتو يحرم الطعن فيها. هل يكون بيكاو اقترف هذا الذنب؟ وهل يكون قد وقف على التجاوزات الفظيعة التي تنطوي عليها؟ وهل يكون طرد من المدينة بسبب محاولته التنبيه على هذه التجاوزات؟ ثم هل كان السيد بيكاو يؤمن حقاً بأن هؤلاء يحكمون المدينة بتفويض من الآلهة، وبأن لعنة حقيقية لحقت به جراء خرقه المتعارف عليه في هذه المدينة؟

أسئلة كثيرة ظلت تدور في ذهن أنير، وهو يقود جواده الأمازيغي الرشيق متوجهاً إلى مكتب السيد ماريوس. لقد قرر أن يعرض الحقيقة أمام الرجل. ترجل عن جواده، وتقدم منه حارس تسلم منه زمام الجواد، وربطه في مربوط قرب بوابة بناية الرئيس. دخل أنير، وتوجه إلى المكتبة. سحب من أحد أدراجها التقرير الذي أعده بعناية بشأن الخروقات والأملاك التي يحوزها الأمناء والأعضاء من دون وجه حق. تأبط الأوراق، وتوجه بها إلى مكتب السيد ماريوس. وجده كثيباً وتعبساً أكثر من أي وقت مضى، منذ غياب تيرانا في البحر.. تحوّل إلى مجرد شبح للسيد ماريوس المفعم بالعنفوان والحيوية، حتى إنه لم يعد يتزيّن بزيت الزينة النادر،

الذي كان يجلبه له تجار من أمكنة بعيدة. قال إنير بهدوء بعدما ألقى عليه التحية:

- لديّ أشياء أريد أن أطلعك عليها.

وضع الأوراق بين يدي السيد ماريوس، الذي أخذ يقلمها، ويقرؤها بتأن واهتمام شديدين. وفي الأخير، قال بصوت مجبّط:

- كيف حصلت على هذه المعلومات؟!

- من درج الكتب المنوعة على العامة، وأنا لست من العامّة؛ كما تعلم يا سيد ماريوس.

- صحيح، ولكنك وضعت يدك في الجحيم! ستجلب لنفسك الهلاك.

- لا ينبغي أن أرضى بالصمت.

- أحترم رغبتك النبيلة.

- ولكنّ ألم تكن على علم؟

- بل كنت على علم بذلك، ولكن لم يكن بيدي شيء لأفعله! أحببت الأميرة سانيس دائماً، ولم أحتمل النفي بعيداً عنها.

- أعتقد أن أشياء كثيرة قد تغيّرت الآن.

- نعم، ولكنني لست قيماً على المكتبة؛ لأنبش في هذا الموضوع!

- سأفعل إذا سمحت لي.

- لن أمانع! لنا غداً اجتماع مطوّل سيحضّره كل الأمناء

والأعضاء، ويمكنك الحضور أيضاً، والتحدث في هذا الشأن.. لقد فقدت كل شيء يا أنير.. كل شيء، وكدت أفقدك أنت أيضاً بطريقة بلهاء.. لم يعد يعنيني أي شيء.

غادر أنير بناية الرئيس التي غلفها السيد ماريوس بمسحة حزن لا يُمَحَى. لقد شم في الرجل رائحة زبد بحر ممزوج بتراب رملي، وعيدان صغيرة مبللة بملح يفرز رائحة تشبه رائحة سمكة نجمة البحر. ورأى شمس منتصف الربيع تُصَبِحُ شيئاً فشيئاً حارة، والناس يصبحون أكثر انشراحاً بعدما ذهب فصل الشتاء، وأخذ معه رياحه وسُحبه الداكنة ومطره القليل؛ هذا الشتاء المهادن الذي لم يشهد سقوط ثلوج أيضاً. توجه إلى مطعم سوسي الشهير. تناول فيه وجبة سمك جاف مملح مع بعض النييد، ثم قفل إلى منزله الفاخر، الذي خصصه له السيد ماريوس. ارتقى في الطابق السفلي على سرير تيرينا؛ فشر بروحها في المكان، وغمرته راحة نفسية بهيجة، وهو ينظر إلى ملابسها وأغراضها الشخصية، التي لم يحاول قط أن يمَسّها، باستثناء سيرها الذي كان يُشعره، على الدوام، وكأنه ينام في بحر دافئ، وأنه يسبح مع الأسماك تحت الماء، ويرى الشُعَبَ المرجانية الملونة، ويهرب بمهارة من طُعم الصيادين الأغبياء.

الحقيقة

وفي صباح الغد، أعد أنير طعاماً سريعاً، ثم أخذ حماماً دافئاً، ولبس أجمل ثيابه، ثم توجه إلى بناية الرئيس لكي يحضر الاجتماع

المهم، الذي سيفجر فيه الحقيقة أمام الجميع، ولكي يفتح عصرًا جديدًا من العدل والمساواة في مدينة أرتو، ولا شك في أن الفلاحين والتجار الصغار والأمازيغ سيعلمون الحقيقة، وسينتفضون من أجل انتزاع حقوقهم، وسوف يستطيعون بأنفسهم اختيار أمناء وأعضاء نزهاء في بناية الرئيس. وجد أنير أعدادًا كثيرة من الجياد رُبطت بجوار البوابة الكبيرة لبنانية الرئيس، وهو الأمر الذي جعله يفهم أن جُلَّ الأمناء والأعضاء موجودون في الاجتماع. سار بخطوات متوازنة، وشعر لأول مرة بالارتباك يسيطر عليه.. إنه مُقبل على أمر سيغيّر وجه مدينة أرتو بكامله، إذا قدر له أن ينجح في تلك المهمة الصعبة. فتح باب الاجتماع السري دون استئذان. ألقى التحية وسط العيون الكثيرة التي التفتت لتنظر إليه باستنكار. قال له السيد ماريوس بلهجة ماهرة:

- هل لديك شيء عاجل؟!!

- نعم يا سيد ماريوس، وأرجو السماح لي بالجلوس للتحدث قليلاً قبل أن أنصرف سريعاً.

نظر الأمناء والأعضاء بعضهم إلى بعض بارتياح، وتشاوروا بهمس، قبل أن يشير إليه موافقًا شخصٌ في أواخر كهولته، مُرَبِّعُ الجسم. جلس أنير بهدوء، ووضع الأوراق أمامه على الطاولة، ثم قال مخاطبًا الجميع:

- أرجو أن تسمحوا لي بالحديث دون مقاطعة. بعدها يمكنكم التدخل لإبداء آرائكم أو ملاحظتكم.

بدأ أنير يقرأ تقريراً عاماً عن خروقات وقف عليها خلال اشتغاله بالمكتبة، وأراد إطلاع الجميع عليها؛ لأنها تشكل خطراً على استقرار مدينة أرتو. قال أحد الأمناء بلهفة:

- لا شك في أن الأمر يتعلق بتهرب البعض من دفع الضرائب، أو إخفاء المحاصيل الزراعية وعدم اعتراف بعض التجار بمدخيلهم كاملة .

أجاب أنير بمكر:

- نعم، والأكثر من ذلك.. هناك تحايل لا يمكن قبوله.. هناك أمناء وأعضاء في مجلس المدينة، إلى جانب الرواتب التي يحصلونها من الخزينة العامة، يستحوذون على ممتلكات تعود إلى مجلس المدينة، ولا يدفعون الضرائب قطعاً عن ممتلكاتهم الخاصة!

سَرَتْ ضجة وهلع في صفوف المستمعين، وتلفظ البعض بعبارات استنكارية، ضاعت وسط الضجيج الذي عمَّ المجلس، لكن الشخص مُرَبَّع الجسم قال بصوت أجش:

- من أين حصلت على هذه المعلومات الكاذبة أيها البربري؟

أجاب أنير بصوت واثق:

- في الكتب المنوعة على العامة.

وأجاب أكثر من عضو وأمين باستهجان، وبدأ أن الجميع يتحدث من دون أن يُسمع كلام واضح، ولكن تبين أن الجميع يستنكر كيف تأتي لشخص بربري من العامة أن يدخل المكتبة،

بل- أكثر من ذلك- تجرّأ على قراءة الأوراق السرية!

- أنا لست من العامة! أليست مهمتي هي العمل قيماً على

المكتبة؟!

صاح به الرجل مرتبّع الجسم، الذي تبدو صرامة كلب شرس واضحةً على تقاطيع وجهه المفلوح بلون رمادي غامق:

- اسمع، أيها البربري الغريب، أنت مجرد شخص دخيل على المدينة وعلى بناية الرئيس.. اعتبر نفسك من الآن مطروداً من المكتبة، بل- أكثر من ذلك - ستجد نفسك منفيّاً من المدينة.

كان صاحب هذه الأوامر هو السيد صولا الشخصية الأكثر نفوذاً وسط الأمناء والأعضاء، وصاحب أكبر الأملاك في أرتو. أجابه أنير بهدوء:

- هذا رأيك وحدك، ولقد تحصلت على وظيفتي عبر امتحان أهلّني بجدارة إلى هذا المنصب.

- ليس هذا رأيي وحدي أيها البربري الغرّ.. سأطلب من الجميع رفع أيديهم، إذا كانوا متفقين مع قراري.

رفع الجميع أيديهم باستثناء السيد ماريوس، ولاحظ صولا حياد السيد ماريوس، وعدم موافقته على القرار الذي اتُّخذ في حق أنير؛ لذلك قال بصوت شامت:

- أفهم صمتك يا ماريوس؛ لأنك أنت من سجله في المسابقة، وأنت من توأطأت معه. سأطلب إلى الحضور الكريم أن يرفعوا

أيديهم موافقة على تجريدك، أنت أيضاً، من جميع مناصبك، وستعود مجرد تاجر سجاد؛ كما كنت قبل معركة الذئاب، وأطلب إلى الحضور أيضاً تفويض كل الصلاحيات التي كانت بيدك.

أجاب السيد ماريوس وكأن لا شيء يعنيه:

- لا داعي للتصويت! أعرف هذه اللعبة القذرة.. مع الأسف، شاركتُ فيها بغباء غير ما مرة!. سأنسحب عن طيب خاطر من هذه البناية إلى الأبد.

خرج السيد ماريوس، وأراد أن يلحق به - بعد لحظة قصيرة - أنير ليعتذر له. ولكنه وجد في طريقه عدة عناصر من الحرس أوقفوه من الفور، ثم قادوه إلى مكان مجهول.

تيرارا

وقفت فتاة أمازيغية فاتنة، ولكنها رثة اللباس، عند باب قصر الحاكم أورليوس سيبيو، الذي لم يعد يحضر الاجتماعات في بناية الرئيس منذ مدة؛ بسبب استمرار تردّي حالته الصحية.. فقد مرت عدة أيام من دون أن يتغوط بسبب الأم البواسير الفظيعة، وبسبب عسر هضم لازمه مُد فترة طويلة. سأل الحراس الفتاة، التي كانت تحمل في يدها قيثارة صغيرة ملونة، فاعتقدوا أنها تطلب صدقة؛ فنصحها أحد الحراس بأن هذا ليس هو المكان المناسب لكي تطلب فيه الصدقات، وبأن عليها التوجه إلى وسط

المدينة. لكن تيرارا قالت للحارس تاسكي إنها ترغب في لقاء الأميرة سانيس. لم يصدّق الحارس. وبعد إلحاحٍ شديدٍ من تيرارا، استجاب لطلب الفتاة الأمازيغية فاتنة الملامح، رثة اللباس، وتوجه إلى داخل القصر، وأنبأ الخادمة بيرينة أن هناك صبية أمازيغية تريد لقاء الأميرة. استقبلت سانيس الفتاة الأمازيغية بلطفٍ، ودَعَتْها إلى جناحها، وأطعمتها. وهيأت لها بيرينة الحَمَامَ، وأحضرت مجمر بخور غمرت به الحمام وجناح سانيس. وحين أرادت بيرينة تنظيف الحمام، وجدت أن الفتاة الأمازيغية لم تحسن استخدامه على الوجه الصحيح؛ فقد استحمت خارج الحوض، وتسببت في تدفق الماء إلى بوابة حجرة الجلوس. قالت الفتاة الأمازيغية تيرارا:

- مات لوطر.

تساءلت الأميرة سانيس بأسفٍ:

- أحقًا ما تقولين؟!

- نعم يا سيدتي، ولقد أوصى لك بهذه القيثارة، وطلب أن تُحرقَ ويُمزجَ رَمادها بتربةٍ تُغرسُ فيها وردةٌ. لقد كان يحبك يا سيدتي الأميرة سانيس.

قالت سانيس بصوتٍ خافتٍ:

- لقد ماتت الموسيقى.. الموسيقى التي تقاسمت مع لوطر عشقها!

نفذت الأميرة سانيس وصية الموسيقى لوطر، وانطلقت بالفتاة الأمازيغية تيرارا إلى السيد ماريوس، وكان ماريوس قد دخل إلى منزله

الأنيق بعد الاجتماع العاصف، الذي حضره في بناية مجلس المدينة. سمع طرُقًا على الباب، وكان قد نزع على التو ملابس الخروج، وتوقع أن الطارق لن يكون سوى أنير. فتح السيد ماريوس الباب، وفي يده كأسٌ خمر. على الفور اشتعل قلبه بحريقٍ دافئ، وهو ينظر منبهراً إلى الصبية الأمازيغية الفاتنة. وبينما كان ينظر إليها، كان يرفع كأس الشراب ليرمي في فمه آخر جرعة منه. سقط الشراب على الأرض من دون أن ينتبه إلى الحادثة! غير أنه - في الأخير - استيقظ مدعوراً على صوت الأميرة سانيس، وهي تحاطبه:

- جئتُك بهذه البربرية اللطيفة.. مات صديقها الموسيقي لوطر، وقد أوصاها بأن تستقر في أرتو، ولا تعود أبداً إلى جبل البربر؛ لأسبابٍ شخصية جداً، وطلب إليّ، في وصيته، أن أعثر لها على مَيِّتٍ آمن وعمل ريثما تجد زوجاً.

ثم واصلت كلامها بعدما انتحت بالسيد ماريوس جانباً، وقالت له هامسةً:

إنها فتاة طيبة جداً، ولكنك تعرف طبعَ بعض البربر؛ بسبب الأوضاع الصعبة التي يعيشونها!. قد تحتاج إلى إعادة تأهيل. لعلك تجد صديقاً وزوجه لديهما من الصبر والوقت، أن يتكفلا بالفتاة لمدة شهرٍ أو أكثر قليلاً. وستصبح تيرارا بسلوكٍ رائع؛ فهي ذكية وفطنة.

- نعم، أعرف صديقاً طيباً، امرأته طيبة أيضاً، وهو أحد معاوني في تجارة السجاد، سأعهد إليه بها ريثما يتحسن سلوكها ليتلاءم وتقاليدنا الرومانية، وبعدها نقرر في شأنها.

- شكرًا لك سيد ماريوس .

انصرفت الأميرة سانيس بعدما عانقت تيرارا بحرارة، وأوصتها بأن ترجع إليها متى صادفتها صعوبات. على الفور أخذ السيد ماريوس تيرارا إلى صديقه المتصرف في أعمال تجارة السجاد. لم يكن منزل هذا الصديق بعيداً، وقَبِلَ صديقه وامرأته الطيبة المهمة برحابة صدر، وتعهداً بأن يعيدا تيرارا إلى السيد ماريوس، كما لو أنها تربت في منزل أسرة من أرقى الأسر الرومانية وأعرقها في مدينة ماريوس. اعتكف السيد ماريوس في منزله، في الوقت الذي استحوذ فيه صولا على جميع الصلاحيات التي كانت في يد السيد ماريوس.. ولم تكن للمسؤول الجديد تجربة أو موهبة في تسيير الشأن العام؛ فترك كل شيء يسير تلقائياً في مدينة أرتو، بينما انصرف هو إلى ملذات الحياة، والأشغال التي تخص تجارته الواسعة.

أصابته الكآبة السيد ماريوس؛ فلم يستطع تجاوز المحنة التي ألمت به بعد غياب تيرينا الأبدي، وحاول البحث عن أنير، ولكنه لم يعثر له على أثر! وفي الأخير، تأكد من أنه - في أسوأ الأحوال - سيكون قد طُرد من المدينة... وبينما كان الربيع في أواخره، بدأت حرارة شمس صيفية غير معتادة تسطع في سماء أرتو، وقلَّ صيب الينابيع التي تزود المدينة بالماء، وساد شعور بعدم الرضا بين السكان، وازدادت عمليات السرقة والنهب، وتهديد أمن الناس بالليل والنهار.

ما من نقص هناك في الأنواع الأرخص الآن،

فمن الجنون أن يحمل المرء ثروته على ظهره.

هناك زرقة السماوات،

زرقة سماوية بلا صباغ.

وما من رياح جنوبية غربية دافئة مصحوبة بتهديد المطر.

أفولاي وزفرات الحسرة

شارف السيد أفولاي على الوصول إلى مدينة أشتين. كان قد اشترى في الطريق حماراً من روساب، وضع عليه أغراضه القليلة. شعر بموج غامر من الفرح يغمره.. أخيراً سيستطيع الاستحمام، وسيتناول أكلة جيدة، وسينام في خان دافئ. ترجّل عن حماره عند بوابة المدينة. دخل جازاً وراء الحمار الأشهب المتعب. جال قليلاً في أزقة عشوائية وأحياء فوضوية، قبل أن يعثر على خان متواضع. أودع حماره الإسطل، ثم دخل حجرتة، وتخلص من بعض الأغراض ذات الأهمية القليلة، وخرج يبحث عن بائع ثياب وحمّام ليخلص جسده من أدران وغبار السفر. سار بخطواته العرجاء اللافتة للانتباه فوق الطرقات غير المبلطة، ووجد أخيراً دكاناً يبيع ملابس؛ فاقتنى لباساً مناسباً، ثم توجه إلى حمّام قريب قليل النظافة.

استحم بسرعة، ثم ارتدى الثياب الجديدة، فبدأ كَسَيْدٍ محترم وذي مكانة عالية.

قصد السوق، وسأل عن بائع محتمل للملح، ولكنه وجد المعروض عنده أقل بكثير من الملح الذي كان يرغب في شرائه، وبنوعية ليست بالجودة التي يعرفها. كان أغلب المعروض مجرد أكوام من كتل حجرية من الملح؛ كتل ملح مخلوطة ببعض التراب. أخرج كمشة الملح التي أخذها من قبر أسافو، وشمّ فيها أريجاً مفعماً بلوعة كثيبة فجّرت دموعاً حارة من عينيه. عرض كمية الملح على تاجر، وسأله إن كان يوجد مثلها في السوق. بالمصادفة كان التاجر قد رأى زميلاً له اشترى بضاعة قبل أمس بالجودة نفسها؛ فدلّه عليه، وكان التاجر يبيع الملح في دكان صغير. حيّاه السيد أفولاي بلطف، وعرض عليه كمشة الملح:

- هل تبيعون مثل هذه النوعية سيدي؟

تأمل البائع ملح أفولاي، ثم قال مستغرباً:

- إنها من النوعية التي اقتنيتها بالجملة من تاجر وفد على مدينة أشتين من منطقة منابع النهر الأخضر.

صمت أفولاي قليلاً، وحاول فهم الموقف:

- قلت إنه وفد من منطقة منابع النهر الأخضر؟! منطقة منابع النهر الأخضر لا يوجد فيها ملح جيد كهذا!. وهي منطقة غير معروفة بالملح.. ولا تصدّره.

- هكذا قال.. إنه تاجر غريب عن المدينة، ولم يسبق أن تاجرَ ببضاعته هنا.

- هل كانت معه كمية كبيرة من الملح؟

- نعم.. حوالي عشرة بغال مُحَمَّلَة بأعداد كثيرة من أكياس الملح.

نظر السيد أفولاي، وردد بصوت خافت:

- يبدو أنه اللص المحتال ساريل!

انتبه البائع إلى كلام السيد أفولاي، وقال يسأله:

- ماذا قلت أيها الرجل الطيب؟

همهم السيد أفولاي بصوت غير واضح، وقال في الأخير:

- ولكنني لا أرى في دكانك غير كمية قليلة من الملح!

- صحيح.. إنني أنتظر.. لعل مشترياً يرغب في شراء كل كمية

الملح والبغال دفعة واحدة، أو على أقساط، ثم إن دكاني صغير كما تلاحظ.

- أعتقد أن مَنْ باعك البضاعة هو لَصّ! سأشترها منك.. كم

المقابل الذي تطلبه؟

أثار البائع اهتمام السيد أفولاي بالملح، وتنبه بذعر إلى كلمة

لص؛ فهو يعرف جزاء المشتري الذي يشتري بضاعة مسروقة.

تزايد فضوله وخوفه، وسأل السيد أفولاي:

- كيف تعتقد أن البائع لص؟

- لأن نوعية الملح الذي اشتريته لا توجد إلا في بلدة بعيدة جداً
اسمها دريو. ثم إن البغال والأكياس كانت في ملكي، وكان هذا
العامل الأجير يسافر معي في قافلة الملح. لقد استغل نومي ليهرب
بالبضاعة في الليل.

اجتمع بعض الفضوليين حول السيد أفولاي، وراحوا يُصيخون
السمع؛ فسأله أحدهم:

- كيف هو شكل هذا التاجر الذي اقتنى منه بارني كمية الملح والبغال؟
فرد أفولاي محاولاً استحضار أهم ما يميز ساريل:

- إنه شاب في حوالي الثلاثين من العمر.. قصير القامة، نحيف
الجسم، وجّهه طويل ومشوب ببعض الندوب.. اسمه ساريل.
قال البائع بارني بحماسة:

- تنطبق هذه الأوصاف على التاجر تماماً.. لا شك في أنه هو..
وإن كان قد ذكر أن اسمه هو سوبو.

قال السيد أفولاي بتحفز اتضح من خلال نبرته الهائجة:

- هل يكون في المدينة؟

رد أحد الأشخاص من الخلف:

لقد شاهدناه آخر مرة في خمارة كوتي.. ولقد لفت استغراب
أهالي مدينة أشتين ترده المستمر على المواخير والخمارات.

ردد السيد أفولاي في نفسه:

- لقد كان كذلك دائماً.. لم يكن له شغل في دريو، وكان إذا وقعت في يده قطعة نقدية يذهب بها فوراً إلى الخمارة، أو إلى المواخير السرية.. كان مجرد حثالة، ولست أدري كيف خطر ببالي أن أطلب إليه أن يصطحبنا في الرحلة! لم أسمع نصيحة أسافو، وكانت هذه النتيجة الحتمية.. النتيجة غير المفاجئة طبعاً.

قال مخاطباً البائع:

- أيها السيد المحترم، احجز بضاعة الملح ببغالهها كلها لي.. ستكون صفقة رابحة بالنسبة إليك. سأعود في وقت سريع.. هذا المساء أو صباح الغد على الأكثر.

قال ذلك السيد أفولاي، ورمى بصره مال مسبقاً وعربون ثقة، وتحفز للمغادرة. لكنه سمع البائع يخاطبه:

- اطمئن.. سأحجز لك البضاعة، ولن أبيعها لغيرك، ولكن يجب أن أقول شيئاً حول السعر.

- سأعود لتتحدث في الموضوع.

واصل البائع يقول بصوت مرتفع، رغم ابتعاد السيد أفولاي:

- لن أخذ منك إلا ما دفعته للص، وهو ثمن أقل بكثير من قيمة البضاعة.

هرول السيد أفولاي وسط السوق، ثم أخذ يبحث عن الخمارات في الأزقة والشوارع.. لم يعثر على ساريل. اجتاحتته موجة

خيبة طوّحت بأماله كلها، وأخذ يسير تائهاً بغير هدى.. كان مغيباً عن الواقع، وذهب تفكيره إلى صديقه ماسين، وارتاع حين تصور أنه ربما قدم مات، لكنه أدرك بحس غامض أن ماسين لن يموت أبداً.. إن مثل ذلك الرجل لا يمكنه أن يموت. وفكّر في الشاب أسافو؛ الشاب الذي قتله الإرهاق والإخلاص وغيصة سرقة ساريل للبضاعة.. ماذا يفعل كي يرد جميل هذا الشاب؟! احتار وسط زوبعة ريح خفيفة هزت ملابسه، ولفحت وجهه المعروق.

وجد السيد أفولاي - في الأخير - نفسه وسط حي غريب، يمرّ فيه بسرعة بعض الشباب والرجال من مختلف الأعمار. وسرعان ما انتبه إلى فتيات جميلات يقفن عند باب كل منزل محروس من قبل شخص مفتول العضلات:

- إنها مواخير.. وهنا سيكون ساريل على الأغلب.

هكذا ردد السيد أفولاي في نفسه، وفكر أن يفتش في المواخير عن اللص ساريل، ولكنه نظر إلى الرجال مفتولي العضلات، ونظر إلى هيئته، وصور البذاءة التي تهاجمه من المواخير، فتبين له أن دخول مغامرة مثل هذه لا جدوى منه، ولو كان الثمن القبض على ساريل. انسحب السيد أفولاي من حي المواخير تحت أنظار الشباب المستغربة، التي تابعت خطواته العرجاء، وهي تكسر الصمت في الشارع الهادئ؛ الذي يبدو وكأن عصابة من الأشرار الشرسين تجوب صامته الطرقات للانقضاض على الفتيات.

كان المساء ينزل سريعاً، وخيم هدوء مريب على المدينة. رأى

الشمس كبيرة ومتوهجة، وتحسس أيقونة ثفوشت، وخاتم زهرة الجمر، وشعر بالمهمة الثقيلة التي يحملها على كاهله. سار ببطء مستحضرًا حياته المتقلبة، وتذكر زوجته الجميلة التي أقسم بعد وفاتها أنه لن يقرب امرأة أخرى بعدها أبدًا، وأنه سينذر نفسه للقراءة والمعرفة والتجارة في الملح. فجأة وجد نفسه وجهًا لوجه أمام فارس يمتطي صهوة جواد أصيل؛ فارس يتدلى من الغمد، المربوط على حزامه، سيف كبير.. فارس قصير القامة، نحيف الجسم، يرتدي لباسًا باذخًا، وتشوب وجهه ندوب بنية توزعت على وجهه الطويل:

- أهلا أيها الأعرج العجوز.. كيف وصلت حيًا إلى هنا؟!

نظر إليه السيد أفولاي، وغضب عارم متحفز شَبَّ بضراوة داخله:

- أنت، إذا، ساريل رفيق الرحلة.. جميل أن أراك من جديد.

- نعم، أنا ساريل.. وأنت محظوظ أيها الأعرج الخرف.. لقد بقيت حيًا، رغم قَطْعِك كل تلك المسافة برِجْلٍ واحدة.. كنت أعتقد أنك ستحاول العودة إلى بلدتك دريو.. على الأقل.

- لا، لست أنا من يتقهقر ويتراجع.. يبدو أنك لا تعرفني!

- هذا صحيح.. فأنا لا أعرفك؛ ولهذا السبب وحده أخذت منك البضاعة.

بعد لحظة صمت:

- رأيتك تحفر قبر أسافو، وتحشمت في ذلك عناء كبيراً.. إلى هذه الدرجة أنت مخلص لذلك الشاب التافه؟!

- إنه من أفضل شباب دريو الذين عرفتهم في حياتي.. إنه شاب شجاع وأصيل.. لو كان معنا في تلك الليلة لما استطعت سرقة القافلة.

- لست أحمق لأفعل.. أخذت القافلة، وأخفيتها بعيداً، وعدت لأراقبكم كي أتخذ الوجهة العكسية لوجهتكم.

- الغدر سمة الجبناء.. أنت غدرت بنا، وقتلت أسافو!

ضحك ساريل، وقال شامتاً:

- ليتني استطعت قتله فعلاً! بالمناسبة، لقد نسيت أن أسحب من تحت رأسك الكيس.. ما أغباني!. كيف فاتني ذلك؟. ولكن عزائي أنك فقدت مساعدك المخلص أسافو، ودفنته بالملح والدموع. يجب أن تشكر فضلي لأنني تركت لك بضعة أكياس بالصادفة.. وتركتك في الخلاء لتموت جيفة؛ تنقر عيونها الجوارح، وتنهش لحمها الذئاب.. كما توقعْتُ خطأً.

- دعنا نتحدث بشجاعة.. هل تقبل إرجاع أموال التي سرقتها؟

قهقه ساريل عالياً، وقال بسخرية:

- ابحث عن أموالك في الخمارات وفي المواخير.. سوف تجدها معفّرة بالخمرة المعتّقة، وبعرق العاهرات الجميلات.. سأغادر مدينة أشتين لأعود بذهبٍ غالٍ اشتريته من هنا، وسوف أصبح غنياً في

بلدة دريو، وسوف أحيط نفسي بحرس خاص، وسوف أدخلك السجن لو حاولت التحرش بي في بلدتنا.. إنك تعرف حكام دريو.. لا يهمهم إلا من يدفع أكثر.

- مزحة لطيفة.. أعلم أنك، يا ساريل، ستنفق كل ما تبقى لديك من مال في المواخير والخمارات، وسوف تصل دريو، في أحسن الأحوال، مفلسًا متشردا كما كنت دائمًا!.

صمت السيد أفولاي قليلا، ثم قال بنبرة جادة:

- حسنًا أيها الفتى، هل بمقدورك مبارزة كهل أعرج؟. ستستحق البضاعة التي سرقها إذا قتلتني، ولتشهد الآلهة صدق ما أقول.

- تريد مبارزتي أيها الخرف!.. ألا تحرص على ما تبقى من عمرك؟. سمعت أنك صرعت أسدًا في شبابك، ولكنني لا أصدق هراء كهذا.. ثم إنك أصبحت الآن عجوزًا أعرج لن تستطيع قتل ولو نعجة.

- حاول.. قد أهزمك.. صرعت في شبابي بضعة سباع، ولكن الآن، وأنا كهل، أجزم بأنني أستطيع، على الأقل، صرع نعجة واحدة.. على الأقل.

استلّ السيد أفولاي سيفه، الذي لم يكن إلا سيف أسافو، ثم لوّح به في وجه ساريل:

- هيا.. كن شجاعًا، وأخرج سيفك.

- لا يشرّفني قتل كهل أعرج ومخبول.

حاول السيد أفولاي أن يضرب بسيفه رأس ساريل، لكن ساريل استطاع أن يتفادى الضربة، فلم يُصَب إلا قليلاً على مستوى كتفه. لمز الحصان، ثم فر هارباً من باب المدينة الغربي. وتبعه السيد أفولاي مهرولاً بعرجه الواضح، وهو يقول بهيجان:

- توقف أيها اللص الجبان.. سأقتلك يوماً ما.. توقف...

استمر السيد أفولاي يهرول مُطارداً ساريل، الذي اندفع بحصانه بسرعة خارج المدينة. ولم يتوقف عن مطاردة خصمه إلى أن حل الغروب، واختفى ساريل عن أنظاره؛ فتوقف بعيداً عن مدينة أشتين ولهائهُ يتلاحق، وعطشٌ شديدٌ يستبد به. جلس فوق صخرة، وكانت الشمس تختفي وراء التلال، والطيور تغطي الأفق البعيد، وأزيز النحل يُسمع واهناً في نهاية يوم لم يكن عادياً.

جئت لأتحدث معك،

ولأجلس بجنبك، لعلك تتعلمين الحب الذي أشعلته في قلبي أنت

تراقبين المضممار وأنا أتأملك،

دعينا نراقب،

كلانا معًا،

ما نحب،

ونمتّع أعيننا.

حريق وحب مهول

بعد شهر وثلاثة وعشرين يومًا، طرق المتصرّف باب منزل السيد ماريوس، وبجنبه فتاة هي قطعة من القمر، يسيل من فمها، المرسوم كوردة في طور التفتح، شلال من الرقة والعدوبة، وترتسم على وجهها غمامة بيضاء من هدوء أزلي، وشعرها الهادر ينفلت مع نسيمات أواخر الربيع الدافئة، راسمًا هالة بارعة حول جسدها المدهش في تناسقه وجاذبيته المثيرة. توجه السيد ماريوس إلى الباب بخطوات متثاقلة. كان قد أهمل نفسه، وكان يرتدي ألبسة غير لائقة، ولم يخلق ذقنه لأكثر من شهر ونصف، وبدا أنه لم يستحم منذ أكثر من ثلاثة أسابيع. فتح الباب، وهو يداري ضوء النهار، الذي فاجأ بصره، وفي النهاية كاد يغشى عليه، وهو يرى ضوءًا أكثر بريقًا ورقّة يتجسد في فتاة أمازيغية فاتنة لم تكن إلا تيرارا. خجل السيد

ماريوس من نفسه.. لقد وجد أمامه فتاة مختلفة تمامًا عن تلك التي جلبتها إليه سانيس ذات يوم.

أدخل السيد ماريوس، بكل احترام وتبجيل، تيرارا إلى المنزل، الذي كانت تسوده فوضى عارمة. لاحظت تيرارا ذلك؛ فقررت بدء الشغل منذ تلك اللحظة. وقبل أن تشرع، طلبت، بوّد ساحر، إلى السيد ماريوس أن يستحم، وأن يخلق لحيته، ويرتدي لباسًا يليق به. فما كان على السيد ماريوس إلا أن يمتثل، بنشوة عارمة، لمشية تيرارا. ولأول مرة، منذ فقدان تيرينا التي دفنت نفسها في البحر، يشعر السيد ماريوس بفرح يداعب شغاف قلبه، ووجد في نفسه موجًا هادرًا من حبّ يكتسحه، واكتشف أن الفتاة البربرية تيرارا هي حبه الحقيقي الأخير.

بعدما أصبح المنزل قصرًا نظيفًا، ومرتبًا بذوق أنيق استغرب له السيد ماريوس، جلست تيرارا تتناول فطورًا متأخرًا في حضرة الرجل الذي عاد إلى أناقته السابقة، ومنزله الذي تحوّل؛ بفضل مجهودات تيرارا المتسمة بأناقة بارعة، إلى تحفة وضع فيه كل شيء ثمين في المكان الذي ينبغي له أن يكون فيه. قالت تيرارا موجهة كلامها إلى السيد ماريوس بعدما أصبحت تجيد التحدث بلباقة مدهشة، وتنتقي كلماتها بمتهى الدقة واللباقة:

- والآن، أيها السيد ماريوس، أرغب لو تتمم وصية لوطر لسانيس.. هل تستطيع أن تجدي عملاً محترمًا؟

ابتسم السيد ماريوس، وقال بتلثم لم يستطع مداراته:

- نعم، أريدك زوجة، وسيكون عمك الدائم هو تنبيهي إلى حلق ذقني إذا سهوت.. وأرجو، بكل حبي لكِ ومشاعري، أن تقبلي هذا العرض.

انشغل الناس خارج المدينة بالموت المفاجئ للحاكم أورليوس سيبيو، بعدما اشتد عليه مرض البواسير؛ فأزهق روحه أثناء محاولة مستحيلة للتغوط؛ بحيث تقطع شرجه على نحو مريع، وتسبب له ذلك في نزف دموي لم يتوقف، لقد وجدته زوجه واري في أحد الأضباع ساقطاً على جنبه الأيسر في الحمام. وبينما كان القائد صولاً، الذي بدا ذلك اليوم كفرس نهر هائج، يشرف على مراسم دفن الحاكم، وفي الوقت نفسه يشرف على تنصيب نفسه حاكماً جديداً للمدينة، أصيب الناس بالذهول لحادث موت حاكمهم الطيب، ولم يتبهاوا كثيراً إلى الرائحة النتنة، التي عزاها بعضهم إلى حزن الآلهة على موت الحاكم أورليوس سيبيو. وبعد إتمام مراسم الدفن، أعلنت الأفراح فوراً في المدينة حتى قبل أن يعود الأمناء والأعضاء من مكان دفن حاكمهم السابق أورليوس سيبيو في حديقة قصره. وزع الرئيس صولاً الخمر على نحو واسع في شارع الرئيس في ذلك المساء، وأمر بإحضار فرق موسيقية أحييت الليلة تحت رقصات السكارى والراقصات، وقدم لحم الماعز المشوي على الجميع، ولم ينس إصدار أمر خطير:

- يجب تطويق قصر الحاكم السابق أورليوس سيبيو، وفرض إقامة إجبارية على كل من فيه.

في صباح الغد، وبعد طقوس الاحتفال الصاخب، استيقظت مدينة أرتو على فوضى عارمة.. زُبل في كل مكان، وسكارى يترنحون من ثمل الشراب، وكلاب تنهش ما تبقى من لحم في عظام الماعز الذي شوي بأعداد كبيرة.

حريق

أغدق السيد ماريوس كل اهتمامه على زوجه الرقيقة الجديدة تيرارا، التي أشاعت في منزله الفاخر نفحة دفاء حميمة. وعاش مع تيرارا قصة حب ساحرة بعيداً عن المحيط الذي أصبح قذراً في أرتو؛ قصة حاملة كما لو أنهما يعيشانها في جزيرة مدهشة وسط بحر بلا سواحل. واستطاع الزوجان، اللذان امتزجا نفسياً في عشق مشير، عزل كل المؤثرات الخارجية عن مُتعهما في المنزل الفاخر. وظلت تيرارا حريصة على نشر حيق الورد لكي تصدّ الروائح النتنة المنبعثة من الخارج.

ساعت أحوال السكان في أرتو، وأصبح الجو مشحوناً بعدم الثقة والأمان. وفجأة انبعث دخان قاتم في فجر يوم ثلاثاء تعيس؛ فقد هاجمت تشكيلة من الحرس الليلي لمدينة أرتو، عند منتصف الليل، وفي سرية تامة، حي الأمازيغ. كانت غاية تلك السرية سرقة بعض قطعان الماعز لإعالة أسر أولئك الحرس الجائعة. غير أن الأمازيغ تنبهوا- في آخر لحظة- للواقعة؛ فنشب عراك فجائي شرس بين الحراس المدججين بالرماح والسيوف، وكل سكان جبل

الأمازيغ، الذين استنفروا أنفسهم، وانبروا يدافعون عن حيّهم
بشتى الوسائل الممكنة؛ إذ أشعلوا النيران، وأخذوا يهاجمون الحرس
بالبهراوات والمشاعل. واحتدمت المعركة؛ فسقط عدد من الأمازيغ
قتلى، نساءً ورجالاً، ومات حارس من حرس أرتو إثر لهب
شَبَّ في ثيابه، وعدا جواده الذي وصله اللهب في زقاق ضيق،
وسقط - في الأخير - قرب منزل مبني بالقصب والعيدان على غرار
كل منازل الأمازيغ؛ فاشتعل المنزل بالنار، وانتقل الحريق بسرعة
ليشب في جميع الأكواخ. وفي الأخير، أصبحت النيران تلتهم كل
حي جبل الأمازيغ، وتساعد دخان أسود غطى مدينة أرتو، ونشر
فيها رائحة لحم بشري مشوي، وُسْمِع صراخ جماعي رهيب استمر
متواصلاً من بزوغ الشمس إلى الضحى. وممرت سحابة دخان أسود
غطت كل فضاء المدينة، ودخلت بعض المنازل التي كانت نوافذها
مفتوحة. استيقظ الحاكم صولاً مدعوراً على رائحة الشواء اللاذعة،
والدخان الأسود الذي عاينه من خلال نافذة بيته. طلب من
الفور إلى الجنود استقصاء ما يجري.. لقد ذهب ظنه إلى أن المدينة
تتعرض إلى هجوم من غزاة، وإلى أنهم شرعوا في إحراقها. أخبره
أحد جنوده أن مصدر الدخان هو جبل الأمازيغ، وأن السنة لهب
عالية ترتفع من هناك.

- اللعنة!

قال الرئيس صولاً بانفعال ارتجّ له شارباه الملتفان حول فمه
العريض، ثم أضاف:

- لماذا لا يرحلون؟. لماذا يحتلون الجبل؟! يجب أن أعلن عليهم الحرب، وسأطردهم وأطهر المدينة من نجاستهم.

ظل الدخان الأسود يغطي مدينة أرتو، بعدما خمد لهيب الحرائق في الجبل أخيراً. وبعد أكثر من نصف نهار كامل، بدأ الدخان يتعد عن المدينة بفعل رياح هبت فجأة، وأزاحت الدخان الكثيف ورائحة الشواء المقززة. رغم كل الجهود التي بذها الحاكم صولا لمعرفة أسباب اندلاع الحريق المهول، الذي محأ أكواخ جبل الأمازيغ، فإنه لم يستطع الوصول إلى معلومات كافية حول الحادث، ولكنه علم أن تشكيلة حرس ليلي، تتكون من عشرين فارساً، فقدت، ولا أحد يعرف مصيرهم. ولم يستطع الحاكم صولا فهم العلاقة بين اختفاء تشكيلة من حرس الليل، والحريق المهول الذي قضى على أكواخ جبل الأمازيغ، وأزهق أرواحهم. في المساء، كان الجو مناسباً لكي يخرج الحاكم بنفسه، على رأس الكتيبة المرافقة له على الدوام؛ الكتيبة المشكّلة من أشرس وأخلص جنود أرتو للحاكم صولا.

خرج موكب الفرسان، وأخذ يخب بهدوء. خلت المدينة تماماً من الناس، ولم يكن هناك متجر واحد مفتوح. ولصق بعض الدخان الأسود ببعض المنازل، التي كان لونها فاتحاً في السابق، وهي غالباً منازل لأعضاء وأمناء مجلس المدينة؛ فحوّلها الدخان، كما باقي المباني، إلى لون باهت بلا روح أو حياة تبهج النظر. وقف موكب الحاكم صولا أمام جبل الأمازيغ، الذي كان لا يزال يطلق

بقايا خيوط دخان متفرقة. كما بدت عدة حرائق شبه خامدة في عدة جهات من جهات الجبل. شعر الحاكم صولاً بالانشاء لهذا الحدث الذي خلصه من تلك الحثالة من البربر، الذين كان يشعر بهم يجمون فوق الجبل، وكأنهم يجمون على صدره. أمر جنوده بالرجوع، وأصدر أمراً صارماً:

- ينبغي البحث عن الحراس الليلين، وإحضارهم فوراً.

همَّ الحاكم صولاً بالوقوف، رفقة موكبه، حذاءً بناية الرئيس. وحين سمع صوت حارس جاء مندفعاً بجواده، بسرعة فائقة، ملاحظاً رئيسه، يقول وأنفاسه تتلاحق:

- سيدي الحاكم، هناك عدد كبير من الأشباح على سفح جبل الأمازيغ!

دارى الحاكم صولاً فزعه، وصمت قليلاً وسط ترقب جنوده البواسل، الذين بدأ بعضهم ينفلت منه بوله في ثيابه؛ خوفاً من أن يأمرهم الحاكم صولاً بمقاتلة الأشباح. استشعر الحاكم هلعاً جمداً أوصاله من الداخل، ولكنه تجلَّد، وحافظ على هدوءٍ خادع كان شبه مستحيل، وقال بصوت مرتبك غير معهود في شخصيته الموسومة بالقسوة والصلافة:

- على أي حال، لن تتمكن من محاربة أشباح.

وبعد تفكير قصير، أضاف:

- لنذهب من هنا.

ولما كان الحاكم صولاً واثقاً من أن الأشباح التي تحدث عنها الحارس يمكن أن تظهر أمامه فجأة، وفي كل مكان، فقد أخذ يجول بجنوده وسط المدينة، وكان ذلك الوضع يريحه؛ فهو على الأقل موجود بين فرسانه. وبعد لحظة، وجّه الحاكم صولاً موكبه نحو جبل حي الأمازيغ من جديد. لم يفهم الدافع الذي دفعه نحو اتخاذ ذلك الموقف، الذي وجده الكثير من جنوده غير مريح بالمرّة، ولكن الواقع أن الحاكم كان في حالة اضطراب لم يعرف كيف يتصرف حيالها، وكان فاقداً توازن تفكيره في تلك اللحظة. وبما أن طبعه يغلب عليه الكبر والعجرفة، فقد منعه ذلك من مشاورة أقرب مرافقيه، وبالخصوص الأمين ساوسي الملقب بـ «صاحب الردف الواحد». وبينما واصل موكب الفرسان خيبه في أحد الأزقة، شعر الحاكم صولاً وموكبه برائحة الحريق تتزايد، وبموجة كثيفة من لحم مشوي تندفع مقتحمة الأنوف إلى درجة جعلت عدداً من الجنود يشعلون بحدّة. انعطف موكب الفرسان من الزقاق ليجدوا أمامهم فجأة عشرات من الأشباح المخيفة. تجمّد الموكب فوراً، وذعر الجميع للمشهد الم هول؛ فكبّل الرعب حركتهم وردود أفعالهم، فقد شاهدوا منظرًا مريعًا لا يصدق!. أطفالاً ونساءً وشيوخاً ورجالاً سلّخت عنهم جلود وجوههم، وصدورهم، وأطراف كثيرة من أجسادهم العارية المصبوغة بسواد دخان قاتم. على حين تفحّم شعر البعض الآخر، وسال على أجسادهم دم أسود داكن؛ دم مختلط بتراب وطمّي وخرقٍ من كتان منكشّة ومحرقة.

صاح الحاكم صولاً، وهو يستيقظ من فزعه أخيراً.. لقد تنبه إلى أن ما يراه مجرد عشرات من بقايا الأمازيغ، الذين لم يقض عليهم الحريق نهائياً. وقف الأمازيغ المحترقون بوجل وبألم ممض، أمام الحاكم صولاً، في رجاء صامت؛ لأجل مساعدتهم وتطبيبهم، ونزّت دموع سوداء من عيونهم المنطفئة. قال أحدهم بصوت مرتج، وكأنه صوت غريق يخرج من تحت الماء:

- هاجمنا أمس بالليل بعض حراسك.. كانوا يرومون سرقة ما عرنا ودجاجنا، وهم من سبب في إحراق الحي بأكمله.

اطمأن صولاً للكلام الذي سمعه، وفهم سبب غياب الحراس الليليين الذين كان يبحث عن سبب اختفائهم. وبعدما استشعر من جديد قوته المعنوية، التي افتقدها لوقت وجيز، أعطى أوامر صارمة، وبدم بارد:

- ابعجوا بطون هؤلاء الخثالة برماحكم.. لا أريد وسخاً أكثر في المدينة!

في رمشة عين، كانت الأشباح المخيفة قد تحولت إلى مجرد مصارين ودماء نازفة ممتزجة بلحم بشري أحمر، وصراخ رعب امتد صداه في كل أزقة أرتو وشوارعها. ابتعد الحاكم صولاً بجنوده عن المكان، وقال لمرافقه الأمين ساوسي:

- ستلتهم جثتهم الكلاب الضالة في الليل لا محالة.

ثم تذكر فجأة الحارس الذي جاء بنبي الأشباح، وأطلق الحاكم
أمرًا عاجلاً:

- يجب إحضاره فوراً.. ذلك الحارس الرعديد الذي أخبرنا عن
أشباح.

وفوراً، أيضاً، كان الحارس يقف مبتهجاً أمام الحاكم بوجهه
النحيف الطويل، الذي يشبه وجه ثعبان مائي مسالم. ولكن
الحاكم - هذه المرة - لم يصدر أمراً، بل استلّ سيفه، وغرسه في قلب
الحارس، الذي انكفأ على عنق الجواد، قبل أن يسقط على الأرض،
ثم يغرق في دمه، ويلفظ أنفاسه الأخيرة.

- خذوه، وضعوه فوق كومة البربر المحروقين القتلى.. لا أحب
حارساً جباناً، يحدثنا عن الأشباح بعد اليوم!

حُب

بدا السيد ماريوس تائهاً تماماً، ودارت في ذهنه تصورات كثيرة،
وفكر في أن يفعل شيئاً لتغيير الوضع في أرتو، التي يراها، بأسى
عميق، مدينة تتوجه نحو نهاية بطيئة وتعيسة. لا يستطيع فتح
النوافذ؛ فالهواء في الخارج مقرف وكريه. رغم المتعة المدهشة التي
تزرعها في نفسه تيرارا، إلا أنه يشعر بالضيق، وكأنه مسجون في حيز
خائق لا هواء فيه. فكر في الأحداث الماضية، وراعه أن يعاين بعجز
غرق المدينة التي عشقها دوماً. فكر في حيّ جبل الأمازيغ، وتذكر

المقاتلين البارعين الذين تطوّعوا للدفاع عن المدينة. تذكر شجاعتهم ومهارتهم الخارقة في القتال.. كيف فاته التفكير في جزء من سكان أرتو، يشكل مكونًا لا يمكن إغفاله أو إسقاطه من سجلات مكتبة البناية، فقط لأن البربر لا يملكون سوى ما عزيرعى في الجبل بين البيوت الصغيرة الفقيرة، ومزارع بسيطة يعتاشون من غلالها؟ وكيف لم يدر بخلده قط أن في ذلك الحي يمكن أن يعثر على فتاة بارعة الجمال.. فتاة شابة أشبه ما تكون بحلم حلوا لا ينتهي إلا ليعود من جديد؟

رأى زوجه الأمازيغية تيرارا المفعمة بالعنفوان والجمال، تتمدد على السرير شبه عارية، ترتدي فقط لباسا شفافا يفضح حلمتها النافرتين، وسرتها التي تشبه فم إلهة طفلة، وجسدها المنحوت ببراعة لا تصدق. وجد نفسه مبهورًا، وهو يتأمل الفتاة الشابة المستغرقة في شرو هادئ. شكر كل آلهة الأرض؛ لأنها بعثت له هذه الأيقونة الفاتنة لتنير حياته ونفسه العميقة، التي كانت قد بدأت تغرق في ظلام حالك. لقد اعتقد- في لحظة ما- أن الحب ينفلت منه، وأنه لن يجد فتاة أحلامه أبدا.. لكن هذه الأمازيغية، الهاربة من أسطورة حقيقية، فرضت عليه نفسها في وقت كاد يقتله فيه اليأس. لقد اقتحمت تيرارا حياته على نحو مباغت وجميل، وخلقت منه ماريوس آخر، وبرؤية أخرى للحياة والمستقبل.

رمى عينيه إلى الحديقة من خلال زجاج النافذة، ورأى طيورًا قلقة تتفافز بوجل من سور إلى سور، ومن شجرة ذابلة إلى أخرى؛

فاحتواه شعور يقيني بأن شيئاً ما مريعاً سيحدث في المدينة، ولكنه لا يدرك كُنه هذا الشيء. وانقبضت نفسه حين رأى كلاباً تحيفة تجوس بعيداً، وريحاً غبارية تهب سريعة، وتجمع من الشارع كل ما تصادفه من القاذورات، وتشتت الكل فوق شوارع المدينة وأحيائها. حوّل السيد ماريوس بصره عن الخارج، واندفعت نفسه نحو تيارا المستلقية بسحر خارق فوق السرير. شعر فوراً بحريق وديع يشبّ داخله، وراودته انفعالات غريبة جعلته يبدو مضطرباً وواقعاً تحت حالة غير مفهومة من الحيرة. استمرت تيارا ممدّدة جسدها الجحيمي شبه العاري فوق السرير. كانت تداعب سواراً فضياً بيدها. ثم انقلبت، وتمددت على بطنها فوق السرير؛ ورأى ماريوس ردّفين مكتنزين، وفخّذين مصقولتين، وخصراً بديعاً، وشعرًا ملقياً بفوضوية متناثرًا كسبائك من معدن نفيس على كل شيء حولها.

بلع ريقه، وخرج مسرعاً إلى المطبخ. شرب كأس نبيذ، ثم عاد إلى حجرة النوم من جديد. تخلص من ردائه، وأصبح بدوره في ثياب خفيفة، واقترب من السرير. أول مرة يشعر بوجل غير مبرّر يجتاحه، ولأول مرة أيضاً يكتشف السيد ماريوس أن زوجه تيريرا لم تكشف عن جاذبيتها الكاملة بعد، وأنها ما تزال تُخفي الكثير من مفاتها. جلس على حافة السرير، وواصلت تيارا التلاعب بالسوار الفضي غير مبالية. نظر السيد ماريوس إلى قدميها اللتين تهتران بوقع فاتن، وإلى ساقيهما المكشوفتين تماماً، وتبين لأول مرة أن لون جسد تيارا هو مزيج من لون الذهب والنحاس والفضة.

تأمل رديها.. تأملها طويلاً قبل أن يمدّ يده المرتعشة، ويمرّر بلطف إصبعه بين ردي في تيرارا، من دون أن يغرق إصبعه في العمق. واجتاحه من الفور إحساس غامض.. لقد خيل إليه أن أصابعه تغرق في زبد البحر، وأنه يلامس موجاً لطيفاً يتكسر على صخور بحرية صغيرة، وأنه يتحسس سجاداً أنيق الألوان والأشكال. ظلت تيرارا محافظة على صمتها وهدوئها العفوي. بدت وكأنها غير مهتمة بوجود السيد ماريوس، ويده التي تداعب رديها برفق وعذوبة، واستمرت تحرك السوار الذي يصدر صليلاً بإيقاع رتيب ومُطرب، ذكرها بموسيقى قديمة وساحرة سمعتها- ذات أيام بعيدة- في جبل الأمازيغ، وذكرتها برجل رائع ونبيل قضى جراً عشقه اللامتناهي للجمال. كانت تيرارا تفكر في كل شيء، ولم تكن- في الوقت نفسه- تفكر في أي شيء. شعرت بيد السيد ماريوس تحررها من اللباس الشفاف؛ فرفعت وسطها من فوق السرير لتسهل عليه العملية، ثم تماهت مع رغبته، وتركته يجردّها من كل ثوبها، ولم يكن يعني لها ذلك شيئاً كثيراً؛ فقد كانت شديدة الشرود، وواصلت التلاعب بالسوار الفضي، الذي يطلق نبرات موسيقية بإيقاع حالم. وجد السيد ماريوس نفسه أمام جسد مبهر؛ جسد يفيض بالأنوثة، ويفرز رغبة قاتلة. وشعر بأنه يفقد التحكم في نفسه، وتوصل إلى حقيقة أن الرجل مهما كان رجلاً حقيقياً، سيقى ضعيفاً أمام الجمال الذي لا يمكنه أن يتجلى، بكل صفاته وعناصره، إلا في جسد امرأة عارية ومقشرة كثمرة رمان.. ثمرة رمان تتناثر- في النهاية- حباتها الحمراء الجميلة أمام عينيه، وتشتت داخل روحه لترجّه رجاً قوياً.

أغرق السيد ماريوس، بعد أن تخلص من ثيابه، وجهه في جيد تيرارا، وشمّ عطر جسدها الحارق، وأخذ يغمرها بقبلاته النهمة، وبدأت تيرارا تتفاعل بعفوية مع مداعباته العذبة، وتطلق آهات متقطعة يهتز معها السوار الفضي في يدها ليشكّل لحنًا عجيبًا، يجسد اللذة والموسيقى في أبهى صورتيهما. قطف السيد ماريوس من ثمار تيرارا بعذوبة وبرعشة رافقت أصابعه الوَجِلّة، وواصلت تيرارا التوغل في غواية بدأت تتحرك فيها شيئًا فشيئًا، وفاض شعرها فغمر وجه السيد ماريوس، الذي أحس وكأنه في حلم فردوسي لا يمكنه أن يتحقق إلا في السماء. مرّر لسانه على جيد تيرارا، وداعب به جسدها، وشربا رحيق بعضهما بعضًا.

بعد مداعبات حميمة عميقة، بدا وكأن نارا من نور تشتعل في السرير، وتساقطت جبات عرق بطعم سمك شهى مملح؛ عرق ممزوج بريق ورضاب سال في روح تيرارا، وجعلها تهتز هزات عنيفة مترادفة مع صليل السوار الفضي، الذي ظل يصدر وقعا يتصاعد ثم ينخفض.. ثم يهيج ليخمد في الأخير، وكان السيد ماريوس يستعيد أنفاسه... ومن الفور تذكر معركة الذئاب، وتذكر الأميرة سانيس التي مرت، كما لو أنها طيف غيبي، بين الجنود، ووسط الرماح والسيوف، وتذكر تيرارا حين وقفت إلى جانب الأميرة سانيس أمام باب منزله بألقها وفتنتها التي تسربت إلى قلبه، ورجّته رجًا عنيفا، ورأى تيرينا تقف أمامه في مكتبة بناية الرئيس شاحخة وهاجة برائحة البحر التي تنبعث منها، ولباسها الحريري الفاخر، وحليها الذهبية الثمينة، وملاحمها العبقة بجمال أمازيغي أصيل،

ووجهها المدور الذي يشبه بدرا ساطعا يطلق إشعاعا نورانيا يغمر الكون كله، وتذكر أنها جاءت لتسأله عن أنير.. منذ ذلك الزمن، تغيرت حياته جذرياً؛ فهي هو يتذوق حلاوة الحب الحقيقي الذي طالما تطلع إليه بشغف وأمل، وكان ذلك الأمل، غالباً، أملاً يائساً جداً، قبل أن يتحول إلى واقع يعيش متعته بكل اللذة التي تغمر روحه الآن. وبينما كان سارحاً في أفكاره البعيدة، كانت يد تيرارا تعبت بشعر صدره، وتدسّ رأسها الجميل تحت ذراعه القوية.

خرجت تيرارا عارية تماماً من الفراش، وخطت أمام ناظرَي السيد ماريوس المندهشة؛ فرأى ردفها يرتجان بفعل مشية أنيقة متراقصة، وشعرها الطويل المجمع يسيل ليصل إلى ردفها، وقدميها الصغيرتين الجميلتين تكاد لا تلمس الأرض.. حينذاك ودَّ لو يُبقِيها إلى الأبد بجنبه في الفراش، وراودته رغبة ملحة في أن يتبعها إلى الحمام ليستحماً معاً.. في حوض واحد.

أحب أن أبقى الآن بين ذراعي حبيتي وأشعر الآن،

لو أوتيت ذلك يوماً،

أنها لصيقة بي.

النوم عميق الآن،

والهواء بارد عليل، وغناء الطير ينسكب من الحناجر النحيلة لحنًا

رقرقًا.

الأيقونة الحزينة

أصبح جسم أنير هزيلًا وضعيفًا للغاية، ولكنه كان يؤمن - في لحظات صفوه الذهني - بأنه سيخرج من السجن، وبأنه سيلتقي أخيرًا الأميرة سانيس إلى الأبد. وكانت سانيس تملأ سجنه الانفرادي المظلم على الدوام. وطالما تحدث إليها بصوت مسموع، وهو يجلس القرفصاء، مُسندًا ظهره إلى الحائط البارد، وأسنانه تصطك. واستمرت نجمة وهَّاجة تنير في خياله سجنه المظلم، وظل صوته يُسمع في الخارج، حين كان يتحدث إلى طيف سانيس الذي يملأ فراغه، المشحون بالظلام والعفونة؛ فيأتي إليه أحد الحراس ليُسكته بنغزة مؤلمة من عقب رمح. وبين اليقظة القصيرة والهذيان المحموم، بقي مرميًا فوق أرضية السجن الباردة المشبعة بالرطوبة، وأصبح السجان يأتيه بالطعام

القليل، ويدفعه إليه من بعيد برمح؛ لكي لا يبطأ على المكان الذي تحول إلى شبه مستنقع تسبح فيه الحشرات والفئران وكل شيء مقرف. ولم يكن مستغرباً أن ينتظر الحراس موته في كل لحظة، ولكنه لم يمت:

- «هذا الخراء لا يريد أن يموت».. ردد أحد الحراس بملل.

مرت أيام طويلة، ولم يتغير شيء في المدينة، سوى فوضى عارمة لازمتها منذ أن أصبح صولاً حاكماً لأرتو. كسدت أغلب المهن والحرف، التي كانت مزدهرة في السابق، وأغلقت جل الخانات بسبب عدم توقف القوافل فيها، وتفضيلها وجهات أخرى أضحت آمنَ وأكثرَ استقراراً من مدينة أرتو، وكسدت تجارة النيذ بعدما أصبح شربها ترفاً لا يملكه إلا أمناء وأعضاء مجلس المدينة، وبعض الأغنياء الكبار. وقرّر السيد جينيو الرحيل عن المدينة؛ فملاً العربة، التي كانت في السابق تنقل الزُّبل، بعدما نظفها جيداً، بأمّعة منزله، وأخذ زوجه وأطفاله، وهاجر إلى منطقة مجهولة؛ فقد تكاثرت الوسخ، ولم يعد يستطيع جمع كل كميات الزُّبل الهائلة من وسط المدينة، ومن أمام أبواب البيوت. ثم إنه لم يتلقَّ أجراً من محاسب المدينة منذ أشهر لسببٍ بداله غامضاً. وأصبح الطقس في أرتو عجيباً، ولم يعد أحد يستطيع التنبؤ بما يمكن أن يحدث في أي ساعة من اليوم؛ فقد يكون الطقس مشمساً، ولكن فجأة تهب رياح عاصفة، وتسقط أمطار تتسبب في سيولٍ وأحوال تُغرِقُ المدينة لأيام، وأصبحت أرتو تعيش كل فصول السنة في أسبوعٍ أو في يومٍ

واحد! وذهب الناس إلى نُصْب الآلهة، وتضرعوا إليها؛ لكي تعود المدينة إلى سابق عهدها، ولكن - حتى ذلك الوقت - لم يتغير أي شيء فيها!

- إنه بازوزو⁽¹⁾، يحل ضيفاً رهيباً على المدينة!

هكذا ردد الناس، وهم يرون في كل يوم بضع جثث مرمية على أرصفة الشوارع والأزقة.

لم تمت أرتو، ولكن بوادر ذلك الموات لاحت بوضوح في الأفق، لولا إيمان سكانها بتغيير إيجابي يمكن أن يحدث في أي وقت، وهو الإيمان نفسه الذي ينعش الآمال حين تشتد الأزمات في كل مكان وزمان. ورغم كل شيء، فقد استمرت الكثير من معالم الحياة في المدينة.. حياة صعبة، ولكنها كانت تستحق أن تسمى - على الأقل - حياة في آخر الأمر. وبينما كان الناس، ذات يوم، يزاولون أعمالهم وانشغالاتهم القاسية؛ كما العادة، شاهدوا امرأة غريبة تنزل من جبل الأمازيغ؛ امرأة لم يرها أحد في أرتو من قبل. تخطت المرأة في طريقها، وهي نازلة الجبل، ركام الطوب الأسود المحروق، وجثامين تبقت منها فقط عظام سوداء، وحطام ورماد مبعثر في كل مكان، وسارت وسط عقبان سوداء كانت تخلق في المكان. لقد بدت تلك المرأة في لباس عجيب، وصُعَبَ على الناس تحديد عمرها، وبدا وجهها منكمشاً وكثير التجاعيد؛ بحيث يسهل جداً القول بأنها امرأة

(1) بازوزو: Pazuzu، في التراجيديا القديمة، هو إله يأتي من الشرق حاملاً الكوارث والأوبئة.

عجوز يقارب عمرها الثمانين، ولكنها - مع ذلك - أظهرت قوة استثنائية، ببنية شامخة، مع تفاصيل أنثوية واضحة في جسدها، إلى درجة يمكن اعتبارها امرأة ناضجة ومثيرة الأنوثة في حوالي الثلاثين. واصلت المشي وسط مدينة أرتو، ساحة عيون كل المشاهدين المشدوهين لرؤيتها. مشت بهدوء وبخطوات رتيبة، وهي تردد كلامًا خافتًا غير مسموع، بينما تستمر نظرها بعيدًا مخترقًا كل شيء من دون أن يرمش لها جفن.

أربكت الحركة في كل زقاق أو شارع عبرته، وبعثرت المشتريين من أمام بائع السمك، ونسي الخُضارُ الزبائن، وفغر فمه على نحو مدهش، والتفتت إليها الأنظار من كل الجهات، وتوجست الكلاب الضالة الكثيرة، ففرقت مبتعدة عنها. وأصبحت المرأة الغريبة - في الأخير - تسير في شارع الرئيس، وبدا واضحًا أنها تقصد جهة معينة. وفجأة، حين انعطفت من زقاق ضيق، واقتربت من قصر الحاكم صولا، تعالى قريبا منها صهيل جواد، لم تتوقف حوافرها عن دق حجر الطريق. اصطدم موكب الجنود فجأة بالسيدة جيزيا. تجمد حصان الحاكم في الحال عن الحركة، واصفرّت سحنة صولا رُعبًا، وسرت همهمة فزع بين جنوده الأشاوس. تقدمت نحوهم السيدة جيزيا بخطوات هادئة، واخترقت بنظرها الموكب كضربة سيف حاد، ووصلت إلى الحاكم صولا، ونشبت فيه عينيها المشتعلتين بالشرر؛ فشعر بالارتباك، وتراجع قليلاً إلى الوراء.. أراد أن يقول شيئاً، ولكن لم يستطع إخراج كلمة واحدة من فمه، غير أن لسانه، الذي يشبه لسان ورنٍ ضخم، ظل يخرج ويدخل إلى فمه بوتيرة غريبة!

قالت السيدة جيزيا بصوت وكأنه يخرج من قبر:

- احترق حي الأمازيغ عن آخره!. وقتلت بوحشية من استنجدوا بك يا صولا.

استمرت المرأة تنظر إلى الحاكم نظرات حادة ومرعبة، واستمر الحاكم يستشعر خطراً لا يعرف مصدره؛ فقد رأى جثته مرمية أمام كلاب مسعورة، ورأى نفسه مصلوباً على عمود، والجوارح تنقر عينيه، وتنهش لحم وجهه ورأسه! لم يستطع سحب نظره الذي التصق بالسيدة جيزيا، التي بدأت تزيل ثوبها الغريب المكوّن من خرق بالية، ولحاء شجر، وقطع منسوجة من الحلفاء.. بدا جسد المرأة منكشّاً، وكثير التجاعيد، ولكنه جسد مكتمل الأنوثة، وبأثناء مكننزة، وحلمات نافرة. وضعت السيدة جيزيا ثيابها الثقيلة فوق الأرض، ثم وقفت فوقها. قامت بطقوس عجيبة. وفجأة تطايرت شرارات نارية قليلة كانت كافية لكي تشعل النار في تلك الملابس. انثنت بجسدها في حالة ركوع، وبدأت ترقص بهدوء على ذلك الوضع وسط النار، وتطلق أغنية غريبة، ولكنها أغنية كثيبة؛ أغنية تداعى لها الطوب الباهت الأيل للسقوط من سُور قريب، وترامت حولها، ميتة، بعض الطيور التي صادف مرورها في السماء. بدت تلك الأغنية، التي تؤديها السيدة جيزيا وسط لهبٍ يحرق جسدها، مزيجاً من ضحك مستهتر، وبكاء يقطع القلب، وعويل يشبه بكاء ذئبة عند اكتمال البدر. وكان هذا المزيج الغريب من الأصوات يعطي نبرة مُغرقة في الحزن والرعب والفرح. وفي الأخير،

سبّت النيران، على نحو مروع، في جسد المرأة، الذي تحول فجأة إلى فحم في أوج انتقاده؛ فحم أحمر مشتعل مثل الدم. وحافظت السيدة جيزيا على وضعها الراقص الذي كانت تحرك فيه يديها ورجليها بوتيرة متقاطعة.. إلى أن خفّت صوت غنائها العجيب، وخفت معه توهّج لون الجمر المتقد البرتقالي الأحمر، الذي أصبح - شيئاً فشيئاً - يميل إلى الرمادي. ولما أصبح أسود تماماً، انقطع صوت السيدة جيزيا، وتساقطت على الأرض مجرد رماد أسود، وكأنها بقايا لريش غراب محروق!

استيقظ الحاكم صولاً من ذهوله، وزعق في جنده:

- هيا، اجمعوا هذا الرماد. ادفنوه بعيداً.. إنني أتشاءم من رماد شيطاني لامرأة بربرية ملعونة!

لكز جواده مبتعداً، ولم يعرف الحاكم صولاً - في الواقع - إلى أين يذهب، ولكنه أدرك أن عليه مغادرة ذلك المكان المشؤوم، الذي أدخل في نفسه شكاً وتوجساً من كل شيء. ومن شدة انفعاله، وعدم سيطرته على تفكيره، التفت إلى جنده، وخاطبهم بلهجته الصارمة:

- أيّ جندي يبدي خيانة، سيكون مصيره الموت!. هل تفهمون؟

هجرة رجل نبيل

أدرك السيد ماريوس أن الأحداث في مدينة أرتو تتجه نحو الأسوأ، وشعر باستقرار، وهدأ خاطره لاعتقاده أن أنير غادر المدينة

منذ زمن طويل . وفكر بدوره في مغادرة أرتو في أقرب وقت؛ وهكذا، أبلغ تيرارا قراره، وشرح لها دواعيه، وباع المنزل لأحد الأمناء، ثم باع المخزن الذي يحفظ فيه أنفس أنواع السجاد الذي يتاجر به . وأبلغ متصرفه الأول عزمه على الرحيل، وأخبر باقي معاونيه أيضاً بتاريخ الرحيل، واستنفر حرسه الخاص الذين يفوق عددهم الخمسين جندياً متمرساً على القتال، وطلب إليهم تجهيز أنفسهم . خرجت قافلة السيد ماريوس الكبيرة، بعد أسبوع، من بوابة المدينة الرئيسة، وكان الحدث استثنائياً؛ فقد رحل الرجل الذي شهدت أرتو، في فترة إدارته القصيرة للمدينة، ازدهاراً واستقراراً لم يسبق أن عاشتهما، لكن السيد ماريوس أحس فجأة بأنه يفتقد شيئاً مهماً جداً لم يصحبه ضمن القافلة؛ شيئاً يعادل أو يفوق كل ما يوجد في القافلة من أموال وسجاد نفيس؛ فأرسل، على وجه السرعة، أحد معاونيه إلى بناية الرئيس، وأحضر له الشباك الذي كان قد صنعه أنير كنموذج ذات يوم بعيد . أمسك السيد ماريوس بالشباك، وشم من الفور رائحة نسيم ماء بحري مالح ممزوج بأنثى رقيقة وعذبة، ووجد في ذاكرته صورة فتاة باهرة في سحرها وأنوثتها، وبداله طيف شاب كان دائماً يافعاً وطافحاً بالعنفوان، ولكن الشاب بدا له - هذه المرة - تعيساً وقائمًا كظل ذابل . همهم السيد ماريوس بكلام غير مفهوم كثيراً، ولكنه مملوء بغصة واضحة، وهو يسلم الشباك إلى معاونه:

- ضعه في مكان آمن . لن أستطيع التفكير في أنه يمكن أن يضيع

منك .

بكى حراس أرتو لهجر السيد ماريوس المدينة.. الحراس الذين بدا عليهم الهزال والضعف. وحزن الجند الذين كانوا ثمرة لجهده وحسن تدبيره، وسقطت آخر أوراق الرند الميتة. وبعد يومين من رحيل السيد ماريوس، ضربت المدينة عاصفة غبارية كثيفة، مصحوبة بردا ذدهني، لصق على شبابيك بناية الرئيس التي كانت ملونة ويانعة، فحوّلتها إلى مجرد شبابيك بلون ترابي غامق لا يمكن تنظيفها. وهاجرت طيور الحمام التي كانت تسكن ثقوب جدران المدينة، ولم يعد أحد يسمع هديلاً طالما جعل أعصاب ساكنة أرتو أكثر هدوءاً واسترخاءً، بعد تشنجات العمل وقسوة الحياة اليومية. وانتشرت الكلاب الضالة في كل الشوارع والأزقة على نحو مريع، وأصبح، بين كل فينة وأخرى، يسقط شخص ميتاً لأسباب غير معروفة، وسرعان ما تبين أن وباء ما يسري في المدينة ببطء كسُم زعاف ماكر.

أنير في القصر

جلست الأميرة سانيس واجمة في حجرتها؛ فقد مات والدها قبل أكثر من سنة، وكان موته متوقّعا بعد مرضه الأخير الذي ألزمه الفراش، غير أن موت والدها واري؛ سيدة القصر الأولى، أذهلها، وجعلها تعيش في دوامة تيهٍ غريبة استمرت طويلاً. وقبل ذلك، كانت قد قامت في صمت بالإشراف على دفن

والدتها في الحديقة، وقد كلفت بالمهّمة الحارسين المخلصين المتبقيين من حرس قصر الحاكم السابق أورليوس سيبو. لقد كانت السيدة واري تتوقع موت زوجها، وقد بدت يوم جنازته متماسكة ظاهرياً، ولم تكن تعاني علة ولا مرضاً، ولكن الخادمة بيرينة وجدتها ميتة ذات صباح حين أعدت الفطور، وكانت قد انتبهت إلى عدم استيقاظ سيدتها واري مبكراً على غير العادة. ولما ذهبت لتستطلع الأمر، وجدتها تعانق اللباس الرئاسي لزوجها بحنان، كصنم لإلهة قديمة، وكانت عيناها مفتوحتين تنظران إلى شيء غير مرئي!

أصيبت الأميرة سانيس بأسى عميق. لم تبك، ولم تسل دموعها على والدها الحاكم أورليوس سيبو، ولا على والدتها واري، ولكنها كانت حزينة كعصفورة شتوية، ولم تشعر بمرور الأيام من حولها. وظلت متمددة وشاردة في سريرها طول الوقت، ولم تكن تفكر في شيء. واستمرت الخادمة بيرينة تعتني بسيدتها الصغيرة؛ تعدّها الطعام، وتهيّ لها الحمام، وتهتمّ بالمنزل، وتقدم الطعام للحارسين، والعلف للجياد في الإسطبل، وكانت المؤونة في المنزل تكفي شهوراً طويلة. وما فتئت بيرينة تشم روائح ننتة تنبعث من وسط المدينة؛ فشعرت بالتشاؤم، وبدأ لها أن أشياء كثيرة تتغير. وفي تلك الأثناء، تذكرت الأميرة سانيس شيئاً في غاية الأهمية.. أنير.. أين يكون؟ كان قد عزم على فتح ملفّ التلاعبات في أملاك مجلس المدينة ذات يوم بعيد.. ما سبب عدم زيارته لها؟ هل يكون أصيب بمكروه؟ وكيف أنها

لم تتذكره حتى تلك اللحظة؟! الأميرة سانيس لم تتبهِ إلى الإقامة الإِجبارية المفروضة على أسرتهَا، ولم تُعْرِها اهتمامًا، وكانت تلك الإقامة قد انفرطت من تلقاء نفسها بفعل مغادرة عدد كبير من الحراس لمدينة أرتو. نهضت من الفور. استحمت وُفق الطقوس التي تعودت عليها. مسَّدت جسدها بالصابون الأحمر؛ فتكونت الرغوة الكثيفة حولها، ثم ظهرت الفقاعات على جسدها تباعًا، لتتلهى - بعد ذلك - بإطفاء تلك الفقاعات الواحدة تلو الأخرى، وهي تفكر في أنير بهيئته التي رآته عليها آخر مرة، ولكنها رآته - هذه المرة - ملطَّخًا بغلالة ظلام قاتم. ارتدت ملابسها، وركبت جوادها الأثير بعدما جهَّزه لها أحد الحارسين المخلصين لآل أورليوس سيبيو. سارت بهدوء، ولاحظت الفوضى العارمة التي أضحت عليها المدينة، والهزال الذي أصاب الناس القليلين، الذين يجوسون كالحمقى في غير اتجاه. وحزنت لموت شجيرات الرند التي كانت - في السابق - جميلة، وتعطي عنفوانًا للمدينة. سألت حارسًا نحيفًا، يتكئ على جذع شجرة يابسة، عن أنير، وكان هذا الحارس قد عرفَ مصير أنير من خلال زميلٍ له؛ فأخبرها أنه موجود في السجن. شكرته، وتوجهت إلى سجن الجبل بعدما لكزت الجواد ليزيد من سرعته، ولكنها صُدِمت حين رأت كلابًا ضالَّةً وهزيلة تجثو في كل مكان، وتجوس حول الحراس المتهالكين بوجوه ذابلة، مسندين ظهورهم إلى جدار السجن، والبراغيث تتقافز حولهم. وقفت سانيس أمام الحرس الذين هبَّوا بفضول، وهم يشمون

رائحة افتقدوا مثلها منذ وقت طويل؛ رائحة عسل طري؛
رائحة سحرية مدوّخة. قالت الأميرة سانيس بلهجة واثقة
ومفعمة بالقوة:

- أريد تسلّم أنير.

نظر الحراس بعضهم إلى بعض مشدوهين، ولكنهم وجدوا
أنفسهم، من دون وعي، يُهرعون متسابقين لتلبية طلب سانيس.
أخرجَ جسم أنير المنهك الهزيل من السجن في حالة غيبوبة
تامة، وتعاون حارسان على وضعه فوق فرس، وإيصاله إلى
قصر الأميرة سانيس. ملأت القروح والدمامل وجهه وجسد
أنير العاري الهزيل الممدد في حوض الماء، وقد استمرت عملية
غسله الحذرة مدة ربع نهار تقريبًا. أخرجوه من حوض الحمام،
ومددته الخادمة بيرينة وسيدتها الصغيرة سانيس على السرير،
وأخذت بيرينة تعالج قروحه المتعفنة بصبر لا ينفد. وتواصلت
العملية طوال النصف الأول من الليل، وكانت الخادمة قد
هيأت، قبل ذلك، حساءً خفيفاً من الأعشاب المقويّة المطبوخة
مع قلوب ديكة يافعة وخصي تيوس، وجعلت أنير يتجرع من
الحساء في كل وقت جرعات لكي يحافظ على تماسكه الواهن
ريثما يستطيع تناول شيء من الطعام في الغد. وبعد مواظبة
وخدمة مخلصّة من سانيس وبيرينة، بدأ أنير يسترجع شيئاً من
وعيه، لكنّ آلاماً فظيعة استمرت تحرقه في كل لحمه وعظامه
الضامرة، وكانت قروحه لا تزال في حاجة إلى وقت طويل لكي

تعالج، وكان يشعر بدوخة ووهن في المفاصل، وبرغبة في التقيؤ. وأخيراً استطاع أن ينظر إلى سانيس؛ فرأى عينيها المرسومتين بألوان من غسل وردي فاتر، وشعرها المنسكب الساكن كحمامة ودیعة، ووجهها الأبيض المشرب بحمرة مثل حبة خوخ في نضجها الكامل، وفمها المنفرج عن ابتسامة تشبه الفجر في بزوغه على امتداد صحراء عذراء.. وعرفها. ثم قال لها بصوتٍ أخرجته من جوفه، وكأنه يُخرج معه أحشاءه:

- أحبتك يا سانيس، بإخلاص.

ثم تساءل بعفوية طفل بعد لحظة صمت:

- سانيس، هل طال الصداً شبابيك بنایة الرئيس؟. وهل تلفت حقاً ألوانها الزاهية؟

فاضت عيون سانيس بالدموع، وهي ترى ابتسامة خافتة ترتسم، كضوء شاحب، على وجهه الضامر. وفي الأخير، ارتخى رأسه، وطوّحت به دوخة بدت وكأنها دوخة أبدية.

مشاعر عتيقة

مات عدد كبير من سكان أرتو بسبب الوباء المباغت. وحين أراد الحاكم صولا الهروب من الموت، رفقة أسرته وأملاكه وحراسه ليلاً، بعيداً عن أعين مَنْ تبقى من السكان، كان يحمل في دمه الوباء الخبيث. وبعد يوم واحد من مغادرة القافلة المدينة، بدا

الحاكم على غير ما يرام. أنزلوه من فوق جواده وسط الخلاء، وهو يلهث كوحيدٍ قرن جريح، ثم انصرفوا عنه. انفضت من حوله القافلة خوفاً من انتقال العدوى إلى أفرادها، ومات- في تلك الأثناء- أحد الحارسين في منزل سانيس، وظل زميله تاسكي يعاني حمى شديدة، في الوقت الذي كان يساعد فيه بيرينة في عملية دفن زميله بجوار شجرة رند خضراء في الحديقة. وأحست الخادمة بإجهد غير عادي، لكن الحارس تاسكي نجأ بأعجوبة في النهاية، واعتنى ببيرينة أياماً طويلة عناية متواصلة إلى أن استعادت عافيتها الكاملة. ونشأت بينهما، خلال ذلك، قصة حب هادئ، وأصبحت- في النهاية- زوجه المخلصة الدائمة..

- تصوري بيرينة.. عشت سنين طويلة من عمري حارساً هنا، ورأيتك باستمرار، ولكنني كنت أراك فقط خادمة في هذا القصر.. لم أرَ بيرينة الجميلة الطافحة بالرقة والعنفوان. أحياناً نحتاج إلى أن نقرب أكثر من الناس لنكتشف حقيقتهم وجمالهم كاملاً.

ابتسمت بيرينة بهدوء، وهي تشدّ على يد الحارس تاسكي:

- كل إنسان يمتلك مشاعر ترافقه طوال حياته.. لا أنكر أنني أحببتك زمناً طويلاً.. أحببت صمتك، وأحببت إخلاصك وقوتك... ورغم ذلك، دفنت ذلك الحب في أعماقي.. كنتُ أخالُ أن الحب ممنوع على الخدم.. اعتقدت أنني سأقتل نفسي، وسأقتلك إذا أبديت لك بعضَ حبي.. لكنني الآن أدرك كم من سنين جميلة خسرتها من عُمريننا، ومضت هاربة منا كريح موسمية سريعة.

مرّر تاسكي يده بْحُنُو على شعر بيرينة، وقال وهو ينظر بعيداً،
كما لو أنه في حلم عميق:

- سيكون هناك عمر آخر؛ عمرٌ يجب أن نعيشه بكل الحب
الذي نستطيع منحَه لبعضنا وللناس.. كادت مدينة أرتو تموت؛
لأنها مدينة لم تعرف الحب الخالص والصادق.. كل قصص الحب
فيها كانت فاشلة.. حب سانيس وأنير لم يكن حبا واقعياً.. كان
أشبه بحلم عبثي، لا يمكنه أن يغير من حقيقة الواقع شيئاً.
الحب الذي لا يحرك المحيط من حوله لا يمكنه أبداً أن يكون
حباً ناجحاً.. حكام أرتو لم يحبّوا مدينتهم؛ فدمروها في النهاية..
هذه هي قصص الحب البليدة التي عرفتها أرتو يا بيرينة.

ضحكت بيرينة بنبرة فاتنة، تشبه ذلك الغناء الذي تترنم به
عادة لما تكون منهمكة في إنجاز عمل ما، وقالت:

- لقد آن لحبنا أن يصنع معجزة.. وستبدأ هذه المعجزة من
حديقة وساحة هذا القصر.. سنساعد سانيس لتحب الحياة من
جديد، ولتتزوج أنير.

تنهّد تاسكي، تنهيدةً خرجت على شكل زفرة حارقة:

- تحدثت قليلاً إلى أنير.. نعم، إنه يبدو في حال جيدة نسبياً.
رغم ذلك، لمستُ فراغاً مهولاً داخله.. لقد قتلوه يا بيرينة، منذ
أمد بعيد.. لقد قتلوه، وقتلوا معه قصة حب مدهشة!. لست أدري
لماذا راوَدني شعور بأنهم قتلوا معه أيضاً أحلام شعب البربر كله!

- إنه شاب قوي، ويجب الحياة.. أنير سيعود لنفسه ولسانيس
ولأرتو.. وللبربر.

موسيقى ذابلة

وفد على المدينة رجل أعرج غريب. كان يقود بغالاً محملة
ببضاعة ثقيلة. استأجر حجرة في خان، وكلف حارس الإسطبل
ليحرس له البضاعة، وخرج، متأبطاً كيساً صغيراً، يجوب الشوارع
والأزقة لغرض في غاية الأهمية. وفي اليوم التالي، وفدت مجموعة
صغيرة من الأمازيغ نصبت خيامها على الجبل، وأشعلت التنانير،
وخبزت خبز الحنطة، وفاحت في المدينة رائحة حياة.. حياة أخرى
جديدة، وبمذاق رائع.

بعد مرور أيام أخرى، دبّت حركة محتشمة في أرتو، وتساقط
مطر غزير، وانهمرت سيول جرفت الوسخ والقذارة كلها التي
كانت تملأ الأزقة والشوارع. وأشرقت شمس دافئة، رشّت أشعتها
المتوهجة الذهبية بيوت المدينة الباهتة. ولازمت سانيس أنير،
وواكبت استعادته بعض قواه، إلى أن أصبح قادراً على الاستحمام
وتناول الطعام بنفسه. أطلت من النافذة في يوم هادئ وبهيج؛
فسمعت زقزقة عصافير، وهديل يمام، ورأت في الحديقة برعم زهرة
صغيرة كان قد فجر سابقاً رماد قيثارة الموسيقى لو طر الممزوج
بالتراب.. وواكبت سانيس نمو ذلك البرعم إلى أن أمسى، في النهاية،
زهرة بديعة توزع روائح موسيقى ساحرة في أجواء المدينة كلها.

أدركت سانيس أن أرتو بدأت تنفس من جديد، وإن كان ذلك بصعوبة شديدة، وأنها تحتاج إلى مَنْ ينظف هواءها الفاسد. امتطت جوادها، وخرجت لتستطلع الأحوال داخل المدينة؛ فشاهدت هدوءاً خافتاً يبسط سيطرة حذرة، وعينت حركة بطيئة تدبّ في الأزقة والشوارع، ومرت بمحاذاة حدادة العجوز كاجي؛ فوجدت الورشة مغلقة، فسألت تاجرًا يبيع مسحوق ذرة في زاوية الشارع عن العجوز؛ فأخبرها بأن السيد كاجي قضى جرّاء الوباء الغامض الذي ضرب المدينة، وأما الشابان اللذان كانا يشغلان معه في الورشة فقد هاجرا في حال سيّئة، وأنه لا يعرف مصيرهما. واصلت سانيس تجوالها الهادئ في المدينة، وسارت على جوادها كإلهة سماوية مجللة بهالة عجيبة من نور غير مرئي. تأملت حمّامًا قليلًا متفرقًا يطير فوق الأسطح، وسمعت هديلًا باكيًا هزّ قلبها الرقيق. شعرت بهجة، وغمرتها حالة أمل تدفقت على روحها كنسمة رقيقة. وصلت إلى وسط المدينة والسوق الخالي، الذي فقد جُلّ ملامحه، وماتت مظاهر الحياة فيه، ورأت شجيرات الرند التي كانت - في السابق - خضراء يانعة، لكنها تحولت الآن إلى مجرد شجيرات مشروخة ويابسة. وتذكرت السيد ماريوس، وشعرت حياله بامتنان لم تشعر بمثله من قبل، واعترفت في نفسها بأنه كان رجلًا نبيلًا. وتأمّلت جدران المدينة المغبرة المكسوة بلون أسود غامق ظل لاصقًا في الكثير من مبانيها، وأدركت المجهود الجبار الذي ينتظر السكان من أجل إعادة الرونق السابق إلى

مديتتهم. شردت قليلاً، وهي تقود جوادها نحو الدور التي حالفها الحظ فبقي أهلها على قيد الحياة، ولم يسافر سكانها إلى جهات مختلفة. وأدركت أن أرتو تحتاج إلى قائد جديد؛ قائد مليء بالطموح والحيوية، وتبين لها أن هذا القائد لن يكون إلا أنير، بعد أن يستعيد جميع قواه؛ فهو وحده القادر على إعادة المدينة إلى سالف مجدها. وبينما هي شاردة في أفكارها، لفت انتباهها رجل كهل، أغبر الملامح، يمشي مشية عرجاء، وكان يتوجه نحوها مسبقاً بوهج عجيب ينبعث من داخله كالنور:

- سيدتي، أبحث عن شاب.. إنه صديق رائع اسمه أنير.. سيكون في هذه المدينة؛ كما أبلغتُ.

- ما اسمك أيها الرجل الطيب؟

- اسمي أفولاي.. أفولاي تاجر الملح.. هل تحتاجون إلى ملح؟.

يمكنني أن أساعد.

قاده سانيس بجنبها إلى القصر. كان الكهل يهرول، والعرق ينز من جبينه، ويسيل على وجهه المشكل تشكيلاً عجيباً من تجاعيد كثيفة غزته مبكراً، وكان يمسك في يده اليمنى بقوة أيقونة نفوشت، وفي اليد اليسرى خاتم زهرة الجمر المرصع بحجر من ماس. أخبرته سانيس بأن أنير تجاوز محنة كادت تؤدي بحياته، ولكنه الآن أفضل حالاً من السابق، ومن المتوقع أن يكون في كامل عافيته بعد أيام قليلة. سارا بهدوء بجنب سور بناية الرئيس، ووصلا أخيراً إلى المخزن السابق للسيد ماريوس، واقتربا من القصر،

وشعرا فجأةً بصمت مرعب يكتنف الحديقة والضيعة وكل المحيط،
وهربت العصافير في اتجاه أشجار السرو، وتوقفت النسائم الرطبة
التي كانت تهبّ، وغطت سحابة سوداء الشمس على حين غرة،
وخيّم صمت جنائزي مخيف. لم تجد سائيس الحارس لدى باب
المنزل، فاضطرت إلى قيادة جوادها، بعد أن ترجّلت عنه، وتوجهت
به نحو الحديقة حيث الإسطبل.. وكان الرجل الكهل تاجر الملح
يتبعها بخطوات عرجاء ومُجّهدة، غير أن وجهه كان يشرق ببهجة
ارتسمت مثل ظل هادئ ودائم على محيا طفل بريء.. فجأةً شمّ
رائحة شاب يعرفه جيداً، ثم رأى، كما لو أنه في رؤيا رهيبة، جثة
ملفوفة في ثوب أبيض ناصع، ولم يكن يظهر أي شيء من الجسد
المسجى على الأرض. تلوّن وجه السيد أفولاي بكل الألوان
القائمة، واندلعت داخل نفسه عاصفة يأس رجّته رجاً عنيفاً،
وسقطت من يده أيقونة نفوشت، وتشتت ملح قليل تسرب من
ملابسه، وتدحرج على الأرض خاتم من الذهب الخالص مرصّع
بحجر ماس، وتذكر مقولة قديمة للمعلم ماسين:

- هذه الفتاة يجب أن تصبح أميرة، وعلى يديها قد تشرق
الشمس على بلاد الأمازيغ.. وقد يدفن في ظلها بطل أمازيغي!

وبعد لحظة صمت رهيبة، ردد أفولاي في نفسه:

- وصلت أيقونة نفوشت متأخرة، ووصلت كمشة الملح متأخرة،
ووصل خاتم زهرة الجمر متأخراً، في تحديات مصيرية لا ينبغي لأي
تأخر أن يحصل!

كتمت سانس، وهي تقف بجانب جثة أنير، بجهدٍ شبه
مستحيل، صرخةً نبعت من مسافة انتظار بعيد لا حدَّ له في أعماقها؛
انتظار مجهد سكن كل شيء فيها سنوات طويلة.. لقد رأت الحارس
تاسكي وزوجه بيرينة يحفران قبراً لأنير، بجوار الزهرة الذابلة التي
كانت قد تفتحت ذات يوم من رماد الموسيقى لو طر.

وصرختُ: ماذا تفعلين؟

وهذه المباحج لي،

وأنت توزعينها من حولك. سأتمسك بحقي الشرعي.

إنها لي ولك، لي ولك معاً،

إنها فرصتنا،

ولن يشاركنا طرف ثالث!

الأمازيغي الخفي

أحست سانيس بوجع حاد، فاستلقت على الفراش. وعندما طال مكوثها في السرير طوال المساء، قلقت عليها بيرينة قلقاً شديداً، وانتابها الفزع؛ فنادتها من وراء الباب:

- سيدتي، هل أنت بخير؟

أخرجت سانيس من جوفها صوتاً واهناً:

- بيرينة، تعالي.. أشعر بشيء غير عادٍ!

استبد الذعر بيرينة طيبة القلب، وهُرِعت إلى مخدع سيدتها:

- سيدتي سانيس، هل كل شيء على ما يرام؟

نزّ قليل من العرق على جبين سانيس، وذبلت سحتها، وشعرت بغثيان مفاجئ. قالت وهي تجاهد حالة إرهاق متزايدة:

- أنا لست على ما يرام يا بيرينة.. أشعر بحالة غريبة.. شيء ما يتحرك داخلي!

- ماذا تقصدين سيدتي؟

- المسي بطني.. قد تجدين تفسيراً لهذه الظاهرة.

وضعت بيرينة يدها على بطن سائيس، وشعرت بانتفاخه، وتأكدت من شيء طالما شكّت فيه كلما مرت من أمامها سائيس ماشية، ولكنها الآن تتأكد. ابتسمت بهدوء، وقالت مخاطبة سيدتها:

- هنيئاً لك.. أنت على وشك أن تصبحي أمًا.

استغربت سائيس، وامتزج استغرابها بفرحة تشتتت حولها كغبار من نور:

- ولكن!. ولكن!. هل حقاً أنا حُبلى؟

- نعم سيدتي.. أستطيع ملاحظة أعراض الحمل بسهولة.

نظرت سائيس شاردة إلى سطح مخدعها، وقالت كالحالمة:

- سأسميه أنير...

- ولكن أنير اسم أمازيغي!

- نعم.. هذا صحيح؛ لأن والد الطفل اسمه أنير.

- قد تكون المولودة أنثى سيدتي.

- لا.. لقد زارتني ليلة أمسِ الإلهة فينوس، وأخبرتني أن في

داخلي أمازيغيا جميلا.. لقد اعتقدت أنها تقصد أنير الذي دفناه في الحديقة، قبل حوالي شهر، وظل حيا في نفسي دائما.. ولكن الآن يتبين لي أنني أحمل داخلي جنينا أمازيغيا من أنير، الذي وفد من بلده دريو إلى مستوطنتنا الرومانية منذ سنوات.

فهرست الرواية

.....

11 التي ترى
15 الرومانية الحسنة
21 شهوة السفر
35 أفولاي والوصية
45 الرحيل اللاذع
63 معركة الذئاب وأسطورة سانيس
109 أفولاي ورائحة الموت
117 جبل الأمازيغ
135 أنير في مدينة أرثو
149 الشباك المزوق
159 محنة أنير وتواهي
181 أفولاي والقبر الأبيض
193 الشباك المعجز
207 إعجاب وشك قاتل
223 أفولاي والأسرة الرومانية
233 قاتل في مخدع أنير
255 ليلة بالأبيض والأسود
267 زيارة سيفا والأخيرة
273 الطريدة والصيد الماهر
283 تبرينا والبحر
301 جسدان وبخار حمام
329 أفولاي وزفرات الحسرة
339 حريق وحب مهول
355 الأيقونة الحزينة
375 الأمازيغي الخفي

قطارا
katara

تعرض الرواية لفترة الوجود المبكر للرومان في وسط وغرب الجزائر وشرقي المغرب، وترصد من خلال ذاكرة لُحْيِيَّة، أولى محاولات الأمازيغ لمناهضة الوجود الروماني قبل الميلاد. يلتقي أمير الفنى الأمازيغي الوسيم، سانس ابنه الحاكم أوريلينوس سيبو أثناء عبور الجيش الروماني لبلدة دريو في طريقه لكسر شوكة لوار مملكة ماسبيليا الأمازيغية، واستعجب سانس بالفنى الشاب، الذي سيهدبها سلة كستانا، وفي مقابل هذه الهدية، استدعوه سانس إلى زيارة مدينة أرتو.

عكست الرواية من خلال أحداثها المكثفة، الامة شعب بكامله، وأماله في أن تسطع على بلاده «شمس» الحرية، المشار إليها بأيقونة «نقوش» التي أوصى المعلم «ماسين» بإصاها إلى البطل «أثير» رمز الخلاص. ويتطور الأحداث، وتكشف ولع بضعة من الحكماء الأمازيغ بالقراءة والمجادلة في الفلسفة، وسيوحي المعلم الأمازيغي ماسين إلى تلميذه الشاب التابع بوجود مناهضة الاحتلال الروماني. وسيهجر أثير البلدة متوجها إلى مدينة أرتو، كخطوة في سبيل تحقيق طموح معلمه من جهة، والعشق الدفين الذي ظل يجمله للرومانية الحسنة من جهة ثانية. عندما يصل أثير إلى مدينة أرتو، وبعد جهد وبحث مضنيين، سيحصل على عمل في ورشة لصنع الشبائك الحديدية، وقد جرَّ عليه إتقانه عمله هذا متاعب من قبل قائد الحرس الروماني السيد ماريوس، الذي لم يتقبل فكرة امتحان أمازيغي حرفة الحدادة والإبداع فيها، فيقرر السيد ماريوس اغتيال أثير؛ الذي يستطيع تفادي محاولات اغتياله بأعجوبة، ورُغم ذلك يدخل السجن، غير أن أمازيغيا جديدا سيقبهر بعدما تكون الأميرة سانس قد حلت من أثير.

مكتبة نوميديا 211

Telegram :Numidia_Library

مصطفى الحمداوي كاتب وروائي من مواليد مدينة الدريوش بالمغرب سنة 1969، هاجر سنة 2005 إلى هولندا، وأقام منذ ذلك الوقت هناك. كتب في العديد من الدوريات الورقية والمواقع الإلكترونية. نُشرت له أول رواية عام 2010، بعنوان «غواية الجسد» عن دار سندباد بالقاهرة، ثم نُشرت له عام 2015 رواية «حب دافق تحت الثلج» عن دار شمس بالقاهرة، ورواية «الشیطان والورد» عن دار أفريقيا الشرق بالدار البيضاء، كما نُشر له أيضا مؤلف بعنوان «غابرييل غارسيا» في دائرة الواقعية السحرية» عن دار الأدهم بالقاهرة.

نال جائزة الفجيرة للمونودراما سنة 2014، وشارك في المنتدى الثاني للصحافة الإلكترونية تحت إشراف موقع «هبة بريس» على هامش المعرض الدولي للكتاب بالدار البيضاء 2016. وكُرّم من قبل المنتدى، والتي مداخلة حول الإعلام ودوره في بناء الوحدة المغربية.



مصطفى الحمداوي

ISBN 9789927126215



9 789927 126215